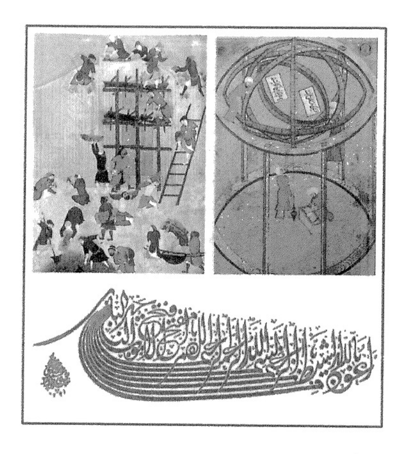
الحضارة العربية الإسلامية

دراسة في تاريخ النظم



د. رحيم كاظم محمد الهاشمي   أ. عواطف محمد العربي شنقارو

الدار المصرية اللبنانية
القاهرة

المكتبة الجامعية
غريان - ليبيا

الحضارة العربية الإسلامية

دراسة في تاريخ النظم

المكتبة الجامعية - غريان - ليبيا

هاتف 634629-041 فاكس 630730-041 . ص. ب 64042 غريان

الدار المصرية اللبنانية - القاهرة

16 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
هاتف 3910250-3923525-3936743 . فاكس 3909618 . ص. ب 2022
e-mail ALMASRIAHRASHAD@LINK.NET

رقم الإيداع : 2002/4317 الترقيم الدولي : 9959-9530-1-7 ISBN
الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
دار الكتب الوطنية
بنغازي - ليبيا
هاتف : 9090509-9096379-9097074
بريد مصور : 9097073
البريد الإلكتروني : nat_lib_libya@hotmail.com.

الحضارة العربية الإسلامية

دراسة في تاريخ النظم

د. رحيم كاظم محمد الهاشمي
أستاذ التاريخ بجامعة السابع من إبريل
ليبيا

أ. عواطف محمد العربي شنقارو
أستاذة التاريخ بجامعة السابع من إبريل
ليبيا

الدار المصرية اللبنانية
القاهرة

المكتبة الجامعية
غريان ـ ليبيا

المقدمة

الحضـــارة مفهوم واسع شامل فهي في اللغة تعني الإقامة في الحضر ، وهم سكان المراكز العمـــرانية والحضـــر خـــلاف البدو ، وقد فرق ابن خلدون في مقدمته بين العمران البدوي والعمـــران الحضـــري ، واعتـــبر الـــبداوة أصل الحضارة وربط الحضارة بالسيادة أي الملك والاســـتقرار لكـــي تـــنمو وتزدهر . فالحضارة في الفكر الخلدوني أضيق من الحضارة بمعناها الاصـــطلاحي الحديث لأنها تقتصر على الجانب المترف من النشاط الإنساني وتستبعد النشاط الديني والعقلي والخلقي .

وتطلق على الحضارة كلمة (المدينة) التي تقابل كلمة Civilisation اللاتينية والتي تعني المدنيـــة ، وهي بهذا المعنى أعم من الثقافة التي تطلق على الجانب الروحي أو الفكري . ويشبّه آدم متز في كتابه عن النهضة الإسلامية المدنية بالنهضة لأنه يعتبر أن الحضارة العربية الإسلامية بلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري ، وجمع وول ديورانت في " قصة الحضارة " بين الحضارة والمدنية وعدهما معنى واحدا .

نخـــلص إلى القول بأن الحضارة بمفهومها العام تعني النشاطات الإنسانية المادية والعقلية والروحية وهي مجموعة القيم والمفاهيم الموجودة عند مجموعة من البشر من تقاليد وأفكار ونظم وقوانـــين تـــتحكم في توجيـــه ذلـــك النشاط الروحي والمادي للمجتمع وتوصله في النهاية إلى مستوى حياة أفضل .

والحضـــارة العـــربية كبقية الحضارات الأخرى لم تنشأ من العدم بل سبقتها حضارات أخـــرى، وقـــد نجحت في اختيار العناصر الصالحة منها ثم مزجت بينها وأكملت الناقص منها فـــبرزت لها شخصية متميزة . فالحضارة العربية الإسلامية إذن هي ذلك التراث الضخم الذي تميزت به الأمة العربية في القرون الوسطى والذي ساهمت به أمم متباينة وأجناس متعددة جمعها الإســـلام ، ووحـــد بيـــنها ، وصاغ وحدها الروحية وخلق منها مجتمعا صالحا . فقدم الإنجاز والإنـــتاج الفكـــري المتميز والمتنوع الاتجاهات والموحد الهدف . فالحضارة العربية الإسلامية حضارة إنسانية لأنها تلائم فطرة الإنسان وخصائصه المتعددة وتساير تطلعاته وتلبية حاجاته .

وتســـهيلا للدراسة فقد قسمناها إلى ثمانية فصول . تناول الفصل الأول النظام السياسي في الدولـــة العـــربية الإسلامية وركزنا على الخلافة والوزارة والكتابة والحجابة ، واستكمل الفصـــل الثاني النظم الإدارية التي استجدت في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، وتطور تلك النظم في العصرين الأموي والعباسي . وخصصنا الفصل الثالث لدراسة القضاء وتطوره في الدولة العربية ، وتحدثنا عن النظر في المظالم والحسبة وأعمال ووظائف المحتسب . وأفردنا فصلا خاصا عن تاريخ النظم الحربية وتطور المؤسسة العسكرية العربية الإسلامية البرية والبحرية مع لمحة عن تطور نظام الشرطة في الإسلام .

أما الفصل الخامس فكان بعنوان النظام الاجتماعي في الدولة العربية الإسلامية ، وتكلمنا فيه عن امتزاج الحضارة العربية بالحضارات الأخرى بعد حركة الفتوح ، ونتائج ذلك الامتزاج والاندماج ، وتحدثنا فيه عن عناصر وطبقات المجتمع الإسلامي والمجالس الاجتماعية ، واختتم الفصل بالحديث عن العادات والتقاليد الاجتماعية التي سادت المجتمع العربي الإسلامي آنذاك ، في حـــين تضـــمن الفصـــل السادس دراسة عن التربية والتعليم والثقافة والمكتبات الخاصة والعامـــة . وخصصـــنا الفصلين السابع والثامن لدراسة العلوم اللسانية والإنسانية والتطبيقية والدراسات الدينية والعقلية .

ندعـــو الله أن يسدد على طريق الخير خطانا ، ونسأله عز وجل أن يوفقنا لخدمة تراث أجدادنا لما فيه الخير والصلاح ، والله من وراء القصد ، وهو ولي التوفيق .

الفصل الأول

النظام السياسي في الدولة العربية الإسلامية

أولا : الخلافة

1 – ألقاب الخلافة .

2 – شروط الخلافة .

3 – علامات الخلافة .

4 – الخلافة عند الأحزاب السياسية .

ثانيا : الوزارة

المراحل التاريخية التي مرت بها الوزارة .

الوزارة في العصر العباسي .

ثالثا : الكتابة

رابعا : الحجابة



أولا : الخلافة

الخلافة في اللغة مصدر خلف ، ويقال : خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة ، والجمع خلائف وخلفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾[1] .

– اخلفني : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾[2] .

– استخلف : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[3]

– خليفة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[4]

– خلائف : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ ﴾[5] .

– خلفاء : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[6] .

وقد اختلف في لفظ الخلافة اللغوي فقيل : هو فعيل بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، ويكـــون المعـــنى أنه يخلفه من بعده ، وعليه حمل قوله تعالى في حق آدم عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَـــاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : الآية 30) وقيل فعيل بمعنى فاعل ، كعليم بمعنى عالم ، وقدير بمعنى قادر ، ويكون المعنى فيه أنه يخلف من قبله ، وعليه حمل الآية السابقة من قال : إنه كان قبل آدم في الأرض مخلوقات منها الملائكة مثلا ، وأنه خلفهم فيها .

والخلافة هي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا عن النبي ﷺ فيقال خليفة رسول الله لأنه خـــلفه في أمته ، وعلى ذلك خوطب أبو بكر الصديق ﷺ بخليفة رسول الله . وتكون الخلافة عن الخليفة الذي قبله فيقال فلان خليفة رسول الله ، وعلى ذلك خوطب عمر بن الخطاب ﷺ بخليفة خليفة رسول الله في بداية توليه الخلافة .

(1) الأعراف : الآية 169 .
(2) الأعراف : الآية 142 .
(3) النور : الآية 55 .
(4) البقرة : الآية 30 .
(5) الأنعام : الآية 165 .
(6) الأعراف : الآية 69 .

وقـد عـرّف البيضـاوي الإمامـة بأنها : « عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسـول ﷺ في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة » ، وقال ابن خلدون في تعريفها : « هـي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ إن أحـوال الدنيـا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » .

1 ـ ألقاب الخلافة :

لمـا كان منصب الخلافة هو نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فالقائم ثم بها يلقب بأربعة ألقاب هي :

1 – عـبد الله : وأول مـن تلقب به عمر بن الخطاب ﷺ فكان يكتب في كتبه التي أرسـلها إلى الأمصار الإسلامية من عبد الله بن عمر أمير المؤمنين ، وتبعه في ذلك الخلفاء من بعده ولزموه .

2 – أمـير المؤمـنين : وهـو لقب التصق بالخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لكونه مناسبا لظـروف الفـتوحات الإسـلامية الـتي تمت في عهده لأنه يشير إلى قائد الجيش فقد أشار ابـن خـلدون لذلـك بقوله : « يقال إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة ، وقيل بريد جاء بالفتح من البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ﷺ، ويقول : «أين أمير المؤمنين ؟ فسمعها الصحابة فاستحسنوه ، وقالوا أصبت والله» .

وقد تلقب خلفاء الدولة الأموية بالأندلس بالإمارة فقط إلى أن تولى عبد الرحمن بن محمد فتـلقب بـأمير المؤمنين ، أما في المغرب الأقصى فمنذ أيام يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، خوطب أمراؤها بلقب أمير المسلمين واستخدمه من بعدهم الموحدون وبنو مرين.

3 – الإمام : وهو من الألقاب المستجدة للخليفة في أثناء الدولة العباسية بالعراق وهو تشبيها له بإمامة الصلاة في اتباعه والاقتداء به ، ويعني الهادي والمرشد لهم في دينهم ودنياهم ، وقـد التصـق هذا اللقب بعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وأثره الشيعة على غيره من الألقاب لصفته الدينية ، وأصبحت تعرف عندهم بالإمامة الكبرى تميزا لها عن الإمامة الصغرى الصلاة ، ولهم في ذلك عدة أقوال[1] .

---

(1) انظر : عواطف العربي شنقارو ، فتنة السلطة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت 2000 ، ص 227.

4 – لقب الخلافة الخاص بها : كالمنصور، والهادي ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم بالله، والمتوكل على الله وقد ابتدئ بها في الدولة العباسية .

وهكذا أطلقت الخلافة على الولاية العامة على الأمة والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها ، فالخليفة ينوب عن الرسول ﷺ ويخلفه في رئاسة الدنيا والدين ويجمع بين السلطتين الزمنية والدينية . فالخليفة حاكم زمني وروحي في آن واحد ، ومهما اتسعت سلطته لا يستطيع مخالفة الشريعة المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

2 ـ شروط الخلافة :

هناك العديد من الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يلي أو يتولى منصب الخلافة كما أوردها المصادر بعد أن استنبطها الفقهاء من الجانب العملي لنشأة مؤسسة الخلافة وتطورها وهي :

1 – العلم المؤدي إلى الاجتهاد في شؤون الدين والدنيا : فينبغي أن يكون عالما بصرف الأمور على النهج القويم .

2 – العدالة : وهي الاستقامة في السلوك وعدم ارتكاب المحظورات والعدل في الرعية فلا تنعقد إمامة الفاسد ، لأن الخليفة مؤتمن على أموال المسلمين وحقوقهم ، لذا ينبغي أن يكون نزيها معروفا بحسن السيرة والأخلاق .

3 – الولاية الكاملة : ويتضمن هذا الشرط أن يكون الخليفة مسلما حرا ذكرا بالغا عاقلا ، فالإسلام شرط في جواز الشهادة وفي صحة الولاية . قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا ﴾[1] .

4 – الحرية : فإن نقصها يفقد الفرد الولاية على نفسه وهذا يمنع من انعقاد ولايته على غيره . أما الذكورة فشرطها متأتٍ من جسامة المسؤولية في الخلافة مما لا يتناسب مع طبيعة المرأة . أما البلوغ فإن الصبي غير مكلف .

5 – الكفاية: وهي أن يكون الخليفة قادرا على إقامة الحدود بصيرا بالحروب والسياسة، ليصبح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام .

(1) سورة النساء : الآية 141 .

6 – سلامة الحواس والأعضاء ، وهو من شروط منصب الخلافة لتمام الإدراك والقيام بالعمل ، فهو شرط كمال والخلل فيه يظهر النقص .

7 – النسب القرشي : وقد اعتمد هذا الشرط منذ وفاة الرسول ﷺ وقد اختلف فيه وقيل إن أبي بكر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول « الأئمة من قريش » ، وهي مقولة استغلتها جميع الفرق الإسلامية وفسرت الإمامة كلا حسب رؤيتها ومصالحها فكانت النقطة الرئيسية في الخلاف والصراع إلى يومنا هذا .

3 ـ علامات الخلافة :

انفردت الخلافة الإسلامية بشارات أو علامات تميز فيها الخليفة دون غيره ، وقد تطورت هذه العلامات والشارات وتنوعت وازدادت ضمن تطور نظام مؤسسة الخلافة عبر العصور الإسلامية ، نتيجة لامتزاج الشعوب بعضها ببعض وامتزاج الحضارة وانصارها في بوتقة الخلافة الإسلامية . ومن أشهر تلك العلامات ما يلي :

1 – المنبر : عرف المنبر وهو السرير أو الكرسي ، وهو مكان مرتفع يجلس عليه الحكام قبل الإسلام لتميزهم عن أهل مجلسهم ، وهو من حالات الترف والرفاهية وعرفه العرب في مجالس التحكيم التي كانت تتم بين المنازعات القبلية ، وقد استعمله المسلمون في المساجد في السنة السابعة أو الثامنة للهجرة ، واستعمل في المناسبات الدينية والخطب السياسية وفي إقامة الصلاة . يقول ابن خلدون أن أول من اتخذه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، وقد نقل معاوية منبر الرسول ﷺ من المدينة إلى الشام .

2 – البردة : ويقصد بها بردة الرسول ﷺ التي خلعها على الشاعر كعب بن زهير بعد أن مدحه بقصيدة مطلعها « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » ، لما رجع تائبا مسلما وظلت البردة عند أهل كعب يتوارثونها حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان ، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون حتى الاحتلال المغولي لبغداد . والراجح أنها وصلت إلى استانبول عن طريق أبناء الخلفاء الذين فروا إلى هناك وهي الآن في متحف طوب قنوسراي باستانبول .

3– الخاتم : اتخذه الرسول ﷺ عندما أراد أن يكتب إلى قيصر ليدعوه إلى الإسلام فقيل له إن العجم لا يقبلون كتابا غير مختوم ، فاتخذ النبي ﷺ خاتما من الفضة وجعل نقشه (محمد رسول الله) ، وقد استعمل هذا الخاتم في عهد أبي بكر الصديق وعمر وعثمان ﷺ حتى فقده

عـــثمان بـــن عفـــان في بئر اريس قرب المدينة ، وربما يدل هذا الفقدان على أن زمن الخلفاء الراشـــدين والعدل والشورى قد انتهى وسيبدأ عهد الصراع السياسي حسب المصالح المادية وهـــي إشـــارة إلهيـــة لما سيحدث فيما بعد ، ثم صنع الخليفة الثالث خاتما آخر على غراره ، وقد اتخذ الخلفاء أختاما خاصة على بعضها مواعظ وحكم مثل : على الله توكلت ، اعتمادي على الله وهو حسبي .

4 – القضـــيب : وهـــو عود من الخشب كان الرسول ﷺ يأخذه بيده ، فقلده الخلفاء في حمله .

5 – الخطـــبة : أي الدعـــاء للخليفة على المنابر في المساجد ، وهي رمز الولاء والطاعة للخـــليفة ، وقد بدأت هذه العادة في عهد الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) حين وقف عبد الله بن عباس على المنبر وهو والي البصرة ، وقال :" اللهم انصر عليا على الحق " . فصار الدعاء للخليفة علامة على سلطانه واستمراره في الخلافة ، ولما ضعفت الخلافة في العصر العباسي أدخل الولاة اسمهم مع اسم الخليفة في الخطبة .

6 – الســـكة : وهي ضرب النقود المتعامل بها بين الناس باسم الخليفة وعليها آية كريمة قصـــيرة أو دعـــاء موجز ، وفي عهود الضعف أصبحت النقود كالخطبة حيث شارك الحكام المتســـلطون الخـــليفة في كتابة أسمائهم وكناهم على النقود ، كما فعل حكام الأقاليم بصفتها وسيلة لإعلان الاستقلال الذاتي عن الحكم المركزي .

7 – الطـــراز : وهـــي ثياب الخلافة ، وقد كانت ثياب الخلفاء الراشدين لا تتميز عن ملابـــس أقـــل رعايـــاهم شـــأنا . ولبس خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس الحلل الفاخرة ؛ وقد أخذوا يبالغون في اقتناء أغلى الثياب وأجملها ، مع شكل خاص من الثياب لموظفي البلاد والأمراء والقادة .

8 – المقصورة : وهي حاجز خشبي يعزل فيها الخليفة عن الجماعة ، وقد اتخذت للحماية بعـــد حوادث اغتيالات الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي ، وهذا يعني أنها عرفت في عهد معاوية بن أبي سفيان ثم توارثها خلفاؤه وكذلك الخلفاء العباسيون .

9 – لون الأعلام : وكانت الأعلام والرايات تختلف باختلاف العصور الإسلامية ، فراية الأمويـــين كانت خضراء . أما بنو العباس فشعارهم السواد ، وراية الفاطميين وسائر الطالبين كانت بيضاء .

10 – الحرس : وهم الجند الخاص للخليفة، وينسب استحداثه إلى معاوية بن أبي سفيان، ثم توارثه العباسيون .

11 – الخلعة : وهي الهدايا التي يهديها الخلفاء للناس .

12 – الكسوة : وهي غطاء الكعبة يرسله الخليفة في موسم الحج .

13 – التاج : وهو لباس الرأس الخاص بالخليفة .

ومما تجدر إليه هذه العلامات أو الشارات أنها كفلت للخلافة استمرارية ومركزية ، وضمنت بقاءها في أطراف الدولة العربية الإسلامية بعد تفككها إلى عدد من الدول والممالك ، واستمر الحال كذلك حتى نهاية الدولة العثمانية .

4 ـ الخلافة عند الأحزاب السياسية :

إن حادثة اغتيال عمر بن الخطاب ﷺ سنة 23هـ /644م لم تكن عادية في أسبابها وملابساتها ، مما يبعث على الاعتقاد بأن وراء الاغتيال أسباب سياسية واقتصادية ، أهمها الصراع السياسي على السلطة ، حيث بدأ مسلسل الاغتيال بعمر ثم عثمان بن عفان في الثامن عشر من ذي الحجة سنة 35هـ/ 655م ، وكانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان بن عفان هي أن الخلافة الراشدية انتهت في المدينة وانتقلت إلى مقرها الجديد (الكوفة) ، وأصبحت الخلافة خاوية المحتوى من حيث القداسة ، وصار الحكم الفصل فيه للسيف خاصة بعد مقتل الخليفة الرابع على بن أبي طالب في مسجد الكوفة سنة 40هـ /661م على يد الخوارج .

وهكذا نجد أن الصراع بين المسلمين كان صراعا سياسيا حول منصب الخلافة وحول أحقية كل طرف من أطراف النزاع في تولى الأمر ، ومما زاد المشكلة تعقيدا أن الاحزاب أو الفرق السياسية اصطبغت بصبغة دينية قوية نظرا لما للدين من أثر ومكانة في النفوس ، ولاعتقادهم وإيمانهم بأن رأيهم وطموحهم السياسي لن ينجح إلا عن طريق واحد فقط ، هو تغليفه بالدين ، فصار كل حزب سياسي فرقة دينية وصار الذين يقتتلون سياسيا يقتتلون دينيا ، وبدل أن تسمى الفرقة اسمها اسما سياسيا يدل على المبدأ السياسي الذي تدعو إليه وتؤمن به ، تسمى اسما يدل على المذهب الديني (أهل السنة والحديث ، الشيعة ، الخوارج ، المرجئة ، المعتزلة) .

ورأت هذه الفرق في الإمامة طرقا مختلفة مستعينة في تدعيم آرائها بما ورد بالقرآن الكريم تفسيرا وتأويلا وما جاء بالحديث الشريف نصا ومعنى . وسنورد هنا آراء تلك الفرق الإسلامية فيما يخص الخلافة :

أولا : أهل السنة والحديث

يرى أهل الحديث والسنة أن الخلافة واجبة شرعا ، وقد ذهبت النظرية السنية في الخلافة إلى أن الانتماء إلى « قريش شرط من شروط الحاكم لا يجوز التنازل عنه » . ونحن نعتقد أن هذا الشرط مخالف للقرآن ليس فقط من حيث الإلزامية ، بل يعارض الحرية ويعارض العموم القرآني الذي يؤكد مبدأ المساواة والعدل . وقد مرت نظرية الخلافة عن السنة وأهل الحديث بمرحلتين :

الأولى : مثلها الفقهاء الأوائل حيث أشاروا إلى واجبات وحقوق الخليفة كمجموعة من الإرشادات والنصائح ، كما ورد ذلك لدى أبي يوسف في كتابه الخراج . أما المرحلة الثانية فقد تمثلت في إثراء هذه النظرية من خلال التطورات السياسية التالية ومتمسكة بمبدأ عصمة الإجماع عبر الأجيال ، فوضعت أغلب قواعدها على الحال العملية التي مرت بها الخلافة الإسلامية من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية .

ثانيا : فرق الشيعة

ترى هذه الفرقة في قضية " الإمامة " أن الإمامة ليست من مصالح العامة ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبي ﷺ إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، والعصمة في علي وذريته من بعده .

وعليه تعد الشيعة من أقدم الفرق السياسية الإسلامية التي صارعت من أجل السلطة والخلافة .. وهكذا تكونت الفكرة الشيعية في نظرية الإمامة ، ففرق منها ما كان فيه اعتدال ، وفيها من كان مغاليا جدا . وهي في كلتا حالتيها قد اتسمت بالتعصب الشديد لآل البيت النبوي . فالإمامة في المفهوم الشيعي ميراث نصي يتناقله الأبناء عن الآباء ، فكل إمام يعهد إلى الذي يليه ويترك له كتابا ووصية ظاهرة ، وفي هذا الكتاب ما يحتاج إليه ولد آدم منذ خلق الله آدم إلى أن تفنى الدنيا .

ثالثا : فرق الخوارج

يرتبط نشوء الخوارج كفرقة سياسية بقضية الإمامة أو الخلافة ، وهي قضية أثارت الجدل والخلاف بين المسلمين ، وأدت إلى صراع عنيف دموي بين المسلمين أحدث على أثره تصدع في الصف الإسلامي .

وكانت فرقة الخوارج أول الفرق انسلاخا عن جسد التيار العام ، ولقد ظل الخوارج منذ البداية وحتى النهاية فرقة سياسية تمارس المعارضة ، وعلى كل حال فقد كان الخوارج يرفضون القول بحجة الإجماع باعتباره في النهاية إجماع "أهل السنة والجماعة" . ومن ثم فقد كان الاجتهاد المباشر في فهم النص ولا سيما القرآن منهج الخوارج الأصيل ، ولذلك يصفهم الشهرستاني بقوله : " هم أشد الناس قولا بالقياس ". وهذا يعني أنهم أكثر الناس قولا بالرأي وردا للآثار ويرفضون رفضا قاطعا انحصار الإمامة في قريش وترى أن الخلافة تتم بانتخاب الأمة كافة ، وإن كان عبدا أو حرا أو نبطيا أو قرشيا ، وهم يطلبون من الإمام اتباعا دقيقا لأوامر الشرع ومتى خالف ذلك تستطيع الأمة خلعه ، وهم متفقون على وجوب الخروج على الإمام الجائر . ويرى بعضهم جواز إمامة المرأة فيما يرى البعض الآخر مثل : " النجدات " عدم وجوب الإمامة لا في الشرع ولا في العقل . وهذا يفسر نزعة الخوارج البدوية في كره السلطان المركزي ودعواهم بالتناصف والعدالة الذاتية من خلال الشريعة .

رابعا : فرق المعتزلة

يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدل والإيمان ، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك .

وآراء المعتزلة عموما تتفق مع الخوارج في صيغة انتخاب الإمام وعمومية ذلك الحق بين المسلمين من العرب وغيرهم من جهة ، ويتفقون مع الشيعة الإمامية في وجوب الإمامة أو الخلافة في كل عصر ، ومع الشيعة الزيدية بوجوب الخروج على أئمة الجور وإزالة الظلم وإقامة الحق . ويقول المعتزلة بحرية إرادة الإنسان ، وأن الأمة تختار إمامها . وقالوا بصحة الخلافة الراشدية ، وأن خلافة بني أمية غير صحيحة ، فوقفوا منها موقف الكراهية ، ولم يثوروا عليها كما ثار الخوارج .

خامسا : فرق المرجئة

المرجئة محايدون ، ونظرهم واحدة نحو جميع الذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة ، وقد نشأت هـــذه الفرقة في أوضاع سياسية سيئة كانت تسود الدولة الإسلامية في صدر الإسلام وبداية الحكـــم الأمـــوي الذي كان له أثر كبير في نشأة الخوارج والشيعة اللذين كانا في أول أمرهما حـــزبين سياسيين تصارعا من أجل السلطة (الخلافة والإمامة) ، وهذه الأحداث هي نفسها الـــتي أدت إلى ظهور حزب سياسي نستطيع أن نطلق عليه وهو (المرجئة) . والفرق بين هذه الفرقة وفرقتي الشيعة والخوارج أنهما سعيا بكل الوسائل والطرق من أجل الوصول إلى السلطة واســـتغلوا الديـــن في ذلك ، في حين أن المرجئة كانوا محايدين سياسيا رغم استغلال بني أمية لآرائهـــم في فكرة الإرجاء سياسيا وإرجائهم الحكم لله . وكان موقفهم سلبيا تجاه ما يجري من أحداث .

وبنظرة فاحصة لكل الفرق والخصومات المذهبية والتي استمرت قرونا من الزمن نجد أنها أضـــرت بالمســـلمين ، وأدخلت على العقيدة الإسلامية بعض الآراء والمعتقدات من الديانات القديمـــة كاليهوديـــة والنصرانية وغيرها ، مما دفعهم إلى تعقيد الشريعة ولفها بالغموض رغم بســـاطتها والـــتي جاء بها الرسول ﷺ . وكانت هذه الفرقة ألعوبة في يد رجال السياسة من الخـــلفاء والأمراء ، بل هي صنيعتهم ويؤازرونهم لدعم مواقفهم السياسية ولضرب كل فرقة بأخرى حتى ينشغل الناس بأمور ثانوية تبعدهم عن أمور السياسة وما فيها من ظلم وطغيان .

فـــالله واحد والقرآن واحد والرسول ﷺ جاء للمسلمين كافة ولا خلاف على هذا بين أحـــد مـــن أصـــحاب الفرق شيعة أو خوارج أو معتزلة ، والقضية الوحيدة التي كانت سببا في الخـــلاف كله هي قضية الإمامة والخلافة ، وهي قضية سياسية بحتة تؤكد مدى ارتباط هذه الفرق بهذه النزعة .

ثانيا : الوزارة

الوزير لغة مشتقة من الوزر ، والوزر الثقل أو العبء ، لأن الوزير يتحمل أعباء الحكم وأثقالـــه ، أو مـــن الوزر ، وهو المعتصم ، وفي القرآن الكريم ورد بمعنى الملجأ . قال تعالى : ﴿ كَـــلاَّ لاَ وَزَرَ ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾[1] . لأن الناس يلجأون إلى الوزير في أمورهم

(1) سورة القيامة : الآيتان 11 – 12 .

المعاشـية ، لكن المستشرقين يعيدون لفظة الوزارة إلى الفارسية القديمة (البهلوية) ، ومعناها القاضي أو الحكم ولا شك أن بين القضاء والوزارة فرقا واضحا .

ثم أن اللفظة وردت في القرآن الكريم في قول موسى عليه السلام مخاطبا ربه : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرا مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي اشدد به أزري ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [1].

ويقول ابن خلدون في معنى الوزارة : " أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة ، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة ، أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مفاعلة أوزاره وأثقاله ، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة ".

المراحل التاريخية التي مرت بها الوزارة :

كـان الـنبي ﷺ يشاور أصحابه ويسألهم رأيهم في المشكلات العامة والخاصة ولا سيما أبي بكـر ، لذلـك سمى كثير من الناس أبا بكر " وزير النبي " ، وقد ورد في حديث أخرجه الـترمذي " وزيـراي مـن أهل الأرض أبو بكر وعمر " . ونحن لا نتفق مع هذا الرأي لأن الرسـول الكـريم ﷺ لم يخص أحد بأي امتياز لا في الخلافة ولا في الوزارة ، ولم يكن العرب يعـرفون هذا اللقب أو يتلقبون به ، وذلك لبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك ، لكن هذا لا يعني أن العرب كانوا يجهلون وجوده عند الساسانيين .

لكـن أبهـة الملك كانت بعيدة عن هؤلاء الخلفاء ووزرائهم ، وإنما كان للخليفة مجلس شيوخ يستعين به على تنظيم أمور الدولة ، وكان هذا المجلس يتألف من رؤساء القبائل وأعيان المدن وبعض كبار الصحابة ولا سيما الذين أكثروا من مرافقة النبي ﷺ في حله وترحاله .

أمـا في عهد بني أمية فقد أصبح الحكم ضربا من الملكية الوراثية ، فلم يكن بد من أن يستشـير الخـلفاء بعـض ذوي الـرأي ليكونوا لهم وزراء يتحملون بعض الأعباء ، لكنهم لم يصـطلحوا على تسمية أي واحد من هؤلاء وزيرا بشكل رسمي . وفي أواخر عهد الأمويين اتجهت الإدارة نحو التمركز بعد أن كان فيها ما يشبه اللامركزية ، فقد بدأ الخليفة يتخذ لنفسه كتابا ، حتى ليمكننا عد الوزير خلفا للكاتب الأموي في أواخر عصر بني أمية .

(1) سورة طه : الآية 29 .

الوزارة في العصر العباسي :

بعد انتصار الجيوش العباسية على الجيوش الأموية ، وقبيل مبايعة الخليفة العباسي الأول استحدث مباشرة لقب الوزير إذ إنهم سموا أبا سلمة الخلال وزير آل محمد ، فلما بويع أبو العباس السفاح بالخلافة أقر الخلال في منصبه ، واستمر هذا النظام في تطوره حتى تبلور واستقر وثبتت قواعده وأصوله وسمي الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا .

بقي مركز الوزير محفوفا بالمخاطر ، ذلك لأن أبا سلمة الخلال قد اغتاله الخليفة واستوزر بعده أبا الجهم ثم خالد بن برمك جد البرامكة ، وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء . وكثيرا ما وقع التصادم بين سلطة الخليفة من ناحية وسلطة الوزير من ناحية أخرى ، وذلك لعدم وضوح صلاحيات الوزير ، في حين كانت صلاحيات الخليفة واضحة ولا سيما في البداية.

وكان الوزراء معرضين للقتل إذا ما تغير عليهم الخليفة أو تلاعبوا بأموال الدولة أو حاكوا المؤامرات ضد الخليفة ، فكان يقتل لأي سبب من الأسباب ولو كان تافها على الرغم من هيبة الوزير ومظهره أمام العامة . وفي عهد المهدي أعطيت للوزير الرئاسة حتى على الدواوين والتراتيب الإدارية ، بل حتى على الجيش إلى حد ما ، فاتسعت بذلك سلطة الوزراء . وكان تعيينهم يتم غالبا تبعا لكفاءاتهم الإدارية والكتابية ، فكانت المقدرة الشخصية تلعب دورا كبيرا ، وربما كان لدسائس الحاشية أثر في تعيين بعض الوزراء وعزلهم .

وفي عهد هارون الرشيد بلغت الوزارة حدا كبيرا من القوة ، وبلغ الوزير حدا كبيرا من النفوذ حين استوزر الرشيد يحيى بن برمك وفوضه جميع أنواع السلطات قائلا له : " قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من أردت ، فإني غير ناظر معك في شيء ".

ورغم هذه الثقة الكبيرة التي منحها الرشيد للبرامكة في تحمل مسئولية الوزارة ، إلا أن هناك رأي آخر مخالف يقول بأن الرشيد اتخذ البرامكة للوزارة ليس له إلا مظهرا وشكلا لا يحمل مضمونا ، والذي دام لفترة قصيرة انتهت بمأساتهم المعروفة .

وفي عصر المأمون أطلقت يد الوزير الفضل بن سهل في الأمور السياسية ، فقد فوضه المأمون في قيادة الحرب ورئاسة الشؤون الإدارية وسماه اسما جديدا لم يكن معروفا من قبل هو

" ذا الرياستين " ، وكان الفضل فارسيا . وقد اعتمد نفوذ الوزير وصلاحياته على قوة شخصية الخليفة الذي يتولى الحكم ، لكن الظاهرة الأكثر حضورا خلال العصر العباسي كانت قد تمثلت في النكبات التي تعرض لها أغلب الوزراء ، فقد تم قتل الوزير أبي أيوب المورياني في خلافة المنصور ، وقتل الوزير الربيع بن يونس في خلافة الهادي ، وتم عزل الوزير أبي عبيد الله معاوية بن يسار والذي كانت نهايته الإقصاء والإبعاد حتى مات في داره ، وسجن الوزير أبا عبد الله يعقوب بن داود . أما النكبة الأهم ، فهي التي أشرنا إليها من قبل وتتعلق بنكبة البرامكة على يد الرشيد .

وكانت دار الوزير حتى عام 320 هـ/ 932 م هي الدار التي كانت قديما لسليمان بن وهب على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة والتي كانت تسمى دار المخرم ، وعلى بابها عدد من الحراس يحملون الوثائق والسجلات مثلما يحرسون الوزراء والوزارات ، وكان في مجلس الوزير غلمان مسلحون يسيرون بين يدي الوجوه من الناس ويخرجون بين يدي الوزير دائما يشهرون سيوفهم والناس يشاهدونهم ، وكان الوزير يجلس في مجلس الخليفة مواليا له بوجهه وهي عادة المرءوس بالنسبة إلى رئيسه .

وللخليفة وحده الحق في تعيين وزيره وكان في العادة يقر وزير الخليفة السابق في منصب الوزارة ، وكان أولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أبناء العمال . وكانت المناصب أحيانا وراثية ، فقد ذكر أن الوزير ابن مقلة خلفه ابنه وهو في الثامنة عشرة ، وكذلك تولى أبو الفتح ابن العميد الوزارة بعد أبيه ، وقد ولي الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين عاما ، وكذلك تقلد أربعة من بني الفرات الوزارة في خمسين سنة ، وكان ابن العميد وزيرا لعماد الدولة رأس أسرة بني بويه ومؤسس مملكتهم ، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة . أما بنو وهب وأصلهم من نصارى العراق فقد توارث عشرة منهم أرقى مناصب الدولة ، وكان أربعة منهم وزراء . وهكذا تحول هذا المنصب إلى منصب وراثي رغم أن خطورة عمل الوزير هو إدارته المالية للبلاد ، فهو الذي يعمل الدخل والخراج ، ويفرض الضرائب أو يسقطها ، ويحصل الأموال من النواحي .

وشاعت للوزراء ألقاب في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس ، فقد كان بعضهم يدعى " شرف الملك " ، وبعضهم " سعد الدولة " .. وهكذا . وانقسمت الوزارة في عهد العباسيين إلى قسمين هما :

1 – وزارة التنفيذ :

وهـي تنحصر في تنفيذ أوامر الخليفة ولا يتصرف فيها الوزير تصرفا شخصيا مستقلا ، وإنما الوزير في هذه الحال همزة الوصل الوحيدة بين الإمام والشعب ، ومن مواصفاته المطلوبة هي أن يتصف بالأمانة وصدق اللهجة وقلة الطمع والبعد عن عداوة الناس ، والفطنة والذكاء والحـنكة والـتجربة ولا يكـون من أهل الأهواء ، فإن الهوى خادع للألباب وصارف عن الصواب .

2 – وزارة التفويض :

تقوم على تصرف الوزير المطلق في شؤون الدولة بعد أن يكون الخليفة بنفسه فوض إليه ذلك ، ومن هنا جاءت التسمية ولا يبقى للخليفة في هذه الحال – بطواعية منه – إلا التصرف كما يشاء في ولاية العهد وعزل من لا يعجبونه ممن يوليهم الوزير بعض الأعمال .

ويستوجب الماوردي أن يكون وزير التفويض جامعا للخصال المطلوبة في الخليفة ، ينقص عنه في واحدة وهي النسب ، ويزيد في واحدة وهي المعرفة بأمري الحرب والخراج ، ليباشرهما بنفسه أو يختار من يباشرونهما تحت إشرافه .

ولكن مركز الوزارة انحط حينما تعرضت الدولة العباسية للانحطاط ولا سيما بعد مقتل المتوكل سنة 247 هـ ، حيث تعطل هذا المنصب لمدة تسع سنوات حتى عادت من جديد في عهـد الخليفة المعتمد سنة 256 هـ . وقد زاد من انحطاط الوزارة وتدهورها بعد أن سيطر الـبويهيون على العراق سنة 334 هـ – 946 م ، حيث استبدوا في أمور الخلافة وسيطروا على أمور الدولة كلها .

ثالثا : الكتابة

ظهرت وظيفة الكاتب في الدولة العربية الإسلامية منذ أيام الرسول ﷺ في المدينة ، فقد ذكـر مـن جملة كتّابه طائفة من الصحابة ، أمثال : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت .. كتبوا له سـور القـرآن الكريم والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهـم إلى الإسلام .

واستمرت وظيفة الكتابة في العهد الراشـدي ، فعندما تولى أبو بكر الخلافة كان عثمان ابن عفان كاتبا له ، واتخذ عمر بن الخطاب أثناء خـلافته زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم .

أما عثمان بن عفان فقد اعتمد على مروان بن الحكم ، وقد أوصى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كاتبه بقوله : " ابعد دواتك ، وأطل شباه (سن القلم) قلمك ، وفرّج بين السطور، وقرمط (دقة الكتابة وتقريب الحروف) بين الحروف" .

وفي العهـــد الأموي ارتقت وظيفة الكتابة فكان لمعاوية طائفة من الكتّاب : كاتب على الرســائل ، وكاتب لديوان الخراج ، وكاتب على ديوان الجند ، وعلى ديوان الخاتم ، ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء كاتب القضاء ، وآخر للشُرط ، وثالث للمظالم .

لقد كان لهؤلاء الكتّاب مكانة خاصة للذين أتقنوا صنعتهم في تحرير الرسائل الرسمية في السياســة الداخلية والخارجية ، وأعلنوا للناس مراسيم وقرارات وبلاغات المؤسسات الإدارية على اختلافها . وقد ذاع صيت زياد بن أبيه وعبد الحميد الكاتب في العصر الأموي .

وفي العصر العباسي أصبح الكاتب من أهم موظفي الدولة ، ويمثل العصر العباسي القمة في ازدهار فن الكتابة ووظيفتها وضبط أصولها . ولقد حرص الخلفاء ولا سيما العباسيين على أن يتولى كتابة الرسائل من ينتمون إلى نسب رفيع ، ومن أتاحت لهم ظروفهم أن يتمتعوا بسعة العلم وعمق الثقافة ، وأن يتميز بقوة الشخصية والدهاء والذكاء ، لأنه هو الذي يحرر الرسائل الـــرسمية والسياســية والداخلية والخارجية ، وهو الذي ينشر بين الناس المراسيم والقرارات والبلاغات والتراتيب الإدارية ، وكان الكتّاب حقا – كما قال الجهشياري – ترجمة الملوك في العصـــر العباسي ، مثلما كانوا من قبل تراجمة للملوك في عصر الأكاسرة الفرس . واشتهر في العصـــر العباسي يحيى بن خالد بن برمك والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المـــأمون ، ومحمـــد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق .

ومـــن جهـــة أخرى فقد خصصت الدولة رواتب شهرية للكتّاب قدر في زمن المنصور بثلاثمائة درهم ، وبقيت كذلك حتى خلافة المأمون الذي رفعها إلى ثلاثة آلاف درهم . وكان منصب الكتابة يؤهل صاحبه إلى الوزارة أو إلى المناصب الهامة الأخرى .

ويـــبدو أن الكـــتّاب كانوا يجمعون أموالا ضخمة عن طريق الاختلاس والرشاوي نظرا لمكانـــتهم عـــند الخلفاء وتوليهم رئاسة بعض الدواوين الخاصة بالمالية ولا سيما ديوان الخراج مـــنها ، فقد ذكر أنه في سنة 229هـــ حبس الواثق الكتّاب وألزمهم أموالا عظيمة بسبب سرقتهم للأموال العامة وأخذهم الرشاوى .

رابعا : الحجابة

الحجابة ومفردها حاجب ، ويقصد به الشخص الواقف بباب الخليفة ليحجب الناس عنه ويمنع الدخول إليه إلا بإذن خاص ، فهو إذن همزة وصل بين الخليفة والناس يقدم السفراء ويأذن لمن يشاء الدخول على الخليفة أو يمنعه ، تفاديا لازدحام الناس في حضرة الخليفة ، والحاجب منصب كبير يشبه رئيس التشريفات في عصرنا الحالي .

كان الرسول ﷺ يجلس في المسجد النبوي فهو مقر الحكومة يستقبل الناس والوفود ، وفيه كان مسكنه في حجرات خاصة ، ولم يكن النبي ﷺ يحتجب على الناس عندما يكون في المسجد . وكذلك لم يكن للخلفاء الراشدين حجّاب ولم يحتاجوا إلى حاجب قط ، لأنهم ببساطتهم وحسن عشرتهم للرعية لم يكونوا يمنعون أحدا من الدخول عليهم ليلا أو نهارا . لقد كانت أبوابهم مفتوحة لذوي الحاجة ويحلون مشاكل الناس مباشرة مقتدين بذلك بسيرة الرسول ﷺ .

و قد تطورت وظيفة الحاجب في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي أفرد لها مكانة واسعة ، حيث اتخذ لنفسه حجابا يقفون على بابه يمنعون الناس من الدخول إلا بإذن وسؤال بعد حادثة الاغتيال التي تعرض لها معاوية وعلي بن أبي طالب وعمرو بن العاص من قبل الخوارج ، وذلك خوفا على نفسه وتلافيا لازدحام الناس على بابه .

وكانت من مهمات الحاجب إدخال الناس على الخليفة مراعيا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم وعدم إدخالهم إلا بإذن خاص ، لكن الخلفاء الأمويين استثنوا من تلك المراسيم ثلاثة أشخاص ، فقد أباحوا لهم الدخول في أي وقت شاءوا ، وهم : المؤذن وصاحب البريد وصاحب الطعام ، فقد روي عن عبد الملك بن مروان أنه قال لحاجبه : " قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فإنه داعي الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد ". وقد تشدد الحجاب الأمويون أواخر الدولة الأموية في منع الناس من المثول أمام الخليفة .

واقتدى العباسيون بالأمويين في بداية دولتهم فاتخذوا حجابا ونصحوهم بعدم التشدد في مقابلة الراغبين بمقابلتهم من الرعية ، فيروى أن الخليفة الهادي قال لحاجبه الفضل بن الربيع حين ولاه المنصب :" لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة ، ولا تلقي إليّ أمرا إذا كشفته أصبته باطلا ، فإن ذلك يوقع الملك ويضر الرعية " .

وفي العصور العباسية المتأخرة أسرف الحجاب العباسيون في منع الناس من المقابلات الرسمية . ولعل هذا كان السبب الرئيسي في نشأة الحاجب الثاني ، فكان بين الخليفة والناس دارين حاجزين : أحدهما دار الخاصة ، والأخرى دار العامة يقابل بهما الخليفة الناس كل طائفة حسب حالتها وظروفها ، ولما اشتد ضعف الدولة وضعوا حاجبا ثالثا يحجب الخليفة عن الناس حجبا تاما .

استغل بعض الحجاب العباسيون مكانتهم العالية ومترلهم لدى الخلفاء وقربهم منهم ، فأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة ، وأخذوا يفصلون في العديد من القضايا التي تمس شؤون الإدارة حتى استطاع الأقوياء من الحجاب أن يضعفوا قوة الوزراء عند الخلفاء كما فعل الربيع ابن يوسف حاجب المنصور عندما أخذ البيعة للمهدي ، وكذلك فعل ابنه الفضل بن الربيع حاجب الرشيد عندما سعى لدى الخليفة للإيقاع بالبرامكة وما لعب من دور في الصراع بين الأمين والمأمون .

سعى الحجّاب في عصور الدولة العباسية إلى الإثراء السريع مستغلين مناصبهم ، فجمعوا الأموال والهدايا التي كان يقدمها ذوي الحاجات لقاء توسطهم لهم عند الخلفاء ، فيروى أن الربيع بن يوسف حاجب المنصور أخذ من يعقوب بن داود رشوة مقدارها مائة ألف دينار ليتوسط له لدى الخليفة لنيل الوزارة .

لم يكن مفهوم وواجب الحجابة واحدا في كل أقاليم العالم الإسلامي فكان الحاجب في الأندلس يتمتع بسلطات رئيس الحكومة ، وهو بذلك أقرب الوزراء إلى الخليفة في البلاط الأندلسي فقد تعززت مكانته بحكم سيطرته على مقاليد السياسة والجيش في الدولة ، وتلقب ملوك الطوائف بلقب الحاجب كما فعل المنصور بن أبي عامر وأبناؤه .

وعرفت الحجابة في دولة الفاطميين ، على حين لم تعرفه دولة بني مرين بالمغرب الأقصى ، وإنما تولاها عندهم (المقدم) ، في حين اختص الحاجب في دولة بني (عبد الواد) بعمله في دار السلطان ، وارتفع شأن الحاجب في دولة الحفصيين بتونس فجمع سلطة السيف والحرب وتولى الحجابة في دولة المماليك من أهل القوة والشوكة ، وقد وصل عددهم أواخر الدولة إلى عشرين حاجبا ينظمون أعمالهم في مقابلة السلطان والحكم بين الأمراء والجند وغيرها من المهام .



مصادر ومراجع الفصل الأول

1 – القرآن الكريم .

2 – البلاذري ، أحمد بن يحيى ، أنساب الأشراف ، تحقيق د. محمد حميد الله ، القاهرة ، 1959 .

3 – البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع وأخيه عمر ، الجزء الأول ، بيروت ، 1957 .

4 – ابن الأثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الجزءان الثاني والثالث ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 .

5 – ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 .

6 – ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، الجزء الثالث ، دار صادر ، بيروت ، 1975 .

7 – ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية في التاريخ ، الجزء الثالث ، بيروت ، 1966 .

8 – ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، أعاده يوسف الخياط ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 .

9 – ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، الطبعة الرابعة ، الجزءان الأول والثاني ، بيروت ، 1971 .

10 – الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، 1928 .

11 – السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، 1966 .

12 – د. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .

13 – د. شـوقي أبـو خـليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1993 .

14 – د. صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

15 – الطـبري ، أبـو جعفـر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الأجزاء الثالث والرابع والخامس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .

16 – د. عـبد الحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ، 1995 .

17 – عواطـف العـربي شنقارو ، فتنة السلطة .. الصراع ودوره في نشأة بعض غلاة الفرق الإسلامية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، 2000 .

18 – القلقشـندي ، أبو العباس أحمـد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشـا القاهرة ،د.ت.

19 – المـاوردي ، أبو الحسن محمد بن حبيب المصري ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1968 .

20 – المسـعودي ، مـروج الذهـب ومعـادن الجوهـر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982 .

21 – د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت، 1975 .



الفصل الثاني

النظم الإدارية في الدولة العربية الإسلامية

أولا : النظم الإدارية في عهد الرسول ﷺ.

حكم الولايات في عهد الرسول ﷺ .

ثانيا : النظم الإدارية في عهد الخلفاء الراشدين .

حكم الولايات في عهد الخلفاء الراشدين .

ثالثا : النظم الإدارية في العصر الأموي .

حكم الولايات في العصر الأموي .

رابعا : النظم الإدارية في العصر العباسي .

الدواوين في العصرين الأموي والعباسي .

مفهوم الديوان .

أهم الدواوين في العصر الأموي .

الدواوين المستحدثة في العصر العباسي .

خامسا : البريد في العصور الإسلامية .

أولا : النظم الإدارية في عهد الرسول ﷺ.

حكم الولايات في عهد الرسول ﷺ .

إن المبادئ الإدارية التي جاء بها الرسول ﷺهي إيجاد مجتمع فاضل منظم في حكومته وشؤون إدارته ، وقد حاول النبي إيجاد ذلك أيام كان في مكة ، ولكن معارضة قريش له وسوء معاملتهم إياه وأصحابه اضطراه إلى أن يأمر أصحابه بالهجرة ، ثم هاجر هو بنفسه إلى المدينة فوجد الجو صالحا لإقامة حكومة ذات أنظمة وقوانين وتعاليم ترعى الدين الجديد وتحميه . وكان الرسول ﷺ في المدينة المنورة يمثل السلطتين المدنية والروحية معا ، وبعد فتح مكة وانتشار الإسلام خارج المدينة وامتداد حدود الدولة الجديدة إلى أطراف أخرى وتشكل الأقاليم والمقاطعات والولايات الإسلامية اقتضت الحاجة الإدارية إلى الاستعانة بالولاة والأمراء والعمال .

نظم الرسول ﷺشؤون حكومته الإدارية والديوانية تنظيما كاملا بعد أن استقر أمره بالمدينة وقد اتخذ من المسجد مقرا لحكومته ، ففيه كان يجلس الرسول ﷺ للناس ويستقبل الوفود ويحكم بينهم ويفقههم في أمور دينهم ، وفيه كان مسكنه في حجرات خاصة وكان له حاجب وآذن وبواب .

ابتدأ الرسول ﷺ التنظيم الإداري من خلال تعيين العمال في الولايات والمدن والقبائل المختلفة لتعليم الناس أحكام القرآن والتفقه في الدين وإقامة الصلاة وجباية أموال الزكاة لإنفاقها على مستحقيها والقضاء بين الناس . فعيّن عتاب بن أسيد ، واليا على مكة بعد فتحها سنة ثمان للهجرة وهو دون العشرين من العمر وفرض له راتبا شهريا قدره ثلاثون درهما ، فكان ذلك أول راتب خصص للعمال والولاة ، كما ولّى الرسول ﷺ الحارث بن نوفل الهاشمي بعض أعمال مكة ، وعين أبا بكر الصديق بعد غزوة حنين .

وكان للنبي أمراء ولاهم المدينة عند خروجه منها ، ومنهم السائب بن عثمان الذي أمره عليها عندما خرج إلى غزوة بواط في السنة الثانية للهجرة ، كما أناب سعد بن عبادة عندما غزا ودّان ، وأناب الإمام علي بن أبي طالب عندما غزا تبوك .

ومن أمراء اليمن باذان الفارسي الذي كان ملك اليمن في الجاهلية وقد أسلم حينما كتب إليه الرسول فأبقاه على عمله حتى وفاته بعد حجة الوداع ، ثم بعث النبي أمراء مثل

أبي موسى الأشعري إلى زبيد وعدن ، وولى خالد بن الوليد صنعاء ، والمغافر بن أبي أمية على كندة ، وزياد بن لبيد على حضر موت ، وأبا سفيان على نجران .

وولى الرسـول ﷺ على المدن عدة ولاة ، فعين سعد بن عبدالله بن ربيعة على الطائف ، واسـتعمل عـلى البحرين العلاء بن الحضرمي ، وعمر بن حزم الأنصاري على نجران ، وولى المـنذر بن ساوي وادي القرى ، وسواد بن غزية على خيبر . ومن أمراء القبائل الذين عينهم الرسـول ﷺ عمرو بن سبيع التغلبي الذي عينه على بني تغلب وغطفان ، وعلى قبيلة جديلة الحارث بن بلال المازني ، وعلى تميم سعيد بن خفاف التميمي ، وعيّن امرء القيس بن الأصبغ الكلبي على قبيلة كلب ، وعدي بن حاتم الطائي على طيئ .

اعـتمد الرسـول ﷺ في اختيار الولاة والعمال من صحابته ممن عرف بالتقوى والعدل والسـيرة الحسـنة بالرعية والعلم والصلاح والإرشاد ، وكان عليه السلام يوصي كل أمير بإحسـان عمله وإتقانه كما كان يعهد إليهم بكتب يكتبها إليهم بذلك في الغالب . ومن جهة أخرى كان الرسول ﷺ يعزز المعاهدات بينه وبين أهل الذمة من خلال استشارهم فيمن يولي عـليهم ، فقـد خـاطب يهـود أهل مقنا قرب أيلة قائلا : " وإن ليس عليكم أمير إلا من أنفسـكم " ، وفي ذلك إشارة إلى روح التسامح والعدل التي اتسم بها النظام الإداري في عهد الرسـول فهو من جانب يختار ولاته من صحابته ويوصيهم بالرعية ، ومن جانب آخر يشرك الرعية في اختيار الولاة .

ثانيا : النظم الإدارية في عهد الخلفاء الراشدين

حكم الولايات في عهد الخلفاء الراشدين .

نظم الرسول ﷺ شؤون حكومته الإدارية قبل وفاته ، ولا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سار على غرار النهج النبوي في طراز حكومته وأسلوب إدارته ، لأنه كان شديد الحرص على أن يقلد النبي ﷺ في إرشاداته وإصلاحاته وإدارته ، فقد تمم كل أمر شرع فيه الرسول ﷺ .

أقر الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عمال النبي ﷺ على أعمالهم وقسمت الدولة في عهده إلى عـدة ولايات هي : البحرين ، اليمامة ، عمان ، خولان ، حضر موت ، صنعاء ، زبيد ، رمع ، جرش ، نجران ، الطائف ، ودومة الجندل . أما العراق والشام وشمال إفريقيا فلم يكن مصـيرها محسـوما حتى وفاته ، وقد أبقى أبو بكر المسجد النبوي دارا للحكومة الإسلامية ،

وكان يقوم بنفسه بأمارة الحج . وكان للصديق أمراء ولاهم المدن والأمصار المفتوحة وأوصاهم بوصاياه المفيدة الحكيمة .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ظهرت الأسس العامة لهيكل الإدارة في الدولة العربية الإسلامية التي اتسعت رقعتها بالفتوحات اتساعا عظيما وباتجاهات مختلفة ، فكانت تشمل جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر والعراق وبلاد فارس ، وكان عمر الرأس المدبر والعقل المنظم لهذه الدولة العظيمة . وقد رأى الخليفة الثاني أن يقسم هذه الدولة إلى عدة ولايات ، فبالإضافة إلى التقسيمات التي قام بها الخليفة الأول فقد قسم عمر ﷺ بلاد فارس إلى ثلاث ولايات : ولاية الأهواز والبحرين ، وولاية سجستان ومكران وكرمان ، وولاية خراسان وطبرستان ، وقسم العراق إلى ولايتين الكوفة والبصرة . أما بلاد الشام فقد قسمت إلى ثلاث ولايات هي : ولاية حمص وولاية دمشق وولاية فلسطين ، في حين قسمت مصر إلى ثلاثة أقسام مصر العليا ومصر السفلى وغرب مصر التي تضم ليبيا .

وكانت لعمر ﷺ سياسة واحدة أمر بتطبيقها في كافة ولايات الدولة العربية الإسلامية هدفها إيجاد أمة موحدة الأنظمة والأهداف والمقاصد ، فكان حريصا على أن يمتزج العرب بالأمم المفتوحة مع محافظتهم على تقاليدهم وعاداتهم وأن لا تفسد نفوسهم ، لذا أمر ببناء ثلاث مدن هي البصرة والكوفة والفسطاط .

وكان عمر ﷺ لا يختار عماله إلا من كبار الصحابة وفضلاء العرب وأشرافهم وهي سنة الرسول ﷺ التي اتبعها الخليفة أبا بكر الصديق ، فجعل عمر على كل ولاية واليا يقوم بالأمور الدينية والإدارية معا ، وفي كثير من الأحيان يجعل أمر الخراج والجبايات إلى رجل آخر غير العامل ، وكان عمر كثير التروي في اختيار الأصلح والأقوى من الولاة ولم يكن يطلق السلطة للولاة يتصرفون كما يشاؤون بل كانوا يرجعون إليه في المشاكل الكبرى التي تواجههم ، وكان يوصيهم بأن يعدلوا بين الناس . وفي هذا الصدد قال لبعض عماله : " إني لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم وأبشارهم وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل " .

اهتم عمر بأخذ رأي الرعية والولاة عند تعيينهم ، واهتم بالأعراف الاجتماعية في التعيين ، فلا يستعمل رجلا من أهل الوبر (البادية) على أهل المدر (الحضر) وبالعكس ، وكان يتعرف على سيرة عماله أثناء مواسم الحج أو من خلال مقابلته للوفود ، أو من خلال

المبعوثين الثقات الذين يعهد إليهم الكشف عن حقيقة ما يصله من الأخبار ، فقد أرسل محمد ابـــن مسلمة للتحقيق مع سعد بن أبي وقاص سنة 21 هـــ ، وكان الأخير يقود المسلمين ضد الفـــرس فعاد به إلى الخليفة لمحاسبته ، كما أرسله إلى مصر لمحاسبة عمرو بن العاص للاستفسار عن ثروته المتزايدة ، وانتهى به الأمر إلى مصادرة نصف أمواله .

وكـــان عمـــر يجتمع بوفود الأمصار الإسلامية ويستدعيهم إلى المدينة لسماع رأيهم في واليهم أو أميرهم ، فإن تلمس منهم قناعة به أبقاه ، وإن شكو في سيرته ومعاملته لهم عزله ، وكان لا يتوانى عن محاسبة أي عامل مهما كانت خدماته عندما يخطأ ، وهذا ما حدث مع خالد ابن الوليد فقد عزله عن قيادة جيش الشام أثناء استعداده لحرب الروم بعد أن تيقن.أنه استبد برأيه دون استشارة أصحابه من المقاتلة فعنفه في مقابلته له قائلا : " افتتن بك الناس فخفت أن تفـــتتن بالناس " . كما عزل عتبة بن غزوان وعين بدله العلاء بن الحضرمي وعزل زياد بن أبي ســـفيان لأنه " يحمل على العامة فضل عقله "، وعندما اشتكى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وأبا موسى الأشعري عزلهم عن الولاية ، وفي الوقت ذاته كان يكافأ من يرضى عنه الناس كما فعل مع أبي عبيدة بن الجراح .

لقد أكد الخليفة عمر ﷺ على الاختصاص بالعمل الإداري فقد وجه سعد بن أبي وقاص في معـــركة القادســـية بمشـــورة طلحة الأسدي وعمرو بن معد يكرب في أمور الحرب دون ســـواهما ، أي أنـــه كان يوزع الأعمال بين الكفاءة وأرباب التخصص . وإذا استعمل عاملا أحصى ماله ، ومنع ولاته وعماله من الاشتغال بالتجارة استبعادا لاستغلال مناصبهم ، فكانت المصـــادرة والمقاسمة عقوبتان تأديبيتان إذا اقتنع الخليفة بأن لهما ما يبررهما ، فقد صادر أموال عتبة بن أبي سفيان كما قاسم أموال عمرو بن العاص والى مصر – كما ذكرنا – وصادر أموال خـــالد بـــن الوليد عامله على الشام ، وكان يأمر عماله إذا قدموا عليه أن يدخلوا نهارا كي لا يحجبوا شيئا من أموالهم .

من جانب آخر كان عمر يستشير أصحابه في تعيين بعض عماله حتى قال يوما لأصحابه : " أشيروا عليّ ودلوني على رجل استعمله فإني أريد رجلا إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان فيهم وهو أميرهم كان كأنه واحدا منهم " ، فقالوا : نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي فأحضره وولاه ووفق في عمله .

أقر عثمان بن عفان عمال عمر على الأمصار فقد كتب إلى أمراء الأجناد : " لقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا ، بل على ملأ منا ولا يبلغني عن أحـــد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم "، فأقر نافع بن الحارث الخزاعي على مكة وسفيان بن عبد الله الثقفي على الطائف ، ويعلي بن منية على صـــنعاء وأبا موسى الأشعري على البصرة وعمرو ابن العاص على مصر وعمر بن سعد على حمص ومعاوية بن أبي سفيان على دمشق وعثمان بن أبي العاص على البحرين ، وعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها لسعد بن أبي وقاص ، ثم عزله لخلاف وقع بينه وبين عبد الله بن مسعود بسبب مال اقترضه سعد من بيت المال ولم يرده فلما علم عثمان بن عفان بذلك غضب منه وعزله .

واعتمد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ في أول خلافته على مشورة من اعتمد عليهم عمر لكنه ضعف في النصف الثاني من عهده لشيخوخته وبسبب أطماع بعض الولاة ، ولما حاول أن يفصل الشـــؤون المالية عن الإدارة الحـــكومية في الولايات فشل في بعضها حيث كان الولاة لا يسمحون بالتدخـــل في شـــؤونهم ، فأعلن والي مصـــر معارضته لهذه السياسة قائلا : " إنه لا يمسك زمام البقرة ليقوم غيره بحلبها "، كما استأثر أقرباء الخليفة من بني أمية ، وفي مقدمتهم مـــروان بن الحكم بالسلطة فقاد ذلك إلى المشاكل والفتن التي انتهت باستشهاد الخليفة عثمان ابن عفان ﷺ .

لم تشـــغل الحروب (حرب الجمل وصفين) والفتن العنيفة التي ظلت طوال عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كل وقته ، بل استطاع أن يقوم بكثير من الأعمال التنظـــيمية للدولة العربية الإسلامية . ففي سنة 36هـــ سمى علي عماله على الأمصار فبعث عثمان بن حنيف إلى البصرة ، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري إلى مصر ، وسهل بن حنيف إلى الشام ، ومخنف بن سليم إلى أصفهان وهمذان ، وعزل ولاة الخليفة عثمان وذلك لاستغلالهم مناصبهم وتسلطهم ومنهم معاوية بن أبي سفيان .

والـــتزمت الإدارة في عهـــد علي بالمنهج الذي رسمه الخليفة لولاته فقد أوصاهم بالرفق في الرعية والعفو عنهم ، وطلب منهم أن يتحلوا بالتواضع والمساواة بين الناس وكان يرشدهم ويصـــلحهم فإن رشدوا وصلحوا قربهم وأحبهم وأحسن إليهم وإلا حمل عليهم بعنف وقسوة حتى يعيدهم إلى الطريق الصحيح ، وجاء في العهد الذي كتبه لمالك الأشتر النخعي حين ولاه

مصــــر : " تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في إصـــلاحه وصلاحهم صلاحا لمن ســـواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم " .

وكان علي (كرم الله وجهه) يعنى بمراقبة أموال الولاة ويرسل العيون والأرصاد ليقف على حقيقة عماله وطريقة معاملاتهم وسيرهم بالناس ، فكانت شدته على زياد بن أبيه وقسوته على مصقلة بن هبيرة سببا في هروب الأخير إلى معاوية عندما أحس بخطر حساب الخليفة له . وخلاصة الأمر أن إدارة الإمام علي على قصرها تميزت بإصلاح أحوال المسلمين والمحافظة على رعايتهم واختبار الأفضل من ولاته وعماله .

ثالثا : النظم الإدارية في العصر الأموي .

حكم الولايات في العصر الأموي .

اتســـعت الدولـــة الإسلامية في عهد بني أمية إلى أقصى حدودها ، فرأى معاوية بن أبي ســـفيان التنظيمات الإدارية في بلاد الشام ومصر والعراق من روميه وقبطية وفارسية فاقتبس مـــنها ما يتلاءم مع روح الإسلام ، كما ألغى الكثير من المظاهر التقليدية للإدارة وأنشأ إدارة جديدة ، وأقام جهازا إداريا حكوميا منظما ثم طور خلفاؤه تلك الإدارة .

كانت الدولة الأموية مقسمة إلى ولايات كبرى تتبعها أقاليم إدارية صغيرة هي :-

1 – ولاية الحجاز : وتضم مكة والطائف وأواسط الجزيرة العربية وحاضرتها المدينة التي يقيم فيها الوالي .

2 – ولاية اليمن : وحاضرتها صنعاء .

3 – ولاية العراق : التي تضم الكوفة والبصرة وخراسان وماوراء النهر ، ويضاف إليها أحيانـــا اليمامة والبحرين . ويعد العراق أكبر وأهم ولايات الدولة لأنه يحمي الجناح الشرقي لـــلخلافة ، لـــذا كـــان الخلفاء يختارون له أشهر وأقوى الولاة مثل : زياد بن أبيه والحجاج ابـــن يوســـف الثقفي ، وكان والي العراق يعين أمراء الأقاليم التابعين له ، ويتخذ الولاة من الكوفة وأحيانا البصرة مقرا لهم في حين اتخذ الحجاج من مدينة واسط مقرا له .

4 – ولاية مصر : وكانت إقليما يديرها والى ، باستثناء عهد هشام بن عبد الملك الذي أضاف إليها إدارة إفريقيا ، وكانت حاضرتها الفسطاط .

5 – ولايــة إفــريقيا الشــمالية وتشمل ليبيا حتى سواحل المحيط الأطلسي وحاضرتها القــيروان ، وتضم أحيانا الأندلس وجزر صقلية وسردينيا والبليار ، وكان والي القيروان يعين من قبله حكاما محليين على الأندلس والجزر .

6 – الجزيرة الفراتية وأرمينيا : وتشمل أذربيجان وأرمينيا وحاضرتها الموصل .

7 – الشام : وتدار مباشرة من قبل الخليفة في دمشق وتضم فلسطين والأردن وحمص .

استطاع معاوية أن ينتقي ذوي الخبرة والكفايات الجليلة لمعاونته في إدارة مملكته الواسعة ، وتوطيد أركان حكمه ، ففي المغرب اعتمد على عمرو بن العاص ، وفي المشرق المغيرة بن شعبة وزيــاد بن أبيه في البصرة ، وعرف عنه أنه كان يتتبع أخبار ولاته وعماله . ومن بدع معاوية الإدارية أنه أعطى الولاية ضمانا لواليه على مصر عمرو بن العاص حيث جعل له خراج مصر ، وعــرف عــن معاوية كياسته وسياسته ، فقد روي عنه أنه قال :" لا أضع سيفي حين يكفيني ســوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها " .

ويعد عبد الملك بن مروان المنظم الحقيقي لشؤون الدولة الأموية الإدارية والمالية ، وبرز في العهــد الأمــوي الثاني عمال ذو كفايات جبارة ، ولا غرو فإن اتساع رقعة الدولة وعظم مسؤولية الخليفة اضطرتاه أن يتنازل عن سلطاته الكبرى إلى عمال يثق بهم ويختارهم من أولي العقل الواسع والإدارة الجيدة والإخلاص للدولة ، ولعل أبرزهم : الحجاج بن يوسف الثقفي ، وموســى بن نصير ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وقتيبة بن مسلم الباهلي . وكان العامل ممثلا للخليفة في أمور الدنيا والدين يقوم بما يقوم به الخليفة في العامة فيخطب في الناس ويؤمهم في الصــلاة ويــتولى إدارة البلاد ، ويبعث الجند للغزو والفتح ويولي القيادات والإمارة من يراه كفءا لها ، وكانت رواتب ومخصصات الجند ورجال الإدارة تدفع من بيت مال تلك الولاية ، ثم يرسل ما يفيض منها إلى بيت المال في العاصمة .

يمكن استخلاص خصائص الإدارة الأموية بما يلي :

1 – كان الخلفاء الأمويون يأخذون رأي علية القوم والموثوقين عندهم في اختيار الولاة على الأقاليم ، فقد عزل معاوية والي العراق عبيد الله بن زياد عندما اشتكاه الأحنف بن قيس .

2 – زيادة مظاهر الأبهة والفخامة في موكب الأمير أو الوالي ، وكان معاوية أول من بدأ بها وحذا ولاته حذوه .

3 – كـــان اخـــتيار الولاة يخضع في كثير من الأحيان إلى العصبية القبلية والموازنة بين التكتلات القبلية اليمانية والمضرية ، وقد سبّب ذلك في إثارة العصبية القبلية .

4 – اتسمت الإدارة الأموية باللامركزية .

5 – كـــانت الإدارة الأمويـــة تستجيب في بعض الأحيان للرعية عندما يشكون سيرة ولاتهم للخلفاء، فقد استجاب معاوية لأهل الكوفة لعزل واليهم عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي سنة 59 بعد أن أساء السيرة ، كما أخذ برأي أهل الكوفة في عزل الوالي عبيد الله بن زياد .

ويجب أن لا ننسى أن جور بعض عمال الأمويين على الناس كان أحد الأسباب الرئيسية لسقوط الدولة الأموية ، فإن أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وفظائعه وعبيد الله ابـــن زيـــاد وظـــلمه وغيرهم كانوا السبب الأول في نفرة الناس منهم وتولي زوال سلطانهم والاســـــتراحة منهم ، ثم قســـوة العمال في أخذ الجـــزية وجباية الخراج ومعاملة الفلاحين بقســـوة أدت إلى خـــراب الأرض فتركها أهلها فقل الخراج وخرب بيت المال ، وعم الفساد الإداري ، وانكب العمـــال على جمع المال ، وأخذت الدولة تنهار شـــيئا فشيئا حتى سقطت سنة 132 هـــ .

رابعا : النظم الإدارية في العصر العباسي :

ورث العباسيون دولة مترامية الأطراف كثيرة الخيرات متنوعة الشعوب واللغات ، كما ورثـــوا التنظـــيم الإداري الأمـــوي الجيد ، وقد امتدح العباسيون هيكل الإدارة والسجلات والدواوين الأموية ، ويقول عبد الله بن علي – أحد كبار دولة بني العباس – في هـــذا الصدد مـــا نصه : " جمعت دواوين بني أمية فلم أجد ديوانا أصح وأصلح للعامة والسلطان من ديوان هشـــام " . كما أشار أبو جعفر المنصور إلى القدرات الإدارية للأمويين بقوله :" معاوية وكفاه زياده ، وعبد الملك وكفاه حجاجه ". ويقصد زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفي .

لم يـــتغير تقســـيم الولايات والإدارة بشكل جوهري في العصر العباسي الأول فشملت ولايات الدولة العربية الإسلامية في هذا العصر الولايات الآتية :

1 – ولاية الكوفة .

2 – ولاية البصرة ، وتضم اليمامة والبحرين وعمان وعبادان أحيانا .

3 – ولاية الحجاز ، وتشمل مكة والمدينة والطائف .

4 – ولاية اليمن ، وتشمل تهامة ونجد وحضر موت .

5 – ولاية فارس ، وتضم أرجان ودار أبجرد وشيراز وسابور واصطخر والصغد وبخارى.

6 – ولاية خراسان ، وتضم بعض أقاليم ما وراء النهر ، فرغانة والشاش واشروسنة .

7 – ولاية الموصل .

8 – ولاية الجزيرة ، وتضم كل من أذربيجان وأرمينيا والران .

9 – ولاية الشام ، وتشمل سوريا وفلسطين والأردن ولبنان .

10 – ولاية مصر ، وتشمل إفريقيا ، برقة والقيروان وتاهرت والأندلس وجزيرة صقلية .

11– ولاية السند ، وتشمل مكران وطوران والسند والهند والملتان .

ولم يخرج العباسيون عن سياسة الأمويين في اختيار ولاتهم من الأسرة العباسية ومن كبار الموالين لهم من العرب وغيرهم . فقد عين أبو العباس السفاح الذي ابتدأ بتنظيم دولته الجديدة أخوه أبو جعفر المنصور أميرا على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، وداود بن علي أميرا على الحجاز واليمامة ، وعبد الله بن علي على البصرة والبحرين وعمان ، وإسماعيل بن علي أميرا على الأهواز ، ومن أبرز أمرائهم المخلصين لهم أبو مسلم الخراساني الذي عين أميرا على خراسان والمشرق ، وأبو العون الذي أقر على مصر وشمال إفريقيا .

كما نظم السفاح السجلات الإدارية وجعلت في دفاتر مجتمعة بدلا من أن تكون في صحف متفرقة . كما ابتدع العباسيون نموذج من العهد للوالي مكتوب وجاهز يملأ في حالة التعيين ، ومن جهتهم أحاط الولاة العباسيون أنفسهم بعدد من العلماء والقضاة والفقهاء الذين يستعان بهم على إدارة الأقاليم .

وكان أبو جعفر المنصور أعظم الخلفاء العباسيين إدارة ، فقد اهتم بعماله في الأقاليم فاختار لها أفضل رجاله فهما ونبلا وأكثرهم ثقة وعدلا وكان أكثرهم من أهل بيته فولى إسماعيل بن علي على فارس ، وسليمان بن علي على البصرة ، وعلى الكوفة عيسى ابن موسى ، وجعفر بن سليمان على المدينة ، وعين يزيد بن حاتم المهلبي على إفريقيا ،

ومعـــن بن زائدة على اليمن ، وحازم بن خزيمة على أرمينية ، وكل هؤلاء من أكابر الرجال وفضلائهم .

وعرف عن المنصــــور حزمه في الإدارة ، وكـــثيرا ما كان يطلب من عماله أن يبعثوا له تقارير مفصلة عن أحوالهم وشؤون بلادهم ، وكان يراقب تصرفات وحركات عماله الإدارية ، ويكـــلف أصـــحاب البريد في كل إقليم ببعث أخبار العمال إليه ، وكلفهم بأن يكتبوا له عن أســـعار المواد الغذائية وأحوال بيت المال وشؤون التجارة والاقتصاد ، وكان شديدا في محاسبة ولاته فعندما بلغه أن أحـــد الولاة يكثر من الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب عزله وكتب له : " إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفيك أمور الوحش ".

وكـــان الخليفة المهدي إداريا منظما ، فقد نظم أمور الحرس فاختار لنفسه خمسمائة من وجـــوه العـــرب ليكونوا حرسه الخاص ، ومن مظاهر إدارته التنظيمية أنه جعل يوم الخميس عطـــلة للموظفين وكتّاب الدواوين ، وعهد الخليفة هارون الرشيد إدارته الدولة إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان كاتبا وعاملا حازما نهض بأعباء الدولة ، وأعانه أولاده الفضل وجعفر وموســـى ومحمد في أعمال الوزارة والإدارة ، ولم يكن الرشيد في أول أمره متشددا في محاسبة عمالـــه وإدارتهم ، لكنه غيّر سياسته وتشدد مع المقصرين منهم ، فعندما اشتكى أهل خراسان من واليه علي بن عيسى بن ماهان الذي عاث واستخف برجالهم عزله الرشيد وولى بدله هرثمة ابن أعين .

ضـــعفت الإدارة في العصـــور العباسية المتأخرة فتسلط أصحاب الطموح على الأقاليم والولايـــات ، فأخذ الجند يثورون على الولاة فيعزلونهم ويقتلونهم ليعينوا غيرهم فيقر الخليفة ذلك التغيير ، ففي سنة 200 هـــ أجمع الجند على تولية السري بن الحكم على مصر ، لكنهم عـــادوا وتمردوا عليه بعد أعوام قليلة فنهبوا داره وبايعوا بدله سليمان بن غالب ، كما عمد بعـــض الولاة إلى إرسال رجال لإدارة الولايات نيابة عنهم في حين بقوا هم في حاضرة الخلافة حرصا على مصالحهم ومكانتهم عند الخليفة ، كما استبد بعض الولاة بأمور ولاياتهم وبخاصة بعـــد أن دب الضعف في جسم الدولة العباسية ، ونجح بعضهم في الاستقلال عن تبعية الخلافة وكونـــوا أسر وإمارات منفصلة كالأدارسة والأغالبة والطولونيين والإخشيديين ، ثم الفاطميين في مصر والحمدانيين في الموصل والإمارة الطاهرية والصفارية والسامانية .

الدواوين في العصرين الأموي والعباسي

مفهوم الديوان :

اختلف في أصل تسمية الديوان فقيل إنه عربي ومعناه الأصل الذي يرجع إليه ، فقد روى عن ابن عباس قوله : " إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب " ، ويقال دونته أي أثبته ، وقال آخرون إن كلمة الديوان فارسية ومعناها السجل أو الدفتر . وذكر الماردي أن كسرى اطلع ذات يوم على كتّاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال "ديوانه" أي مجانين ، فسمي موضعهم بهذا الاسم ، ومهما اختلف في أصل الكلمة فإن الديوان هو موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال يقوم بها من الجيوش والعمال .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أول من أنشأ الدواوين ورتبها في الإسلام ، والدافع المباشر لإنشاء الديوان كثرة الأموال الواردة من الفتوحات وازدياد الناس . وتشير الروايات أن أبا هريرة قدم بمال وفير من البحرين فصعد عمر المنبر وخطب بالناس قائلا :" أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدا فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم فدون أنت لنا ديوانا ". فوافق الخليفة ، وكان أول ديوان دونه عمر هو ديوان الجند الذي يضم أسماء المقاتلة من العرب والموالي وأنسابهم وأوصافهم ورواتبهم التي قدرها عمر على أساس القرابة من الرسول ﷺ والسابقة في الإسلام والجهاد في سبيل الله ، ونظم جداول بالنفقات الشهرية من المال الوفير الذي تجمع لديه في دفاتر خاصة .

أهم الدواوين في العصر الأموي :

1 – **ديوان الجند** : ويعد من أكبر دواوين الدولة وقد بقي هذا الديوان في مستهل الدولة الأموية على ما أنشأه الخليفة عمر ، وتحدد فيه مقدار أعطيات جميع العرب والجنود المقاتلة من العرب وغيرهم ، وكان الانتظام فيه يعني التفرغ التام للجندية والجهاد دفاعا عن الإسلام حتى لا ينشغل الجند بأعمال أخرى كالزراعة التي تستدعي الارتباط بالأرض وترك الجهاد ، لذا فإن تخلف المقاتلة عن الحرب يعني إسقاط أرزاقهم ، وكان تسجيل المقاتلة في الديوان والولادات المستمرة من العوامل التي تستدعي إعادة التدوين وفق تلك المستجدات .

وعـــندما خفـــت حركة الجيوش والفتوحات أبطل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الأعطيات لمن لا يقوم بالعمل العسكري بنفسه أو من يبعث مكانه نائبا عنه ، وألغى أسماء الذين يســـتنكفون من الجندية ، وبذلك حدد الأشخاص الذين يأخذون أعطيات مقدرة ومقررة من ديوان الجند ، ولم تعد أموال هذا الديوان حقا لجميع العرب . وفي العصر العباسي استمر العمل بهـــذا الديـــوان وذلـــك لـــلحاجة إليه ، وكما ذكرنا فقد أعجب الخليفة أبو جعفر المنصور بإصلاحات هشام الإدارية وأمر بالاقتداء بها . كما طور الفاطميون ديوان الجند تطويرا كبيرا فصـــار يـــتألف من ثلاثة دواوين يكمل بعضها الآخر ، يعرف الأول : بديوان الجند ويختص بالـــتعرف عـــلى أحوال الجند وأخبارهم وأعدادهم ، والثاني : ديوان الرواتب وكان مخصصا لتسجيل رواتب الجند وموظفي الخلافة ، والثالث : يعرف بديوان الإقطاع ويختص بإقطاعات الجند .

2 – ديـــوان الخـــراج : وهو من أهم الدواوين في الدولة وواجباته جمع الخراج والإنفاق من مواردهم على شؤون الدولة ، وفيه الإشارة إلى طبيعة فتح البلد عنوة أو سلما ، وما استقر عليه حكم أرضه من عشر أو خراج ، ويفصل في الخراج إن كان مقاسمة على زرعة أو رزق مقـــدر على خراجه ، كما يذكر فيه أحوال أهل الذمة في كل بلد وما استقر عليهم في عقد الجزية التي يدفعونها .

وكـــان في كل ولاية ديوان أشبه بالإدارة المالية المحلية يجمع الخراج ويحتفظ بما يحتاج إليه مـــن مصروفات ويرسل الفائض إلى العاصمة ، حيث يجمع دخل الأراضي الزراعية في ديوان مركـــزي لقـــاء إيصالات استلام وصرف تجري عن طريقة محاسبة دواوين الولايات ، ونظرا لأهمية ديوان الخراج يطلق عليه أحيانا كلمة الديوان دون إضافة الخراج ، وكان متواجدا مع ديـــوان الجند خلال العصر الأموي بسبب الصلة الوثيقة بينهما ، فمقدار أموال الخراج تتصل بمقادير رواتب الجند وأرزاقهم ، ويسمى أيضا ديوان الاستيفاء أو ديوان الخراج والجبايات .

ويشترط بكاتب الديوان العدالة والكفاية ، فأما العدالة فلأنه مؤتمن على حق بيت المال والرعية فاقتضى أن يكون في العدالة والأمانة على صفات المؤتمنين ، وأما الكفاية فلأنه مباشر لعمل يقتضي أن يكون في القيام مستقلا بكفاية المباشرين فإن صح تقليده ، فالذي ندب له ستة أشـــياء : حفـــظ القوانين واستيفاء الحقوق وإثبات الرقوع ومحاسبة العمال وإخراج الأموال وتصفح الظلامات .

وكانت الدواوين تكتب باللغات المحلية . ونتيجة لتطور الإدارة في العصر الأموي بدأت حـركة الـتعريب لهذه الدواوين ، فكان عبد الملك بن مروان الرائد الحقيقي لحركة تعريب الدواويـن ، ففـي سنة 81هـ أمر عبد الملك بن مروان واليه على الأردن سليمان بن سعد بـتعريب ديـوان الشـام من الرومية إلى العربية كما عرب ديوان فارس ، وفي العراق كلف الحجـاج بـن يوسـف الـثقفي كاتبه صالح بن عبد الرحمن بنقل ديوان الخراج إلى العربية مـن الفارسية ، وتم نقل ديوان مصر من القبطية سنة 87هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وفي خلافـة هشام بن عبد الملك تم نقل ديوان خراسان إلى العربية أثناء ولاية نصر بن سيار . وقـد ساعدت حركة التعريب على انتشار اللغة العربية الفصحى ، كما ساعدت في تقليص نفوذ غير العرب الذين اضطروا إلى التخلي عن مناصبهم في الديوان للعرب .

وفي العصر العباسي نقل الخليفة أبو جعفر المنصور ديوان الخراج من مقره في دمشق إلى بغـداد وصار له الإشراف على جميع دواوين الخراج المحلية في جميع الولايات والأموال لكثرة أمواله واتساع رقعة الدولة ، وفي عهد الرشيد توسع في المركزية بإدارة شؤون دواوين الخراج، وخـلال عهـد المعتضد جمعت الدواوين باسم ديوان الدار وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق وديـوان المغرب وديوان السواد (العراق) ، ومنذ عهد الخليفة المهدي أصبح استيفاء الخراج على أساس المقاسمة بدلا من المساحة .

3 – **ديوان الخاتم** : وهو أكبر دواوين الدولة ومهمته نسخ أوامر الخليفة وإيداعها في هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع وتختم بخاتم صاحب الديوان ، وقد عرف العرب قبل الإسلام الختم على الرسائل . وقد اتخذ الرسول ﷺ خاتما له فقد روى المؤرخون أن رسول الله لما أراد أن يكتب إلى الأعاجم كتبا يدعوهم إلى الإسلام قيل له : " إنهم لا يقبلون الكتاب إلا أن يكون مختوما فأمر الرسول ﷺ أن يعمل له خاتم من فضة فنقش عليه (محمد رسول الله) وجعلـه في إصـبعه الشريف ، واستعمله الخلفاء الراشدون بعده حتى فقده الخليفة عثمان بن عفـان ، ففي سنة 30 هـ حفر الخليفة بئر (اريس) للمسلمين فجلس على رأس البئر فانسل الخاتم من يده ووقع في البئر فطلبوه فلم يجدوه ، واغتم الخليفة لذلك غما شديدا فلما يئس منه أمر فصنع له خاتم آخر فلما قتل ذهب الخاتم من يده ولم يعرف من أخذه .

وأول من وضع هذا الديوان ورتب وظيفته واتخـذ له ديوانا معاوية بن أبي سـفيان إثر تزوير حصل في رسالة بعثها إلى عامله على الكوفة زياد بن أبيه أمره فيها بدفع مائة ألف درهم

لعمرو بن الزبير ففتح الأخير الكتاب وزور المائة فجعلها مائتين ، فلما رفع زياد حسابه لمعاوية عـــرف ذلــك فكتب إلى زياد وأمره أن يأخذ المائة ألف منه ويعتقله بتهمة التزوير . فصارت العـــادة أن يحتفظ الديوان بنسخة عن كل ما يوقع من رسائل وحسابات وكذلك فعل الولاة وذلـــك لـــلرجوع إليه والمطابقة والمقارنة عند محاسبتهم ، وقد ولى معاوية على ديوان الخاتم عبيد الله بن أوس النسائي وسلم الخاتم إليه وكان منقوشا على فصه " لكل عمل ثواب " .

ظل هذا الديوان قائما حتى عهد الخليفة العباسي الأمين ، وتذكر المصادر أن الديوان كان موجودا في عهد المأمون ثم حل محله ديوان التوقيع ، وبلغت أهميته أن الوزير العباسي إذا تناول خـــاتم الخليفة ليختم به كتابا قام إجلالا للخليفة ، وفي نهاية الحكم العباسي ألغي هذا الديوان وتحولت أعماله إلى ديوان الرسائل .

4 – **ديـــوان الرسائل** : اتخـــذ الرسول ﷺ لنفسه كتّابا متعددين منهم من اختصه بكـــتابة الوحي ، ومن أبرزهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو بكر وعمر وزيد بن ثـــابت ومعاوية بن أبي سفيان ، ومنهم من كان يكتب له الرسائل التي كان يمليها بنفسه على كـــتّابه أو يطلب إليهم أن يكتبوها ويعرضوها عليه فإن استحسنها أجاز الكتاب وأرسله إلى صـــاحبه ، وكـــان يتولى كتابة عهود ومواثيق الرسول علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة ، واستمرت هذه العادة متبعة في عهد الخلفاء الراشدين .

ولمـــا جاء العصر الأموي كان كل خليفة يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره ، وقـــد تبلور الديوان في عهد عبد الملك بن مروان ، ويضاف إلى ديوان الرسائل أحيانا ديوان (الســـر) ، وكـــانت رسائل الخليفة التي تحرر إلى الملوك والأمراء والولاة تتصف بأنها قصيرة ودقيقة المعنى .

واحتل هذا الديوان مكانا مرموقا بين دواوين العصر العباسي وسمي بديوان (الإنشاء) وكان يتولاه الوزير نفسه حيث يشرف على الرسائل الواردة والمرسلة من الخليفة إلى عماله ، وازداد عـــدد العاملين في الديوان لمساعدة وخزن محفوظاته وكانت الكتب تختم بخاتم الخليفة لتكتســـب الصبغة الشرعية ، وذكر الجهشياري في كتابه (الوزراء والكتّاب) والقلقشندي في (صبح الأعشى) نماذج للرسائل التي توجه للعمال والرعية ، وذكر الأخير تفصيلات كثيرة عن آداب واختصاصات صاحب ديوان الرسائل والعلوم والمعارف التي ينبغي عليه أن يعلمها فقال :

" ليس في منزلة خدم السلطان والمنصرفين من مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والإفضاء إليه بمهماته واطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ".

وخلال عهد دولة السلاجقة عرف باسم ديوان (الطغراء) ، واستمر حتى الغزو المغولي وعرف بديوان (الإنشاء) عند الفاطميين ، وسمي متوليه (كاتب الدست الشريف) ، وكان الخليفة يستشيره في الكثير من أموره واستمر الديوان بنفس الاسم في العصرين الأيوبي والمملوكي وزاد عدد المشتغلين فيه باعتباره ركنا مهما من أركان الدولة .

5 – **ديوان الطراز والطومار** : الطراز هو رسم أسماء الخلفاء والملوك والسلاطين وعلاماتهم على الأثواب والأقمشة الحريرية والديباجة المعدة للباسهم والخاصة بهم وحاشيتهم وموظفيهم ، ثم صار يدل على المكان أو المصنع الذي كانت تصنع فيه هذه المنسوجات ، فقد بنى الخلفاء في دورهم دورا لنسج ثيابهم وغيرها من الشارات والأعلام للدولة ، وكان القائم عليه ينظر في أمور الصباغة والحياكة .

ولم يعرف هذا الديوان في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين إلا أنه نشأ في العهد الأموي الذي ظهرت على خلفائه مظاهر الأبهة والفخامة ، والراجح أن عبد الملك بن مروان هو الذي أوجده حيث أبطل الطرز باللغات الفارسية والرومية وحولها إلى العربية ، وأخذت تتضمن عبارات التوحيد وكتابة أسماء الخلفاء وألقابهم ، ولم يتوقف هذا الديوان في العصر العباسي .

أما الطومار فهو الأوراق الرسمية التي تكتب عليها الرسائل السلطانية والوثائق الدولية ، وكانت هذه الطوامير والطرز تصنع بمصر ، وكان عبد الملك بن مروان أول من استعمل الطوامير ثم ألغاها عمر بن عبد العزيز ، وظلت حتى العصر العباسي عندما جعلها خالد بن برمك في دفاتر .

6 – **ديوان الصدقات** : ويختص هذا الديوان بتوزيع موارد الزكاة والصدقات على مستحقيها حسبما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

(1) سورة التوبة : الآية 60 .

وأول من جعل للصدقات ديوانا خاصا هشام بن عبد الملك . وفي العصر العباسي أخذ ديوان البر والصدقات ينظر في توزيع موارد الصدقات ، ونشّط الخليفة المقتدر الديوان ووسع أعماله ، ووقف عليه عددا من الضياع ، واستمر هذا الديوان حتى نهاية الدولة العباسية .

7 – **ديوان بيت المال** : ويعرف بالديوان السامي وهو أصل الدواوين ومرجعها ، وفيه تثبت جميع أصول الأموال السلطانية على أصنافها من غلال وغنائم وأعشار وأخماس ، ولدقة حسابات الدولة فإن صاحب ديوان النفقات يباشر ديوان بيت المال ليكون عنده التواقيع الدالة على صحة تلك النفقات . وفي العصر العباسي كان ديوان بيت المال يشرف على ما يرد إلى بيت المال من الأموال ، وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والصرف ، ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك ، ويطلب الوزير من صاحب هذا الديوان رفع حساب إسبوعي يسمى (الرزنامج) ، كما يقدم في آخر الشهر حسابا يسمى (الختمة) وحسابا في آخر كل سنة يسمى (ختمة جامعة) .

الدواوين المستحدثة في العصر العباسي :

ورث العباسيون العديد من النظم الإدارية الأموية المحكمة ، وقد استحدث العباسيون دواوين جديدة اقتضتها المصلحة العامة للدولة ، وهذا ما جعلها كثيرة ، وترتبط بالحاجة إليها فإذا انتفت الحاجة إليها ألغيت ، واستمرت تلك الدواوين حتى نهاية الدولة العباسية إذ أبطلت وأزيلت .

ومن أهم الدواوين التي ظهرت في العصر العباسي :

1 – **ديوان الأزمّة** :

تذكر المصادر أن الخليفة المهدي قسم جهاز الدواوين إلى قسمين الأصل والزمام أي الإدارة والمال فجعل لكل ديوان زماما ورجلا يضبطه وقد سمي ديوان الأزمة في العاصمة ، وديوان الزمام في الولايات ، وصاحب هذا الديوان يشبه وزير المالية في الوقت الحاضر ، فهو يجمع أنواع الواردات والنفقات ويقيم الموازنة بينها ، وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الدولة كلها ، فهو بمثابة جهاز الرقابة المالية حاليا .

2 – ديوان النظر في المظالم :

كـــان الرســـول ﷺ والخلفاء الراشدون يستمعون إلى شكاوى الناس وينصفونهم عندما تعرض عليهم تلك الشكاوي ، وكان عهدهم أكثر العصور الإسلامية عدالة من خلال متابعة العمال ومحاسبتهم ، وكان الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) أول من نظر في المظالم ليرســـي العـــدل ويرد مظالم الناس ، وبعد استشهاده والاعتداء على معاوية احتجب الخلفاء وخصصـــوا أوقاتا محددة للنظر في المظالم ، وأول من أفرد لها يوما خاصا عبدالملك بن مروان ، وكذلك فعل عمر بن عبدالعزيز الذي رد المظالم .

وفي العصر العباسي انشغل الخلفاء بأمور الدولة الواسعة فأفردوا للمظالم ديوانا منظما ، حيث تعرض عليه الأمور التي لم يقبل أصحابها بحكم القضاة ، وقد تولى جعفر البرمكي رئاسة ديـــوان النظر في المظالم في عهد الخليفة هارون الرشيد ، وقد أفرد المأمون يوم الأحد من كل أسبوع ليترأس بنفسه النظر في المظالم .

3 – ديوان النفقات :

اخـــتص هـــذا الديوان بمطالب البلاط والنظر في مصروفات الدولة من تأمين الرواتب وإصـــلاح القصـــور وملحقاها ، وشراء المواد الغذائية والخيول وتلبية حاجيات القصور من ملابس وأدوات وأثاث وتكاليف الحفلات والمآدب ، وفي العصر العباسي ضم ديوان النفقات مجـــالس عديدة أهمها : مجلس (الجاري) ،ويختص باستحقاقات الحشم ، ثم أفرد له ديوان سمي ديـــوان (الاحتشام) ، ويختص بمن كان في خدمة البلاط ، ومجلس (الكراع) الذي يشرف على أمور علوف الدواب وساستها وعلاجها وأرزاق القائمين عليها ، ومجلس (البناء) الذي يتولى محاسبة المهندسين والصناع وباعة المواد الخاصة بالبناء ، ومجلس (الحوادث) الذي يتولى أمر النفقات الطارئة ، ومجلس (الإنشاء والتحرير) ومجلس (النسخ) الذي يتولى تسجيل كل ذلك .

4 – ديوان الصوافي :

تعني الصوافي أراضي الدولة ، ويتولى هذا الديوان إدارة الأراضي التابعة للدولة من تأجير واستئجار أو شراء وبيع .

5 - ديوان الضياع :

ويقصد بها ضياع وأراضي الخليفة الخاصة وأسرته ، وقد انفرد لإدارتها واستثمارها هذا الديوان .

6 - ديوان الجهبذة :

وهو ديوان خاص مهمته المحافظة على مصالح أهل الذمة وغير المسلمين .

7 - ديوان الموالي والغلمان :

ومهمته تسجيل موالي الخليفة وعبيده .

8 - ديوان المواريث :

وكـــان ينظر في المواريث ويحتفظ بالفاضل من سهامها ، وقد ألغاه الخليفة المعتضد سنة 283هـــ ، وأمر بردها إلى ذوي الأرحام .

9 - ديوان المصادرات :

لتسجيل أسماء من صودرت أموالهم ومقدارها .

10 - ديوان الماء :

وكان يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه وينظر فيما يملكه هؤلاء ، وما يباع وما ينقص منه وما يتحول من اسم إلى اسم .

وكـــان يعهد بإدارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر ، وهو المسؤول أمام الخليفة في العاصمة وأمام الوالي في الولايات وعندما استحدثت الوزارة صارت أمور الدواوين من اختصاص الوزير ، ويقوم المفتشون أو النظار بالتفتيش من حين لآخر على دواوين الدولة ، ويـــرفعون التقارير الوافية عنها إلى الخليفة ، وكانت الدواوين تؤدي أعمالها دون انقطاع عدا يوم الجمعة ، وقد جعل المهدي يوم الخميس عطلة لكتّاب الدواوين ، ثم ألغاها المعتصم .

خامسا : البريد في العصور الإسلامية

البريد كلمة عربية الأصل مشتقة من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه ، وقيل إنما من أبردته أي أرسلته ، وجاء في الحديث الشريف " إذا أبردتم إليّ بريدا فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم "، وبرد بريدا أي أرسله ، والبريد " الرسول " ، وأبرده أرسله .

عـــرف الفرس والروم البريد منذ القدم لهذا قيل أن أصل لفظ البريد لاتيني مأخوذ من كلمة وريدوس Veredus وتعني خيل في حين سماها اليونان انكروس نقلا عن اللغة الفارسية (بـــريدة دم) أي مقصوص الذنب ، لأن من عادة الفرس قص ذنب البغل المخصص للبريد كعلامة لها .

وقـــد اســـتخدم المسلمون في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين البريد ، فبعد انتشار الإسلام في جزيرة العرب كانت ترد إلى الرسول الأخبار ، وكانت المراسلات في صدر الإسلام منظمة وســـريعة إثر كل معركة إذ كان القائد يرسل إلى الخليفة من يحمل له بشـــرى النصر ، وكـــان أبـــو بكر الصديق رضي الله عنه على اتصال دائم ومستمر مع جيوشه كلها في حروب الردة وتصـــله الأخبار بانتظام وبشكل سريع . كما نظم عمر بن الخطاب رضي الله عنه البريد لشدة حاجته لمعـــرفة أخـــبار جبهات معارك الفتوح في العراق والشام ومصر ، وكانت مراسلاته مع تلك الجـــبهات يومية ترده أخبارها كل صباح ومساء ، كما احتاج عمر البريد لمعرفة أخبار ولاته وعماله .

ولما انتقل معاوية إلى دمشق واطلع على ترتيبات البريد في عهد الروم أعجبه وعمل على تطبيقه مثلهم واحتاج لمعرفة أخبار الدولة وأحوالها ، فأمر بإحضار دهاقنة من الفرس والروم ، وعرفهم بما يريد فوضعوا له البريد لتسرع إليه أخبار بلاده وولاته من جميع أطرافها .

وأحكم عبد الملك بن مروان البريد وأدخل عليه تحسينات عديدة ووضع علامات على الطـــرق لترشـــد المسافر إلى الاتجاه وتحديد المسافة المتبقية ، كما أمر حاجبه أن لا يحجب عنه صاحب البريد ليلا أو نهارا ، وقال لأحد حجابه عند توليته: " وليتك حجابة بابي إلا عن أربعة: المـــؤذن فإنه داعي الله فلا حاجب عليه ، وطارق الليل فشر ما أتى به ، ولو وجد خيرا لنام ، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة إذا حبس البريد ساعة ، والطعام إذا أدرك " .

وظل البريد معتنى به طول الخلافة الأموية ، ثم لم يزل البريد قائما والعمل عليه دائما حتى سقوط الدولة الأموية .

وخلال عصر الخلافة العباسية توسعت مهام البريد فأنشأوا له ديوانا خاصا لمراقبة الولاة ، ويروى عن المنصور قوله :

" ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم . أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج لا يظلم الرعية ، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، وقال صاحب البريد يكتب إليّ بخبر هؤلاء على الصحة " .

وبلغ نظام إدارة البريد في عهد المنصور درجة كبيرة ، فقد كان عماله يوافونه بالأخبار مرتين في اليوم ، كما اهتم الرشيد بهذا النظام فأحاط الدولة بشبكة دقيقة من خطوط البريد كي يتوخى السرعة في نقل الأخبار وإصدار الأوامر ، وعرف عن المأمون أنه كان غاية في الدقة بمعرفة أخبار عسكره من خلال رجال بريده .

ومع أن البريد كان مختصا بخدمات الدولة وسلامتها ومراقبة عمال الدولة وإبلاغ العاصمة بأسرع وقت بما يجري في الولايات من أحداث سياسية – أي أنه يشبه المخابرات العامة اليوم – فإن البريد كان أحيانا ينقل رسائل الناس إلى ولاة الأمور فيروي عن عامل معاوية على المدينة أنه إذا أراد بعث البريد إلى الخليفة أمر مناديه فينادي " من له حاجة فليكتب إلى أمير المؤمنين ".

كما كان البريد ينقل حاجيات الدولة عدا الرسائل فقيل إن الوليد بن عبد الملك استخدم البريد في إحضار بعض المواد لمشاريعه العمرانية ، فحمل البريد الفسيفساء والفصوص المذهبة إلى دمشق ليصفح بها حيطان المسجد الجامع بدمشق ومساجد مكة والمدينة والقدس ، وروي عن الحجاج بن يوسف أن صاحب بريده حمل إليه الثلج ، كما أوصل المماليك ثلج جبل الشيخ إلى القاهرة يوميا بحمام الزاجل بربط كمية يستطيع حملها والطيران بها ، ومن الجدير بالذكر أن نظام البريد في عهد المماليك بلغ ذروة إتقانه حيث نظموا شبكات بريدية غطت أرجاء دولتهم .

ولم يقتصر البريد على المحطات البرية فقط بل تعداه إلى البحر ، فكان صاحب البريد يزود بمراكب خفيفة سريعة لاستغلالها في نقل البريد ، وقد استخدم هذا النوع على نطاق ضيق ، وكان الحجاج بن يوسف أول من استعمل أنواعا خاصة من السفن لهذا الغرض ، وكانت

للـــنيران ودخانها اصطلاحات خاصة بين الأبراج والرباطات الساحلية يتفاهمون بها فيخبر كل برج البرج الذي يليه كتحذيرهم من السفن المعادية المتسللة .

وكان هناك ما يمكن أن نسميه البريد الجوي ، وهذا النوع يكون بوساطة الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة ، وكان المعتصم أول من استعمله ثم شاع استخدامه في عهد الفاطميين بمصر حيث أفرد له ديوانا خاصا ووضعت له دفاتر لبيان أنساب الحمام كما أقـــيمت له أبـــراج خاصة ، فإذا نزل الحمام في مركز من هذه المراكز نقل البرّاج (الموظف المختص) الرسالة التي يحتاجه إلى طائر آخر ليصل بها إلى المرحلة التي تليها ، وتوضع الرسائل بحـــلقات ذهـــبية توضع في أرجله وبألواح خفيفة تعلق في أعناقه ، وتمتاز الرسائل التي ينقلها الحمـــام الـــزاجل بكونها صغيرة ومختصرة إذ يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب ، وتكتب بخط دقيق يسمى (الغبار) لأنه مثل ذرات الغبار ، وتكتب بنسختين يعلق كل منهما في جناح طائر ويرسلان خشية تعرض أحدهما لما يمنع وصوله إلى هدفه .

وللبريد محطات ومراكز خاصة وهي المواقف التي تربط فيها الخيول ، وينتقل البريد من محطـــة لأخرى على ظهور خيل مهيأة تنتظر البريد لنقله إلى المسافة المخصصة لها بسرعة كبيرة وفي أعـــناقها أجراس يسمع لها رنين تعرف بها ، وفي كل محطة يوجد عدد من العمال والخيول والجمال وكل ما يحتاج إليه عامل البريد من طعام وعلف ومياه ، وتقدر مسافة البريد بين محطة وأخرى نحو أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال ، أي أن مسافة البريد اثنا عشر ميلا .

وكان المشرف على هذه الإدارة يسمى (صاحب البريد) وجرت العادة أن يكون رجلا أمينا يكتب الأخبار بدقة وأمانة وأصحاب البريد بمثابة العيون الساهرة والآذان السامعة لولاة الأمر ، ويكون مركز صاحب البريد العاصمة وله نواب وعيون في سائر أنحاء الدولة يرسلون إليــه الرســـائل والأخبار ليتولى عرضها على الخليفة ، ولا بد لصاحب البريد أن يكون عارفا بالطـــرق والمسالك في جميع أنحاء الدولة بحيث يجد عنده الخليفة كل المعلومات المطلوبة لإنفاذ الجيوش وإرسال البريد .



مصادر ومراجع الفصل الثانى

1 – د. إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر الأموي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، 1990.

2 – د. إبراهـيم سـليمان الكـروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1997 .

3 – البلاذري ، احمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وأخيه عمر، الجزء الثاني، بيروت ، 1957 .

4 – ابـن الأثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الجز الثاني ،الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 .

5 – أحمـد عبد الرازق أحمد ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الجزء الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1990 – 1991 .

6 – ابـن حجر ، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، الجزء الثالث ، القاهرة ، 1328 هـ .

7 – ابـن خـلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 .

8 – ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع ، الطبقات الكبرى ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، 1975 .

9 – ابـن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1953 .

10 – ابـن كـثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية في التاريخ ، الجزء السادس ، بيروت ، 1966 .

11 – ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، أعاده يوسف الخياط ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 .

12 – ابـــن هشـــام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، الطبعة الرابعة ، الجزء الأول ، بيروت ، 1971 .

13 – الجـــاحظ ، أبـــو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ت .

14 – الجهشـــياري ، الـــوزراء والكتّاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، 1928 .

15 – حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، القاهرة ، 1985 .

16 – د. ســـعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .

17 – د. شـــوقي أبـــو خـــليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1993 .

18 – د. صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

19 – الطـــبري ، أبـــو جعفـــر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء الثالث والرابع والثامن ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .

20 – د. عـــبد الحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ، 1995 .

21 – د. عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية في عصر الخلفاء الأمويين ، الطبعة الثامنة ، مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ،1998.

22 – د. فاروق عمر فوزي ، النظم الإسلامية ، جامعة العين ،1983.

23 – د. فـــتحية النـــبراوي ، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1991 .

24 – د. فــرج الهوني ، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية ، منشورات الشركة العامة للنشر ، بنغازي ، 1978.

25 – المــاوردي ، أبو الحسن محمد بن حبيب المصري ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1968 .

26 – د. محمــد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلدان الأول والثاني ، دار الأندلس ، بيروت ، د. ت .

27 – المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982.

28 – المقريــزي ، تقــي الدين أحمد بن علي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعــروف بالخطط المقريزية ، تحقيق ، د. محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، الجزء الثاني ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1998 .

29 – د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة، بيروت ، 1975 .



الفصل الثالث

القضاء في الدولة العربية الإسلامية

أولا : القضاء في الجاهلية .

ثانيا : القضاء في عهد الرسول ﷺ .

ثالثا : القضاء في عهد الخلفاء الراشدين .

رابعا : القضاء في العصر الأموي .

خامسا : القضاء في العصر العباسي .

مكانة القضاء العباسي

شروط القاضي

مجلس القضاء

النظر في المظالم

صلاحيات قاضي المظالم

الحسبة

أعمال ووظائف المحتسب

أولا : القضاء في الجاهلية

القضـــاء لغـــة : يعـــني الحكم ، واصطلاحا : هو الفصل بين الخصومات ، وقد عرف ابن خلدون القضاء قائلا : " القضاء منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع " .

لم تكن للعرب قبل الإسلام سلطة تشريعية تسن لهم القوانين ، لذا فقد احتكموا في فصل خصـــوماتهم إلى عاداتهم وتقاليدهم النابعة من بيئتهم ومعتقداتهم الدينية وجزءا من معتقدات مجـــاوريهم ، واعتنوا بشؤون القضاء والعدل بينهم فاختاروا له حكماءهم وعقلاءهم ، وكانوا لا يخـــالفونهم فيما يقضون ، وقد أثرت عن عرب الجاهلية كثير من أحكام القضاء العادلة التي تـــدل على حسن قضائهم وبراعتهم في الفصل بين المتخاصمين ، وحفظ لنا التاريخ أسماء نفر من قضاتهم الذين امتازوا بالعلم والعقل والحكمة والحنكة أمثال : عبد المطلب بن هاشم وولديه أبي طـــالب والزبير ، والأفعى بن الحصين الجرهمي ، وأكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة . ومن أشهر حكيمات العرب : خمعة بنت حابس ، وخصيلة بنت عامر .

عـــلى أن الحكـــام في الجاهـــلية لا يرقون إلى مستوى القضاة ذلك أن القاضي موظف في الدولـــة ، ومـــلزم بإحضار المدعى عليه ، وقراره ملزم للطرفين ، وكانت عقوبة الجريمة في مجتمع قبل الإسلام لا تخص صاحبها فقط بل تتعداه إلى أفراد قبيلته .

أما مصادر الأحكام التي كانوا يعتمدون عليها فهي :

1 – الأعراف والتقاليد المستمدة من تجاربهم .

2 – الاحتكام إلى العرافين والكهان .

3 – الاحتكام بالقرعة .

4 – الـــنظر في المظالم حيث كان ينظر فيها (أهل الحل والعقد) في القبيلة لرد حقوق المظلومين ، فقد تحالفت قريش على نصرة المظلومين في حلف الفضول .

ثانيا : القضاء في عهد الرسول ﷺ

عندما جاء الإسلام كان النبي محمد ﷺ وحده يتولى الفصل في الخصومات بين المسلمين ، واعتـــبر حكمه ملزما حين نزلت الآية الكريمة : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـــجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما ﴾[1]. وبذلك يعد الرسول ﷺ أول قاض في الإسلام يحكم بين الناس بما ينزل عليه من الوحي ، ويجتهد في بعض الأحيـــان ، وكـــانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود ، وكان عليه السلام يقول في هذا الصدد : " البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ".

وأثـــرت عـــنه ﷺ أحاديث جليلة وقصص متواترة تدل على شدة تمسكه بحبل العدالة والحفاظ عليها وتحديد قضاة السوء والظلم والجور ، فروي عنه قوله :

" القضـــاة ثلاثـــة اثنان في النار وواحد منهم في الجنة ، رجل عرف الحق فقضى به فهو بالجنة ، ورجل عرف الحق ولم يقض به وجار في الحكم فهو بالنار ، ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار ".

وروى أبـــو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله : " من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين" . وللـــنبي أقـــوال في أحكام الشهادات والدعاوي والبيانات تدل على براعته في حسن التوجيه وعملـــه عـــلى تحـــري الحق والحكم بالعدل . فقد نهى عن قبول شهادات المطعون في دينهم وخـــلقهم ، وأوجب في الشهادة أن يكون صاحبها أمينا عادلا صادقا شريفا غير مزور وخير الشهود هو الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها . أما في البينات فإن الرسول ﷺ أمر بأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر ، وحذر من اليمين الكاذبة .

ولمـــا انتشـــرت الدعـــوة الإسلامية أذن الرسول ﷺلبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكـــتاب والســـنة والاجـــتهاد فقد بعث علي بن أبي طالب إلى اليمن للقضاء وأوصاه بأن لا يقضـــي بين الخصمين حتى يسمع منهما ، وأمره بأن يعلمهم الشرائع ، كما بعث معاذ بن جبل قاضيا إلى اليمن وأميرا وجابيا للصدقات ، كما قضى في عهد الرسول ﷺ أبو بكر وعمر وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري .

---

(1) سورة النساء : الآية 65 .

ثالثا : القضاء في عهد الخلفاء الراشدين

بعد وفاة الرسول ﷺ أصبح تعيين القضاة من اختصاص الخليفة ، وكان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين يوكل إلى كبار أئمة الإسلام ومجتهديه ، فعندما تولى أبو بكر الصديق أسند شؤون القضاء إلى عمر بن الخطاب ﷺ ، وفيما قاله له : " أنا أكفيك القضاء " ، وظل سنتين لا يأتيه متخاصمان لما عرف به من الشدة والحزم ، ولم يتخذ عمر لقب قاض ، وكان القضاء في الولايات مضاف إلى مهام الولاة .

ولما ولي عمر الخلافة وانشغل بالفتوح وتوسعت حدود الدولة الإسلامية وازدادت مشاكل الناس وتنوعت دعت الحاجة إلى فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية لعدم قدرة الخليفة والولاة على الجمع بين السلطتين . لذا عين عمر القضاة في كل الولايات ، وأسند تعيين القضاة إلى الولاة أحيانا . وقد عهد عمر القضاء إلى أهل الرأي والاجتهاد والمشهورين بغزارة العلم والتقوى والعدل ، وكثيرا ما جمع الخراج والقضاء لرجل واحد ، ووضع لقضاته دستورا يسترشدون به في أحكامهم . وبذلك وضع عمر أسس النظم القضائية واختط منهجها.

ويتضح ذلك في رسالته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري قاضيه على البصرة ، حيث اشترط عليه "العدالة بين الخصوم والصلح الذي لا يتجاوز الحدود المشروعة والمراجعة في الأحكام ، والاعتماد على الكتاب والسنة والاجتهاد والإجماع والقياس "، ومما قاله له :

"واسي بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف في عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ".

والملاحظ أن هذه الرسالة جمعت بين آداب القاضي وأصول المحاكمة ، ومن أشهر قضاة عمر أبو الدرداء عينه على المدينة ، وشريح بن الحارث استقضاه على الكوفة ، وأبو موسى الأشعري على البصرة ، وعثمان بن أبي العاص على مصر .

ولما ولي عثمان بن عفان ﷺ وعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) استمر القضاء وشؤونه كما كان في عهد عمر ، إلا أن عليا كان كثيرا ما يقضي بنفسه .

وفي العهد الراشدي كان القاضي يجلس للحكم في المسجد أو في داره ، ولم يكن للقاضي في بـــادئ الأمـــر كاتب أو سجل تدون فيه المرافعات والمحاكمات ، إنما كان القاضي يبت في القضايا في حينها والقاضي هو الذي يحكم وينفذ الأحكام بعد صدورها ، ولم تفرض أي رسوم عـــلى المتخاصـــمين لقاء الفصل في قضاياهم ، ولا بد من الإشارة بأن وظيفة القاضي كانت مقصـــورة عـــلى الخصومات المدنية . أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء والولاة أنفســـهم ، ولعل القضاء في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين كان أقرب إلى الاستفتاء منه إلى القضاء بسبب قلة الخصومات التي كانت تحسم بالرضا والتسليم والقناعة .

رابعا : القضاء في العصر الأموي

كـــان القضـــاء في العصـــر الأموي مستقلا عن السلطة التنفيذية وبعيدا عن المؤثرات السياســـية ، وكان حكم القاضي نافذا على الولاة وعمال الخراج وكبار رجال الدولة ، وفي حالة تدخل الوالي يعتزل القاضي ليدافع عن حرمة القضاء .

استمر القضاة يحكمون وفق الكتاب والسنة والاجتهاد إذ لم تكن المذاهب الفقهية الأربعة التي تقيد القضاة قد ظهرت وتبلورت بعد الأمر الذي جعل الأحكام تختلف أو تتناقض أحيانا ، وقد يلجأ القاضي للاستعانة بالخليفة إذا اشتبه عليه الأمر كما فعل عياض بن عبيد الله الأزدي قاضـــي مصر مع الخليفة عمر بن عبد العزيز وذلك لأن السنة لم تدون لتكون مرجعا للقضاة في أحكامهم آنذاك .

وفي العصـــر الأمـــوي ظهرت السجلات لتسجيل أحكام القضاة ، وقد انتظم القضاء في عهد معـــاوية الذي جعل للقاضي كاتبا يكتب له الوثائق ويسجل الأحكام في سجل خاص ويكـــتب إلى صـــاحب الشرطة أو المحتسب لتنفيذ حكم الشرع ، كما جعل لصاحب القضاء مكانا خاصا يجلس فيه للحكم بين المتخاصمين .

وقـــد توسعت مسؤولية منصب القضاء في هذا العهد فأخذ يستوفي بعض الحقوق العامة لصـــالح المســـلمين كالـــنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين والمفلسين والنظر في مصالح الطرقات والأبنية والأوقاف ، وحفظ أموال اليتامى وتزويجهم ، فقد نظر عبد الرحمن بن معاوية قاضـــي مصـــر في ولاية عبد العزيز بن مروان في أموال اليتامى وكتب كتابا بذلك ، ويروي

الكندي أن هشام بن عبد الملك لما بلغه أن قاضي مصر يحيى بن ميمون الحضرمي لم ينصف يتيما احتكم إليه بعد بلوغه عظم الأمر عنده ، وكتب إلى عامله على مصر يقول :

" اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا ، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم ".

وقد يكون للقاضي أعمالا أخرى غير القضاء بين الناس كالقصص والوعظ وحفظ بيت المال ، فقد كان عبد الرحمن بن حجرة قاضي مصر من 65 – 83هـ يتناول ألف دينار في العام راتبا له ، مائتا دينار لكل من القضاء والقصص وبيت المال وعطاؤه وجرايته ، وهذا راتب كبير يحمي القاضي من العوز والرشوة وإضاعة الحقوق .

ويشترط في القاضي في العصر الأموي أن يكون عارفا بالكتاب والسنة وإجماع الأمة واختلاف السلف ، فقيه النفس يعقل وجوه القياس إذا ورد، عالما بتخريج الأخبار إذا اختلف، وترجيح أقاويل الأئمة إذا اشتبهت ، وافر العقل أمينا ، متثبتا حليما ذا فطنة وتيقظ ، لا يؤتى في غفلة، ولا يخدع بغرة ، صحيح حواس السمع والبصر عارفا بلغات أهل قضائه جامعا للعفاف، نزها بعيد الطمع ، عدلا رشيدا ، صدوق اللهجة ذا رأي ومشورة ، إذا حكم فصل ، لاتأخذه في الله لومة لائم ، ذا هيئة وسكينة ووقار . ومن شروطه أيضا البلوغ والعقل والحرية والذكورة والإسلام والعدالة والسمع والبصر والعلم .

وفي هذا الصدد قال عمر بن عبد العزيز :

إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم عن الخصم ، والاقتداء بالأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأي ".

خامسا : القضاء في العصر العباسي

تطور نظام القضاء في العصر العباسي وذلك لتعقد الحياة الاجتماعية ، وما طرأ على المجتمع من أساليب جديدة شملت النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الأمر الذي أدى إلى ظهور الكثير من المشاكل التي كانت تحتاج إلى قضاة يفصلون فيها وفقا للشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى ظهور المذاهب الفقهية الأربعة : الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، فأصبح القاضي ملزما بأن يصدر أحكامه وفق إحدى هذه المذاهب ، فكان قاضي العراق يحكم وفق

مذهب أبي حنيفة على حين ساد المذهب الشافعي في مصر ، والمالكي في الشام والمغرب والأندلس ، والمذهب الشيعي في مصر أيام الفاطميين .

وقد نتج عن ذلك ضعف روح الاجتهاد في الأحكام ، وأصبح في كل ولاية قضاة يمثلون تلك المذاهب ، وينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبية ، وجرت محاولات لتوحيد الأحكام لكنها فشلت ، فقد عرض المنصور على الإمام مالك بن أنس ت 179هـ اتخاذ كتاب الموطأ أساسا يجمع عليه المسلمون في مجال أحكام الشريعة ، لكن الأخير رفض ذلك بسبب اعتماد الناس على أحاديث وروايات مختلفة عن الصحابة .

لقد أدخل العباسيون تطورا أساسيا في السلطة القضائية عندما حصروا سلطة تعيين القضاء بالخلفاء وحدهم حتى في عصور التسلط الأجنبي وضعف الخلافة السياسي ، وبذلك قوى مركز القاضي ، واستقل عن الأمراء ، وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة يولي القضاة على الولايات من قبله ، وهذا يعني أن القضاء فقد استقلاليته وتأثر بالسياسة العامة للدولة ، كما أراد بعض الخلفاء العباسيين حمل القضاة على السير وفق رغباتهم لتكسب أعمالهم الصفة الشرعية ، مما دفع الكثير من الفقهاء إلى الامتناع عن تولي القضاء خشية حملهم على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ، فعندما أراد المنصور تولية أبي حنيفة القضاء اعتذر إليه عن ذلك رغم حبسه وضربه ، كما ألزم الخليفة المهدي قاضي المدينة بولاية القضاء بالقوة ، ونقل عن شريك القاضي أنه وصف قبول القضاء كمن يبيع دينه ، وقد وقف بعض المحدثين موقف الشك مما يروي أبو يوسف لصحبه السلطان وتقلده القضاء .

طور العباسيون الإدارة القضائية بشكل دقيق ومنظم فاستحدثوا وظيفة (قاضي القضاة) ليشرف على جمع قضاة الدولة ويراقب سيرهم في القضاء ، وهو بمثابة وزير العدل في أيامنا وكان يقيم إلى جانب الخليفة يفتيه في مسائل الدولة الدينية والدنيوية ، ويتولى تعيين القضاة في الولايات فكان لا يولي قاض أو يعزل إلا بإشارته ، وأول من لقب بهذا اللقب أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة في خلافة الهادي ثم أقره الرشيد عليها ، وربما يعود ذلك إلى غزارة علمه ودرايته بالشؤون الإدارية والقضائية وكان حجة في الفقه .

وعن ذلك ذكر ابن العماد الحنبلي فى شذرات الذهب عنه ما نصه :

" كان أفقه أهل عصره ، فلم يتقدم عليه أحد في زمانه ، وكان بالنهاية في العلم والحلم والرياسة والقدر والجلالة ، وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض ".

ولم يلبث هذا النظام أن انتقل إلى القاهرة أيام الفاطميين حيث كان كبير القضاة يسمى (قاضي القضاة) ، على أنه يجب أن يميز هذا اللقب عن لقب (أقضى القضاة) الذي ظهر في العصر البويهي فهو أقل هيبة ومرتبة من قاضي القضاة .

مكانة القضاء العباسي :

توسعت سلطات القاضي فأصبح يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والغائبين ، وولاية الحج بالناس والخطبة في المساجد ، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية ، أضف إلى ذلك أن بعض الخلفاء عهدوا إلى بعض قضاتهم قيادة الجيوش كما فعل يحيى بن أكثم حين كان يخرج بالجيوش إلى الروم أيام المأمون ، أحمد بن أبي داود أيام المعتصم ، كما أرسل زيادة بن الأغلب القاضي أسد بن الفرات قائدا لحملة الأغالبة على صقلية سنة 212هـ .

وتميز القضاء العباسي بالنزاهة والقوة والعدالة ، وعدم التحيز إلى أي من المتخاصمين ، ولو كان الخليفة نفسه أو أحد خاصته . فلما وقعت خصومة بين أبي جعفر المنصور وزوجته أم المهدي اختصمت إلى غوث بن سليمان قاضي مصر فحمل إلى العراق للحكم بينهما فوكلت أم المهدي عنها وكيلا جلس أمام القاضي ، فطلب من أمير المؤمنين أن يساوي خصمه في مجلسه فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم، وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي. وخوصم مولى السيدة زبيدة زوجة الرشيد ووكيلها إلى القاضي محمد بن مروق فأمر بإحضاره فجلس متربعا ، فأمر به القاضي فبطح وضرب عشرا رغم كونه وكيلا لزوجة الخليفة .

ويروى عن أبي يوسف أنه جاءه رجل يدعى أن له بستانا في يد الخليفة ، فأحضر الخليفة إلى مجلس القضاء ، وطلب من المدعي البينة فقال : غصبه المهدي مني ولا بينة لدي ، وليحلف الخليفة ، فقال أمير المؤمنين : " البستان لي اشتراه لي المهدي ، ولم أجد له عقدا ، فوجه القاضي أبو يوسف إلى الخليفة اليمين ثلاث مرات فلما لم يحلف قضى بالبستان للرجل " .

شروط القاضي :

عني الخلفاء العباسيون باختيار القضاة الأكفاء ، ووضعوا شروطا أساسية في اختيارهم أهمها :

1 – الذكورة والبلوغ : وقد أجاز الطبري للمرأة القضاء في كل شيء ، وأجاز الإمام أبو حنيفة قضاءها فيما تصح فيه شهادتها ، والبلوغ لأن الصبي ناقص التمييز وليس له ولاية على نفسه ، فلا يعقل أن تكون له ولاية على الناس .

2 – العقل والعدالة والحرية والعلم بالأحكام الشرعية .

3 – الإسلام : إذ لا يجوز أن يتولى غير المسلم القضاء بين المسلمين .

4 – سلامة الحواس : كالسمع والبصر والنطق ليسأل الخصوم ويسمع أقوالهم .

5 – الشرف والأناة والفقه : ويروى أن الرشيد أحضر رجلا ليوليه القضاء فرفض بحجة أنه لا يحسن القضاء وليس فقيها ، فقال له الرشيد : " فيك ثلاث خلال ، لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قل خطؤه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه ، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقه به ".

مجلس القضاء :

كان القاضي يجلس للقضاء في المسجد الجامع باعتبار أن منصبه كان دينيا أكثر منه دنيويا، وقد اتخذ القاضي ، هارون بن عبدالله سنة 217هـ في مصر مجلسين للقضاء في المسجد الأول في مقدم المسجد وهو مجلسه شتاء ، على حين كان مجلسه في الصيف في صحن المسجد ، وكان قاضي القضاة في مصر الفاطمية يجلس في جامع عمرو بن العاص وبين يديه الشهود والحجّاب الخمسة ، وفي سنة 279هـ منع الخليفة المعتضد القضاة من الجلوس في المسجد تكريما وحرمة للقضاء .

ثم أصبح القاضي يجلس في داره فعندما تولى إبراهيم بن الجراح قضاء مصر اتخذ من داره مجلسا للقضاء سنة 205هـ ، وفي بعض الأحيان كان بعض القضاة يتناولون في الجلوس بين المسجد ودورهم كما فعل قاضي مصر ، وربما ركب وتحول في البلد فوقف حيث يطلب

القضـــاء ، وفي بعض الأحيان كان القاضي يعقد جلسة في قصر الخلافة خاصة إذا كان الأمر متعلقا بالمظالم .

تألف مجلس القضاء من البواب والكتّاب والمترجمين الذين ينقلون كلام الأعاجم والشهود العـــدول والموقعـــين الذين يسجلون محضر الجلسة ، والحجّاب الذين يتولون إدخال الخصوم وتطـــورت في هـــذا العصر السجلات بحيث شملت الوصايا والديوان ، واتخذ القاضي لنفسه رسوما خاصا فكان يضع الطيلسان على منكبيه ، ويعقد بوسطه سيفا ويتوشح بالسواد ، وأول من ميز لباس القضاة هو القاضي أبو يوسف ، وتلقب القضاة بألقاب رنانة وصحبت مواكبهم الطبول والأعلام .

ومـــن مظاهـــر القضاء العباسي التي تدل على ازدياد مكانة القضاة عندهم قيام يحيى بن أكثم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء بتخويل من الخليفة المأمون ، كما ظهـــرت نـــزعة قوية لجعل منصب القضاء وراثيا في بعض الأسر ، فقد تقلد من أسرة آل أبي الشوارب ثمانية رجال خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولكي يضمن الخلفاء ابتعاد القضاة عن العوز واللجوء إلى الرشوة أجروا عليهم الأرزاق والعطـــاء ، ولم تكن رواتبهم واحدة بل اختلفت حسب العصور ، ففي أواخر العصر الأموي كـــان راتـــب قاضـــي مصـــر عبد الرحمن بن سالم عشرين دينارا في الشهر ، في حين امتنع قاضـــي مصر عبد الله بن خذامر سنة 105هـــ من أخذ أجر لقاء القضاء بينما كان القاضي خير بن نعيم الحضرمي في مصر يعمل بتجارة الزيت لضيق رزقه .

وقـــام الخلفاء العباسيون برفع أجور القضاة فكان القاضي المفضل بن فضالة الذي تولى قضـــاء مصر في عهد المهدي يتقاضى ثلاثون دينارا شهريا ، وقد ارتفع الراتب كثيرا في عهد المأمون فقد أعطى قاضي مصر الفضل بن غانم مائة وثمانية وستين دينارا شهريا ، وتشير بعض الروايات إلى أن بعض القضاة في العصر العباسي كانوا لا يأخذون أجورا على عملهم قربة إلى الله ، واتقاء الشبهات ومنهم قاضي سيراف الحسن بن عبد الله المتوفى سنة 369هـــ الذي كان يعيش من منسوجاته ، كما اشترط القاضي محمد بن صالح بن آدم الهاشمي المتوفى سنة 363هـــ في توليـــه القضاء أن لا يأخذ أجرا ، وكان قاضي قضاة بغداد أبو بكر محمد بن المظفر الشامي المتوفى سنة 488 هـــ يعيش من إيجـــار بيت له . أما في العصر الفاطمي فقد ضوعفت رواتب القضاة . يتضح مما سبق أن العرب المسلمين أعطوا للعدل والقانون مكانة سامية .

النظر في المظالم :

تميـــزت السلطة القضائية في الدولة العربية الإسلامية بالحيوية والنمو ، وكان من مظاهر حيويـــتها نمو مؤسسة قضائية ذات أهمية استثنائية إلى جانب دائرة القاضي ينحصر اختصاصها في الـــنظر في دعاوي الناس المرفوعة إلى الخليفة أو إلى الوالي أو من ينوب عنهما لترفع عنهم الظـــلم الذي حل بهم من موظفي الدولة وأجهزتها . فناظر المظالم ينظر في كل حكم يعجز عنه القاضـــي فيـــنظر فيه من هو أقوى منه سلطة . فالنظر في المظالم يكون ذا سلطة يقمع بها من لم يستمع إلى قضائه ولا ينفذه .

يعرف ابن خلدون ولاية النظر في المظالم بقوله : " وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصـــفة القضـــاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة "، وتقسم المظالم إلى قسمين : ظلم الولاة والجـــباه والموظفين ، وظلم الأفراد للرعية . ويشترط في صاحب المظالم أن يكون رجلا جليل القدر ذا مكانة سامية وقدر رفيع .

وكـــان الرسول ﷺ أول من نظر في المظالم ورعى الأمة بقلبه وعينيه ويديه وحرص على حفظ أرباب الحقوق ، وضرب على أيدي الظالمين بالقصاص والعقوبات الشديدة . فقد أرسل المصطفى ﷺ علي بن أبي طالب لدفع دية قتلى بني جذيمة الذين قتلهم خالد بن الوليد خطأ ، كما حاسب الرسول ﷺ صاحب صدقات بني سليم حينما سلم الأموال للرسول ﷺ وقال : " هـــذه أموالكم وهذه هدايا أهديت إليّ ، فقال له الرسول ﷺ محاسبا : هلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ".

والـــثابت أن عصـــر الرســـول والخلفاء الراشدين من أكثر العصور في الدولة العربية الإســـلامية عدالة وأكثرها إنصافا من خلال متابعة العمال ومحاسبتهم إذ تمثل هذه الحالة وجها مـــن وجوه النظر في المظالم ، ولم تكن المظالم ظاهرة تستدعي أن يعين الرسول ﷺ والراشدين شخصا لهذا الغرض، لأن الناس كانوا في صدر الإسلام الأول بين من يقوده التناصف إلى الحق، أو يزجره الوعظ عن الظلم .

وكان الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) أول من نظر في المظالم ليرسي العدل ويرد المظالم إلى الناس ، لكنه لم يفرد لسماع الظلامات يوما معينا ، وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصـــفه ، ثم أفرد فيما بعد يوما خاصا للنظر في أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم وإنصافهم من ظالميهم .

وفي العصر الأموي عرف قضاء المظالم في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان أول من نظر فيها وأفرد لها يوما يتصفح فيه قضايا المتظلمين من جور الولاة وظلم العتاة لكنه إذا وقف على مشكلة واحتاج إلى حكم رده إلى قاضيه أبي إدريس الأزوي لينظر فيها ، وبذلك يكون القاضي هو المباشر وعبد الملك الآمر ، وهذه دلالة واضحة على حسن تصرف عبد الملك بن مروان ومقدار عدالته واحتياطه في أمور المسلمين . كما ندب عمر بن عبد العزيز نفسه للنظر في المظالم وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها وقد اقترن اسمه بالعدل .

وفي العصر العباسي كان المنصور أول من نظر في المظالم ، ويروي الطبري أن رجلا اشتكى إلى المنصور من عامله الذي أخذ ضيعته فكتب إليه المنصور في رقعة المتظلم : "إن آثرت العدل صحبتك السلامة فأنصف هذا المتظلم من هذه الظلامة" . كما جلس المهدي و الهادي والرشيد والمأمون للمظالم ، وآخر من جلس لها الخليفة المهتدي الذي بنى قبة المظالم ليجلس للنظر في الظلامات وأعاد الأملاك إلى مستحقيها .

تنعقد محكمة المظالم برئاسة الخليفة أو من ينوب عنه في المسجد أو في دار الخلافة، ويدخل الناس عليهم مباشرة في اليوم المخصص ، ففي عهد المأمون خصص يوم الأحد من كل أسبوع للنظر في المظالم ، فيما جلس المعتضد يوم الجمعة ، وخصص أحمد بن طولون للمظالم في مصر يومين في الأسبوع حتى استغنى الناس عن سبع سنين .

وكانت الظلامات تعرض مكتوبة في عرائض ينظمها ويرتبها موظف خاص ليعرضها على الخليفة ليدرسها مع القضاة والفقهاء ، فإذا استقر رأيه ثبت الحكم في العريضة نفسها ويكون على الجهة المعنية تنفيذها فورا . أما في حالة كون الظلامة تخص الخليفة أو أحد أفراد أسرته فلا ينظرها الخليفة بل يوعز إلى القاضي لينظر فيها .

وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات لا يستغني عنهم، ولاينتظم نظره إلا بهم وهم :

1 – الحماة والأعوان : وقد اختيروا للإفادة منهم في التغلب على من يلجأ إلى القوة والعنف أو يحاول الفرار من القضاء .

2 – القضاة والحكام : ومهمتهم الإشارة على صاحب المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق إلى أصحابها ، وإعلامهم بما يجري بين الخصوم لإلمامهم بشتى الأمور.

3 – الفقهاء : وإليهم يرجع قاضى المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

4 – الكتّاب: ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما يتوجب لهم أو عليهم من الحقوق.

5 – الشـــهود: ومهمتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام لا يتنافى مع الحق والعدل .

صلاحيات قاضي المظالم :

يمكن إجمال صلاحيات قاضي المظالم ومهامه بما يلي :

1 – النظر في الشكاوى التي يرفعها الرعية ضد تعدي الولاة والحكام وكتّاب الدواوين وجباة الضرائب وتعسفهم في السيرة ، لأنهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه ، وإنزال العقوبة بمن ثبتت إدانة المتهم منهم .

2 – تـنفيذ ما أوقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه لتعززه وقوة يده أو لعلو قدره ، لأن والي المظالم أقوى نفوذا وسلطة منهم .

3 – الـنظر في تظلم الجند وخاصة المرتزقة منهم إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها ، فيرجع إلى ديوانه في فرض العطاء العادل فيجريهم عليهم .

4 – مـراعاة إقامـة الشـعائر والعبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد ، وقد أصبحت بعض هذه الصلاحيات فيما بعد من وظائف المحتسب .

5 – النظر فيما عجز عنه ناظر الحسبة في المصالح العامة كالمجاهرة بالمنكر والتعدي على الناس في الطرقات .

6 – النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين بالحق .

7 – الإشـراف على الأوقاف العامة والخاصة ، فالعامة يجريها على سبلها ، أما الخاصة فإن نظره فيها يتوقف على تظلم أهلها عند التنازع عليها .

وهكـذا نلاحـظ أن سـلطة ناظـر المظالم ونفوذه يفوقان ما يتمتع به القاضي المقيد في إجـراءات وأصـول النظر في الدعاوي ، وقد حدد الماوردي في الأحكام السلطانية فروق عديدة بينهما ، وهي كالآتي :

" لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة في كف الخصوم عن التجاحد ، ومنع الظلمة عن التغالب والتجاذب ، فهو أوسع مجالا وأوسع مقالا .وناظر المظالم أكثر تأنيا في ترداد الخصوم عند اشتباه الأمور ، ويستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراضٍ ، وليس للقاضي ذلك إلا عن رضا الخصمين بالرد ، وأنه يستعمل الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ليصل إلى معرفة الحق من المبطل ، وأنه لا يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عدوهم ليزول عنه الشك ، ويجوز له أن يبتدئ باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ، وعادة القضاء تكليف المدعي إحضار بينته ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله" .

الحسبة :

الحسبة نوع من أنواع القضاء استحدثت لتطبيق العدالة في المجتمع . عرّفها الفقهاء بأنها "أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله" ، وهي من أوائل النظم الإسلامية ظهورا ، وصفتها الدينية من الأساس تقوم على تنفيذ الآية الكريمة : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾[1] .

فوظيفة المحتسب إذن هي الأمر والنهي وتغيير المنكر في المشاكل اليومية الواضحة التي لا نزاع فيها ، والتي لا تحتاج إلى حلف أو يمين أو سماع شهود أو إقامة حدود فهذه كلها من اختصاص القاضي ولا دخل للمحتسب فيها وعقوبته التوبيخ والتشهير ، فهو يراقب الأسواق والتجار وأرباب الحرف ويمنعهم من الغش وغيرها .

وللمحتسب سلطة تنفيذية مفوضة إلى رأيه ويمارس فيها عقوبات التعزير[2] كالردع والتوبيخ بالقول أو بالسوط أو بالدرة أو التشهير بأن يلبس الشخص الخرق البالية الملونة والأجراس ويطاف به في الشوارع .

ويشترط في المحتسب أن يكون مسلما حرا بالغا تقيا عاقلا عادلا قادرا ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين عارفا بأحكام الشريعة بعيدا عن الرياء حتى تكون له في قلوب الناس مهابة وجلالة ، مستورعا عن قبول الهدية ولا يخالف قوله فعله ، ويراقب المحتسب الأمور الظاهرة

(1) سورة آل عمران : الآية 104 .
(2) التعزير : التأديب .

ولا يتجســس ، ولا يقتحم على أصحاب الدور دورهم ليحاسبهم على ما يصنعونه سرا لأن للدور حرمة مصانة .

وكان المحتسب يأخذ أجرا عن عمله يساوي أحيانا أجور القضاء ، ويتطلب من المحتسب آدابــا كثيرة منها أن يظهر للناس بهيئة حسنة وثياب نظيفة ويتعطر بالمسك وأن يقص شاربه ويقلم أظافره .

ظهــرت هذه الوظيفة في عهد الرسول ﷺ فقد تولاها بنفسه فحينما مر على صبرة[1] طعام فأدخل يده بها فنالت أصابعه بللا فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فقال : لقد أصابته السماء[2] يا رسول الله ، قال : أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشنا فليس منا. وقلدها الرسول ﷺ غيره فيروى أنه قلد سعيد بن العاص مراقبة سوق المدينة ، وولى سمراء بنت نهيــك الأسدية وكانت تحمل سوطا في يدها ، كما استعمل عمر بن الخطاب ﷺ على سوق المدينة .

وفي عهــد عمر بن الخطاب ﷺ كان يشرف بنفسه على أسواق المدينة ويتابع الأسعار فيها ودرته معه ، فمتى رأى غشاشا خفقه بها مهما يكن شأنه ، وربما أتلف بضاعته ، واستعمل عــبد الله بن عتبة والصحابية الشفاء بنت عبد الله العدوية على سوق المدينة وكانت لها عنده منزلــة كبيرة حتى إنه كان يقدمها في الرأي ، وتولت سمراء الأسدية هذا المنصب مرة ثانية ، وكانت تضرب المخالفين بسوط كان معها ، وكان الخليفة الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجه) يمر في الأسواق ينهى عن الغش في الكيل والميزان ، ويوصي أصحاب السلع بأخذ الحق وإعطائه .

واســتمر إشراف الدولة على الأسواق خلال العهد الأموي ، وأطلق الموظف المشرف عــلى الأسواق اسم "العامل على السوق" ، وانحصرت وظيفته في مراقبة الأوزان والمكاييل ، وتشــير الــروايات إلى تعيــين سمرة بن جندب في ولاية زياد بن أبيه على البصرة الذي كان يســتخلفه في غيابه ، كما أشرف على سوق الأحواز . وفي عهد يزيد بن عبد الملك شغل كل مــن مهــدي بن عبد الرحمن ثم إياس بن معاوية حسبة واسط . أما عاصم الأحول فكان على حسبة الكوفة .

(1) صبرة : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن .
(2) المطر .

وفي العصــر العباســي صــار المحتسب هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، حيث انتظمت المدن وتعقدت الحياة وشملت واجبات المحتسب جوانب دينية ومدنية، كما كان لظهور المذاهب الفقهية وازدهار الحياة الاقتصادية في الزراعة والصناعة أثرها الكبير وتطــور مســؤوليات المحتسب ، فقد أولى المنصور أسواق بغداد اهتماما ملحوظا فعين عليهم محتسبا وهو المنصور أبو زكريا بن عبد الله ، ومنذ ذلك التاريخ صار الخلفاء العباسيون يعينون محتسبين على أسواق بغداد وغيرها من المدن الإسلامية .

وعــرفت مصــر الحسبة عبر عصورها السياسية المختلفة وإن تأخر ظهورها حتى القرن الثالث الهجري ثم عرفتها الدولة الإخشيدية ، وفي عهد الفاطميين والأيوبيين شهدت الحسبة تطــورا وازدهــارا ، إلا أنها فقدت هيبتها في العهد المملوكي ودب الفساد والرشوة وتعيين العســكريين فيهــا ممــن لم يكونوا من الفقهاء ، وأطلق على الحسبة في الأندلس اسم (ولاية الســوق) أو (أحكام السوق) ومتوليها يسمى (صاحب السوق) الذي حظي بأهمية كبيرة من خــلال علاقة صاحبها بمصالح الناس العــامة حتى ظلت هذه الوظيفة في الممالك المسيحية بعد زوال الحكم الإسلامي تحت اسم (Almotacen) .

ولعــل أحســن دليل على أهمية المحتسب من الناحية العملية أن ملوك إسبانيا المسيحيين كــانوا كــلما اســتردوا إقلــيما من المسلمين أبقوا فيه المحتسب ، وفي بعض الأحيان يعين المحتســب نوابا عنه في المدن والأقاليم التابعة له لتولي أعمال الحسبة ، وكان يعاونه آخــرون مــن بين أصحاب الحرف ليشرف كلا منهم على شؤون صنعه والعاملين ليسهل بذلك مراقبة المحتسب له .

أعمال ووظائف المحتسب :

للمحتسب سلطات واسعة فهو يشرف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتشمل نواحي دينية وأدبية وعمرانية وأخلاقية أهمها :

1 – مراقــبة الأســواق والإشــراف على الموازين والمكاييل وصحتها ونسبها لمنع كل ما حرمه الإسلام من زيادة الأسعار ، ويفهم من ذلك أن الأسعار كانت محددة فتوضع أوراق بسعر كل سلعة بأمر المحتسب، وكانوا في الأندلس يسعرون الأشياء الضرورية كالخبز واللحم، ويــراقب الــتطفيف ويمنع الاحتكار والاستغلال والغش والإشراف على دور ضرب النقود والطراز والإشراف على سوق الرقيق.

2 – مراقبة الآداب العامة في الطرقات والأماكن التي يرتادها الناس لشرب الخمر فكان المحتسبون يريقون الخمور ، كما يمنع المحتسب الرجال من التعرض للنساء ومنع الناس من تطيير الحمام ومنع السحر والكهانة ، ويراقب أبواب حمامات النساء ويمنع النساء من التبرج والدعارة .

3 – مراقبة العبادات : إذ يهتم المحتسب بأمر تأدية العبادات كصلاة الجمعة والأعياد والصوم ومنع الناس من إشهار إفطارهم في شهر رمضان ويجبرهم على دفع الزكاة ، كما يعتني بنظافة المساجد وهيبتها ويمنع الصبيان والمجانين من دخول المساجد وينهاهم عن وضع الأمتعة بها .

4 – مراقبة أرباب الحرف وأصحاب المهن المختلفة كمراقبة الأطباء وإجبارهم على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفهم ، كما جعل المحتسب لأهل كل صنعة منهم سوقا خاصا بهم ، فمن كانت صناعته تحتاج إلى وقود ونار كالخباز والطباخ والحداد يبعد المحتسب حوانيتهم عن العطارين والبزازين وذلك لعدم المجانسة بينهم ، كما يمنع أحمال الحطب والتبن من الدخول للأسواق لضررها بالناس .

وكانت الشروط التي يضعها المحتسب على الخبازين في النظافة كثيرة لا نجد لها مثيلا في الوقت الحاضر . إذ كان المحتسب يأمر عمال الخبز بأن يصنع كل واحد منهم طابعا ينقش فيه اسمه على الخبز ليميزه عن غيره ، ويأمرهم برفع سقائف أفرانهم وجعل منافذ واسعة للدخان في سقوفها ، وعليه بغسل مستودع الماء ومنع العجان من العجن بركبته ، وأن لا يعجن إلا وعليه ثوب خاص نظيف ، ويكون ملثما ويشد على جبينه عصابة بيضاء ، ويحاسبهم إذا غشوا الخبز ويلزمهم أن لا يخبزوه حتى يختمر .

كما جعل المعلم مسؤولا عن أجيره بطريقة التكفيل حتى لا يهرب أصحاب المتاجر والمصانع من تبعة أعمالهم بحجة أنهم غير مسؤولين عنها لأن أجرائهم هم الذين فعلوها .

5 – مراقبة الأبنية والطرق : يحكم المحتسب بهدم الأبنية البارزة إلى الطريق لأنه ملك للناس ، ويمنع فتح النوافذ التي تشرف على منازل غيرهم ، كما يأمر أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع أنقاضها عن الطريق ، ويراقب بسطات الأسواق لتسهيل حركة المرور ، ومنع الميازيب الظاهرة من الحيطان في الشتاء ومجاري الأوساخ الظاهرة من الدور صيفا .

6 – القضـــاء في بعض الدعاوى ، ومنها : دعوى البخس في الكيل والوزن ، ودعوى الغش والتدليس في بيع أو ثمن ، ودعوى التأخر في سداد الدين .

7 – أعمال مختلفة أخرى ، ومن أهمها إجبار السادة على حسن معاملة عبيدهم وإمائهم والسهر على الأطفال اللقطاء والتكفل بهم ، ومنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصبيان ضربا مـــبرحا ، ومنع الحمالين وأرباب السفن من الإكثار في الحمل حتى لا تتعرض للغرق في البحار والأنهار ، كما يتدخل في علف البهائم وأن لا تستعمل في ما لا تطيق مع السهر على الدواب الضـــالة والأشياء الضائعة وإعادتها إلى أصحابها ، كما يراقب أحوال أهل الذمة وأهل الجنائز والحاكة والخياطين والدلالين والنخاسين والصباغ والكحالين وغيرهم .



مصادر ومراجع الفصل الثالث

1 – د . إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر الأموي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، 1990 ف .

2 – د . إبراهيم سليمان الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1997 ف .

3 – ابن الأثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الطبعة الثالثة ، الجزء الخامس ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 ف .

4 – ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة ، 1963 ف .

5 – ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، الجزء الرابع ، القاهرة ، 1328 هـ .

6 – ابن خلدون ، أبو زيد عبدالرحمن ، مقدمة العلاقة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1963 ف .

7 – ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان ، تحقيق د . حسين عباس ، الجزء الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

8 – ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع ، الطبقات الكبرى ، الجزء الثاني ، دار صادر ، بيروت ، 1975 ف .

9 – ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الجزء الخامس ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1953 ف .

10 – ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الجزء الأول ، دار الآفاق الجديدة ،بيروت، د.ت.

11 – ابـــن منظور ،جمال الدين محمد بن مكرم ،لسان العرب ، إعادة يوسف الخياط ، دار الجبل ، بيروت ، 1988 ف .

12 – ابـــن هشـــام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، الطبعة الرابعة ، الجزء الثاني ، بيروت ، 1971 ف .

13 – د . أحمـــد إبراهـــيم شريف ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، الكويت ، 1981 ف .

14 – د . أحمـــد عـــبد الرزاق أحمد ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الجزء الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1990-1991 ف .

15 – د . أحمـــد مخـــتار العبادي ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 ف .

16 – آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبوريدة، الجزء الأول ، بيروت ، 1967 ف .

17 – د . حســـن إبراهـــيم حسن وعلى إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ، القاهرة ، 1862 ف .

18 – د . حســـين مؤنس ، فجر الأندلس الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1959 ف.

19 – د . شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الجزء الثالث .

20 – د . صـــبحي الصـــالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 ف .

21 – صـــلاح الدين خدابخش ، حضارة الإسلام ، ترجمة د . علي حسين الخربوطلي ، بيروت ، 1971 ف .

22 – الطـــبري ، أبـــو جعفـــر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الجزء الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 ف .

23 – د . عبدالحسين المهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامي ، منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ، 1995 ف .

24 – د . فاروق عمر فوزي ، النظم الإسلامية ، جامعة العين ، 1983 .

25 – القلقشندي ، أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1987 ف .

26 – الماوردي ، أبو الحسن محمد بن حبيب المصري ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978 ف .

27 – د . محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الأول ، الجزء الثاني، دار الأندلس، بيروت ، د.ت .

28 – المسعودي ، أبو الحسن علي بن حسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد،الجزء الثالث ، دار المعرفة ، بيروت، 1982 ف.

29 – المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، الخطط المقريزية ، تحقيق د . محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، الجزء الثالث ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1998 ف .

30 – د . ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة، بيروت، 1975 ف .



الفصل الرابع

الشرطة والنظم الحربية العربية الإسلامية

أولا : نظام الشرطة

ثانيا : تطور المؤسسة العسكرية الإسلامية

1 – إمارة الجيش وقيادته .

2 – رواتب وأعطيات الجيش .

3 – تشكيلات وأقسام الجيوش العربية الإسلامية .

4 – الأسلحة والتدريب في الجيوش العربية الإسلامية .

5 – وسائل وأسلحة الدفاع العربية الإسلامية .

6 – أصناف الجيش واختصاصاته .

ثالثا : تطور البحرية الإسلامية

1 – الأسطول الإسلامي في العصر الأموي .

2 – الأسطول في العصر العباسي والدويلات المستقلة .

3 – صناعة السفن العربية الإسلامية .

4 – أنواع السفن العربية الإسلامية .

5 – أسلحة الأسطول وفنون القتال البحرية .

أولا : نظام الشرطة

اشتقت كلمة الشرطة من شرط بمعنى علامة لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، وأخذت تطلق على الذين يعملون على حفظ الأمن والنظام ليلا ونهارا ، وكانت نواة الشرطة نظام العسس (الحراس) الذي عرف في عهد الرسول الأعظم ﷺ الذي اتخذ رجالا يعسون له بالمدينة يحرسون الناس ويتبعون أهل الريب والفسق ومن يريد إفساد أمن المدينة ، وكان كبار الصحابة يحرسون النبي ﷺ خوفا عليه من الاغتيال ، وقد اتخذ الرسول بديل بن ورقاء حارسا للمدينة وصاحب عسس لها يساعده في ذلك أوس بن ثابت ، وأوس بن عرابة ، ورافع بن خديج ، وفي عهد أبي بكر تولى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود العسس ، وتولى عمر بنفسه العسس في خلافته فكان يطوف في الليالي يراقب أحوال الناس ويصطحب معه مولاه أسلم .

ولما ازدهرت المدن وتوسعت أسواقها كثر المفسدون وتظاهروا بالمنكر في وضح النهار والليل . لذا أصبح لزاما إنشاء جهاز أمني منظم يضبط شؤون المدن ويوفر لها الاستقرار فأنشئت الشرطة كعسس دائم ، وفي خلافة الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) نظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها (صاحب الشرطة) الذي يشرف على جهاز الشرطة وأفرادها، ولا بد من الإشارة إلى أن الخلفاء الراشدين يولون الشرطة الوجوه والعدول والثقات وعلية القوم وأشرافهم .

ظهرت أهمية الشرطة بوضوح وازدادت العناية بها في العصر الأموي ، فيروى أن معاوية بن أبي سفيان أول من أقام الشرطة والبوابين في الإسلام فاستخدم واليه على البصرة زياد بن أبيه أربعة آلاف منهم لحفظ الأمن والنظام وجعل على رئاستهم عبد الله بن الحصن ، ويبدو أن كثرة الثورات والاضطرابات في العهد الأموي دعت الأمويين إلى الاهتمام بنظام الشرطة ، ومن الجدير بالذكر أن الشرطة الأموية كانت من توابع القضاء وأداة تنفيذ للعقوبات والأحكام التي يصدرها القاضي أو فرض العقوبات الزاجرة من حبس وضرب قبل ثبوت الجرائم ، كما شملت مراقبة المجرمين ومطاردتهم وجلبهم إلى حضرة القاضي إن أمكن .

وقد تولى (صاحب الشرطة) إقامة الحدود كالزنا وشرب الخمر والتعزير وإدارة السجون ومساعدة عمال الخراج ، كما كان (صاحب الشرطة) مسؤولا عن حراسة الخليفة أثناء تأدية الصلاة فضلا عن حراسة الناس وممتلكاهم ، وكان لصاحب الشرطة فروع في المدن يتصلون به ليوجههم الوجهة الصحيحة لحفظ الأمن ، وكان الأمويون يختارون صاحب شرطتهم من علية القوم وأهل العصبية والقوة ، وأطلق عليه في بعض الأحيان (صاحب الأحداث).

أصبحت الشرطة في العصر العباسي من مؤسسات الدولة المهمة وازدادت صلاحياها وانفصلت عن القضاء ، وأصبح صاحب الشرطة ينظر في الجرائم المدنية والسياسية ويوقع العقوبات ويحفظ الأمن ، فى حين اختص القاضي بالأحوال الشخصية والقضاء الشرعي ، وكان الخليفة يختار صاحب الشرطة من ثقات رجال الدولة وكبار القادة .

تميز صاحب الشرطة في الشرطة في العصر العباسي بمميزات عديدة أهمها أن يكون حليما دائم الصمت ، طاهرا نزيها غليظا على أهل الريب بعيدا عن الوساطات والشفاعات يعاقب الخاص والعام عقوبة واحدة كما أمرت الشريعة الإسلامية ، ويساعد صاحب الشرطة أعوان يسمون أصحاب النوبة أو العسس أو الغفراء ، وكانت لهم علامات تميزهم ، وملابس خاصة بهم ويحملون سكينا طويلة تسمى (الطبرزين) .

وكان الخليفة يقلد (صاحب الشرطة) في عاصمة الخلافة وربما جعل ذلك لوزيره ، فكان رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة والي أو حاكم ، وفي عهد المأمون شغل صاحب الشرطة طاهر بن الحسين . أما في الأقاليم الإسلامية فكان الأمير يعين صاحب شرطته ، وفي بعض الأحيان كانت الشرطة تقسم تبعا للمناطق في المدن الكبرى .

وتوسعت مهام صاحب الشرطة في العصر العباسي فكان يقوم بإدارة السجون والإشراف على السجناء وتفتيش ما يدخل عليهم من أطعمة ، ويراقب المفرج عنهم من السجناء والتشديد عليهم عند عودهم إلى السجن مرة ثانية ، ويأمر العامة ألا يجيروا أحدا ولا يساعدوه على الهرب وأن يدلوا على الظالم أو المجرم ، ويقوم صاحب الشرطة بعمارة سور المدينة ومراقبة أبواها ، ومعرفة الداخلين إليها ، ويساهم في إطفاء الحرائق ، وإصدار العملة ومراقبتها .

وتعددت أجهزة الشرطة السرية أو ما يسمى (صاحب الخبر) وهو عين الخليفة على موظفيه وخصومه ومعارضيه . فقد عين المأمون إبراهيم بن السندي صاحبا للخبر في بغداد ، وكان الأخير يعتمد على أعداد كبيرة من الرجال والنساء ليعينوه في مهمته ، ثم توسعت مسؤوليات صاحب الخبر حتى شملت مراقبة الولاة والأمراء . وقد كتب صاحب الخبر بخراسان إلى المأمون بأن الوالي طاهر بن الحسين : " خطب يوم الجمعة ولم يدع لأمير المؤمنين "، وقد سبب ذلك في موت طاهر بعد وقت قصير .

وظف البويهيون معلمو أولاد الأمراء والقادة العسكريين بالسؤال عن آبائهم وخططهم في المستقبل وكانوا يرسلون تقاريرهم إلى صاحب البريد ليوصلها بدوره إلى الخليفة ، كما استقصى الناصر أخبار الناس وأحوالهم وطلب من حراس الدروب أن يرفعوا إليه كل صباح ما يحدث بمحلاتهم ، فأدى ذلك إلى كثرة ورود الأخبار التي يغلب عليها طابع الوشايات والسعايات الشخصية التي أبعدت الاهتمام بأمن الدولة الأمر الذي أدى إلى إفساد جهاز صاحب الخبر وأبعده عن هدفه .

ساهمت الفتوة الشعبية شبه العسكرية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين في المحافظة على الأمن والاستقرار في الأوقات التي عجزت فيها الشرطة عن تحقيق الأمن للدروب والمحلات والتجار ، فعندما قتل الأمين عمت الفوضى في بغداد سنة 201هـ وقامت جماعة من العامة بالسيطرة على الوضع وحفظ الأمن في المدينة ، وتكرر دفاع التنظيمات العامة في بغداد سنة 251هـ عندما وقف العيارون والشطار إلى جانب الخليفة المستعين في محنته ضد الأتراك، كما ساند العامة الخليفة المهتدي سنة 256هـ في سامراء للحد من تسلط الأتراك ، وتوسعت تنظيمات الفتوة خلال حكم البويهيين والسلاجقة وبلغت حد التطوع لقتال البيزنطيين .

ظهرت في بلاد الشام والجزيرة الفرآتية أواسط القرن الرابع الهجري حركة سميت (حركة الأحداث) وكانت توازي حركة الفتوة واستمر نشاطها في دمشق وحلب حتى القرن السادس الهجري ، وقد كون هؤلاء قوة شعبية اتخذت موقفا عدائيا من الأجانب ونجحوا في فرض سيطرتهم على المدن وحفظ الأمن والنظام والاستقرار فيها .

وفي أطـراف الدولة العربية الإسلامية ظهرت الشرطة منذ وقت مبكر . ففي مصر كان صـاحب الشرطة بمثابة نائب الوالي وكان الأخير يختاره من بين أقاربه أو أعوانه ، وفي بعض الأحيـان يعـين الخـليفة صـاحب الشرطة واليا على مصر في حالة موت الوالي أو عزله ،

ثم تطـورت الشرطة في مصر فأصبحت على نطاق إقليمي فشرطة الفسطاط سميت (الشرطة السفلى) ، وسميت الشرطة التي أنشـأها صالـح بن عـلي سنة 133هـ في مدينة العسكر (بالشرطة العليا) .

واسـتمر نظـام الشـرطة قائما في مصر في عهد الطولونيين والإخشديين . وفي العصر الفـاطمي تـبدل مفهـوم الشرطة السفلى وأصبح يعني شرطة مصر ، وشمل مدن الفسطاط والعسكر والقطائع فى حين عنت الشرطة العليا بشرطة القاهرة بعد تأسيسها . ومن أشهر من ولى شرطة القاهرة يعقـوب بن كلس سنة 362هـ بعد أن جمع له الخليفة المعـز لدين الله الأشـراف عـلى الشرطة والحسبة ، وأصبح ذلك من مميزات العصر الفاطمي . وفي العصر الأيـوبي عـرفت الشـرطة (بالشحنة) وتلقب صاحبها أحيانا بوالي الحرب فضلا عن لقب صـاحب الشرطة ، ولعل ذلك يشير إلى نيابته عن الوالي في بعض الأحيان . أما في الأندلس فكانت الشرطة على نوعين :

الأولى : الشرطة الكبرى التي اختصت بالضرب على أيدي أقارب السلطان ومواليه المخالفين ، وقد نظر صاحبها في الجرائم التي يرتكبها كبار القوم من الخاصة وأهل النفوذ ، وكان متوليها من كبار رجال الدولة ويعقد جلساته بباب قصر السلطان .

أما الثانية : فهي الشرطة الصغرى وكان صاحبها ينظر بالجرائم التي يرتكبها العامة ، ولا شك أن هذا التقسيم الطبقي للشرطة يتنافى مع روح الإسلام وتعاليمه التي لا تفرق بين المسلمين .

ثانيا : تطور المؤسسة العسكرية الإسلامية

لم يكن للعرب قبل الإسلام نظام خاص بالجيش فكان رجال القبيلة مدعوين كلهم للقتال عند الحاجة بسيوفهم ورماحهم ، وعند انتهاء القتال يعودون إلى ممارسة أعمالهم السابقة .

وجاء الرسول ﷺ بدعوته الإلهية سالكا سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، وكان يدعو الناس إلى اتباع ما أمره الله فدخل في دينه نفر من المستضعفين الذين لقوا من الكفار شرا كبيرا، فلم ير الرسول وسيلة لحماية أصحابه سوى أن يطلب منهم الهجرة . ثم اضطر إلى مجابهة قوة

الكفار عندما نزلت آية تحثه على قتالهم . قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾[1] ، كما حثت آية في سورة الحج المسلمين على القتال قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾[2].

لذا أمر الرسول ﷺ المسلمين بالجهاد إنشادا لقوله عز وجل : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[3] ، وقال النبي ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ".

ويمكن تلخيص مشروعية الرسول ﷺ في قتال المشركين بأمرين :.

1 – الدفاع عن الدعوة الإسلامية وحفظ أرواح المسلمين .

2 – الدفاع عن المجتمع الإسلامي ضد العدوان الخارجي والفتن الداخلية وكان الجهاد ولا زال فرضا على كل مسلم يستطيع أداءه ومن قتل في سبيل الله فمأواه الجنة ، وقد زودت هذه العقيدة المحاربين بمعنويات عالية .

1 – إمارة الجيش وقيادته :

لمس الرسول ﷺ الحاجة – منذ أول غزوة غزاها – إلى جنود يحمون الدعوة المباركة ويردون عنها كيد المعتدين . إلا أن وقائع سيرته الطاهرة لا تشير إلى إلزامه نفرا من أصحابه بالتجنيد ، فقد كان (عليه السلام) يحض المؤمنين على القتال ويؤثر أن يصحبه في المعركة من أقبل على القتال طواعية وعن رضا ، فكان التطوع إذن هو الصفة الغالبة على جيش المسلمين في عهد النبي ﷺ .

تولى الرسول ﷺ قيادة الجيش بنفسه لما حباه الله من شجاعة وبأس وذكاء ، فقد كان شجاعا لا يهاب الموت يسير بين أصحابه ويمارس الحرب ممارسة تدل على علو شأنه فيها ،

(1) سورة البقرة : الآية 190 .
(2) سورة الحج : الآيتان 39 ، 40 .
(3) سورة النساء : الآية 84 .

وتجلت مواهب النبي ﷺ العسكرية وقيادته الفذة في معركة بدر ثم تولى قيادة المسلمين في ست وعشرين غزوة .

وعندما كان الرسول ﷺ يختار قائدا عسكريا يدعوه إليه ويعقد له لواء على رمح طويل ينشره أثناء مسيرته إلى المعركة ، وغالبا ما كان القائد يستلم اللواء من يد الرسول ﷺ ثم يركزه في المسجد النبوي لينضوي حوله الراغبون في الجهاد ، وقد عد الخلفاء الراشدون عقد اللواء بمثابة تعينه لأمرة كتيبة معينة من الجنود وعلى ذلك مضى الأمويين . وكان النبي ﷺ " يؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب ". وبهذا نفسر اختياره لقادة سراياه في الحرب .

وفي عهد الخلفاء الراشدين كان الخليفة بحكم ولايته العامة هو القائد العام للجيش لكن الخلفاء لم يقوموا بهذه المهمة دائما بل أنابوا عنهم أهل الكفاءة والشجاعة في القيادة العسكرية، وفي الولايات الإسلامية كانت قيادة الجيش بيد الولاة أو نوابهم ، وكان الخليفة على علم بأخبارهم بوساطة عمال البريد . وفي بعض الأحيان كان الخليفة يقود الجيش بنفسه كما فعل هارون الرشيد . ولما ضعفت الخلافة العباسية وتعددت الدولايات المنفصلة ظهرت ألقاب جديدة تدل على قائد الجيش مثل : أمير الأمراء وأمير الجيش وقائد القوات ، وبقي الخليفة نظريا هو القائد الأعلى لجيش المسلمين .

2 – رواتب وأعطيات الجيش :

احتاجت الدولة الإسلامية بعد حركة الفتوح إلى جيش كبير دائم يكون على استعداد في أيام الحرب والسلم معا ، وقد دفعت الحاجة الخليفة عمر إلى إنشاء ديوان الجند سنة 20هـ لتسجيل أسماء المقاتلين ومقدار عطائهم (مرتباتهم) وابتدأ بقريش وبطونها وأفخاذها ، ثم القبائل الأخرى كلٌ على انفراد ليعلم عدد المقاتلين من كل قبيلة كما شمل الموالي بالعطاء ، فكان عطاء الجندي يتراوح ما بين 500 – 1000 درهم ، وقد روعي في العطاء القرابة من الرسول الله والسابقة في الإسلام ، فكان لأهل بدر 5000 درهم سنويا ولأهل الشام وأهل القادسية 2000 درهم وللذين أسلموا بعد القادسية واليرموك 1000 درهم ، وبلغ عطاء القائد ما بين 7000 – 1000 درهم سنويا ، كما نال الجندي جراية دون مقابل ، كما تأخذ زوجة الجندي وأطفاله عطاء من الدولة .

وفي عهد عثمان بن عفان ﷺ فتحت فارس وأذربيجان وأثرت الدولة ثراء عظيما فارتفع راتب الجندي مائة درهم عن ما كان عليه وبلغت أموال بعض القواد أرقاما خيالية ، فكان للزبير بن العوام أرضا في المدينة بيعت بعد وفاته بمبلغ ألف ألف ألف درهم وست مائة ألف درهم ، واستمرت رواتب الجند في عهد علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) عما كانت عليه في عهد عمر .

وعندما بلغت الدولة الأموية ذروة قوتها ومال المسلمون إلى العمل وترك أكثرهم الجندية لجأت الدولة إلى التجنيد الإجباري ، وكان الحجاج بن يوسف أول من طبقه خلال خلافة عبد الملك بن مروان ، ولم تكن رواتب الجند الأمويين ثابتة بل تزيد وتنقص تبعا للفتن الداخلية والظروف السياسية ، وكانت الدولة ترى أن لزاما عليها الاستجابة لمطالب ومطامع الجند في زيادة عطائهم بعض الأحيان ، وكان من عادة الخلفاء الذين يتولون الخلافة زيادة رواتب الجند . فقد بلغ عطاء الجندي في عهد معاوية ألف درهم ، وزاد عبد الملك بن مروان عطاء الجند وكذلك فعل الوليد بن يزيد ، ومن الجدير بالذكر أن مرتبات الجند في العصر الأموي زادت عن رواتب الخلفاء الراشدين .

وفي العصر العباسي كثرت الجيوش وتضخمت أعدادها فلم تعد الحاجة ماسة إلى إغراء الناس بالتجنيد فتضاءلت رواتب الجند باستثناء المرابطين على الثغور الذين دفع لهم الضعف تعويضا عن اغترابهم ، وكانت الأزمات التي تواجه الدولة العباسية تدفع الخلفاء إلى صرف رواتب عدة أشهر مقدما فضلا عن توزيع الأرزاق بمناسبة بيعة كل خليفة جديد .

وحينما ضعفت الدولة العباسية وظهرت الدويلات المستقلة أصبح لكل منها جيشه الخاص بها وتطلب تأمين مرتباتهم أساليب وطرق جديدة ، لذا عمد الخلفاء والحكام إلى منح أقاليم ومقاطعات كاملة إلى الأمراء شرط أن يقدموا للحكام جنودا مجهزين بالأسلحة والخيول عند الحاجة ، كما منح كبار القادة العسكريين حق جمع الضرائب فأدى ذلك إلى ظهور (الإقطاع العسكري) في العصر السلجوقي وكان متوليه يدفع جزءا من الضرائب التي يجمعها لصالح خزينة السلطان ، وبلغ نظام الإقطاع ذروته في عهد الأيوبيين والمماليك .

3 – تشكيلات وأقسام الجيوش العربية الإسلامية :

رتب الرسول ﷺ المقاتلين المسلمين العرفاء ليتعرف بهم على أحوال المقاتلين ، وعريف كل قوم هو زعيم والواسطة بينهم وبين الأمير ، وقد حذر الرسول العرفاء من الوقوع في الخطأ والتعدي وظلم الرعية فكان على العريف أن يكون أمينا صادقا عادلا ، وكان لكل عريف عشرة جنود ، كما جعل الرسول ﷺ النقباء ليشرفوا على العرفاء ويحلون مشاكلهم ، وقد اختار الرسول ﷺ ليلة العقبة الثانية اثني عشر نقيبا .

أضفى عمر بن الخطاب على الجيش تنظيمات كثيرة أخذ أكثر أصولها عن الرسول ﷺ وأدخل عليها بعض التعديلات واقتبس بعضها عن الفرس والروم مما يلائم حاجات المسلمين ، فاستمر على نظام (العرافات) ثم جمع عدد من (العرافات) في (سُبُع) وجعل عليهم (أمير الأسباع) الذي يأخذ العطايا ويدفعها إلى النقباء والعرفاء ليعطوها بدورهم إلى الجنود ، كما وضع (أمير الكردوس) على كل ألف جندي ، و (أمير الجيش) على العشرة آلاف أو يزيد

وكان العرب يسمون الجيش خميسا لأنهم كانوا يقسمونه إلى خمسة أقسام الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة والقلب والأخير هو المكان الذي يكون فيه الخليفة أو الأمير ، وقد قسم الرسول ﷺ جيشه على هذا التقسيم ، فعندما فتح الرسول ﷺ مكة فرق جيشه فجعل الزبير ابن العوام على الميسرة وسعد بن عبادة على الميمنة .

ومنذ العصر الأموي ترك العرب تنظيم الجند في صفوف تجري في مقدمتها المبارزات الفردية التي كانت مجالا لإبراز الشجاعة والمفاخرة ، مع الاحتفاظ بتقسيم الجيش إلى خمسة أقسام . الميمنة والميسرة والقلب والمقدمة والمؤخرة ، وكان على كل قسم مواجهة ما يقابله لدى العدو ، أي أن الميمنة تواجه ميسرة العدو وهكذا ، وأحيانا يقع خلل في أحد هذه الأقسام دون البقية ، وكثيرا ما يحاول الفرسان الوصول إلى القلب لإحداث بلبلة في قيادة العدو وجيشه ، ويحمل كل قسم من الأقسام الخمسة راياته الخاصة مع راية كبرى تتقدمهم كدليل تتجمع حوله الصفوف وتتراجع إليه عند الضرورة ، ثم استبدل مروان بن الحكم آخر الخلفاء الأمويين نظام الصفوف بنظام الكراديس .

وظهرت في العصر الأموي بعض المصطلحات الفنية الجديدة (كالكتيبة) ، وهي وحدة خيالة تتكون من 200 جندي ، و(الحقب) وهي وحدة خيالة صغيرة تتكون من ثلاثين

شخص ، و(السرية) وهي وحدة هجوم تتكون من ألف مقاتل ، و(العيون) وهي الوحدات الاستطلاعية .

ونجد بجانب المقاتلين من الفرسان والرجالة طوائف أخرى كثيرة وموظفين يقومون بخدمة الجيش وتسهيل مهمته ، منهم النفاطين وضاربي المنجنيق والقضاة والأطباء والمؤذنين والقراء والحمالين والنجارين والخزنة والمترجمين والوعاظ وغيرهم . كما برع العرب في العصر الأموي في النقل العسكري فنقلوا الجند وعوائلهم ومؤونهم وآلات الحصار على ظهر الجمال والبغال في حين خصصت الخيول للقتال ، وأقاموا وحدات شبه نظامية خفيفة تتألف من الخيالة في الربط والحاميات والحصون التي رابطت في المراكز الأمامية للدولة الإسلامية .

واستمر تقسيم الجيش العربي الإسلامي في العصر العباسي بأقسامه الخمسة ، ولكن ضرورات المعركة وطبيعة أرضها كانت تحتم بعض التعديل في شكل التعبئة ففي المناطق الجبلية ينظم الجنود في مجموعات صغيرة تعرف بالكراديس .

4 – الأسلحة والتدريب في الجيوش العربية الإسلامية :

كان العرب قبل الإسلام يعيشون حالة حرب دائمة بسبب فقدان السلطة المركزية العليا، وقد أدى ذلك إلى تدريبهم الدائم على القتال واهتمامهم الكبير بالأسلحة التي صنعوها أو اشتروها من البلدان المجاورة فاقتنوا السيوف والسهام وغيرها ، واتخذ الرسول لجيشه من العدة ما كان معروفا في زمنه من سيوف ورماح ودروع . وقد أمره الله تعالى بالاستعداد الكامل للحرب في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾[1] . وتزخر كتب الحديث والسير باستعداد النبي ﷺ وبعث البعوث لجمع وشراء الأسلحة والخيل استعدادا للجهاد ، فقد بعث الرسول ﷺ سعيد بن زيد إلى نجد لشراء الخيل الأصيلة والسلاح الجيد .

واهتم بعض الخلفاء الأمويين كمعاوية بن أبي سفيان وهشام بن عبد الملك بتجهيزات جيوشهم العسكرية والحربية وتقوية الثغور الأمامية للدولة .

ويمكن تصنيف أسلحة الجيش العربي الإسلامي إلى نوعين :

---

(1) سورة الأنفال : الآية 60 .

أولا : أسلحة القتال الفردية (الخفيفة) وتشمل السيوف والرماح والفؤوس والنبوت والدبابيس والأقواس والسهام .

ثانيا : أسلحة القتال الجماعية (الثقيلة) كالمنجنيق والدبابة والقسي الثقيلة وأبراج الحصار . وسنفصل بإيجاز كل نوع منها :

أولا : أسلحة القتال الفردية (الخفيفة)

أ – السيف : وهو أكثر أسلحة العرب شيوعا ، وأعظمها شأنا ، وهو أنواع منها : اليمانية والهندية والمشرقية والبصرية ، وقد شرفها الرسول ﷺ بقوله : " الجنة تحت ظلال السيوف " .

ب – الرمح : وهو من أسلحة الطعن المشهورة عند العرب وقد صنعوه من بعض الأشجار الصلبة ، وكانت الرماح في الجاهلية وفي صدر الإسلام تعقد برؤوسها الألوية (الأعلام) التي يحملها الفرسان في المواكب ، وفي الحرب يقاتل بها الفرسان على الخيل .

واشتهرت عند العرب أنواع عديدة أهمها : الردينية (نسبة إلى امرأة في الجاهلية تدعى ردينة اشتهرت بتثقيف الرماح) ، والسمهرية ، والبحريتية . وللرماح أحجام مختلفة منها القصير وهو أشبه بالعصا ويسمى النيزك ، والحربة ومنها الطويل ومنها المربوع والمخموس ، وإذا أفرط في طوله وزاد على عشرة أذرع سموه (الخطل) لاضطرابه في يد صاحبه وكان لا يحمله إلا الأشداء . وقد تفنن العرب في أساليب الطعان بالرماح ، وكانوا يتمرنون عليها بتسديد طعانهم إلى حلقة من الحديد ، وفي العصر العباسي أخذوا يميزون بين الطريقة الحجازية والطريقة الفارسية والرومانية ، وقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب كيف : تقول في الرمح ؟ فقال : " أخوك وربما خانك فانتصف " .

ج – القوس والسهم : القوس في الأصل عود من الشجر جبلي صلب يحنى طرفه بقوة ويشد فيهما وتر من الجلد أو العصب الذي يكون في عنق البعير ، ولا بد للأقواس من سهام يحتفظ بها الجندي في كنانته الجلدية ليرمي بها عن قوسه عندما يريد ، ومن أنواع السهام : (النشاب) ذات النصول المثلثة من الخشب ، ومنها (الجرادة) وهي قصيرة تطلق نحو الهدف بسرعة ، ومنها (النبل) المعروفة .

وقد حذق العرب في صناعتها واستعمال القوس والسهام سواء التي تطلق باليد أو بالرجل ، أو التي تشد من ركاب الخيل ، ولم يعد السهم مجرد عود رفيع من شجر صلب فقد سقوا نصله بالسم على طريقة الروم فأصبح سلاحا فتاكا رهيبا . وذكر الرسول ﷺ السهم والقوس أكثر من مرة وفي مناسبات عديدة فقال : " إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب في عمله الخير ، والرامي به و الممد به ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا "، وقال عليه السلام عن أهمية القوس : " ما سبقها سلاح إلى الخير قط " .

د – العصى : ومن الجند من يقاتل بالعصى فقط وبينهم الزنج والنبط والأكراد . وقال الجاحظ عن قتال الأكراد : " وأثقف (أمهر) ما تكون الأكراد إذ قاتلت بالعصى ".

هـ – الطبر : وهو سلاح يشبه الفأس أو البلطة برأس نصف مستدير .

و – الدبوس والفأس والخنجر والنبوت .

ثانيا : أسلحة القتال الجماعية (الثقيلة)

برع العرب في استخدام آلات الحصار لحاجتهم إليها ، وعندما اقتضت مجاهتهم للروم وغيرها من الأمم ، واقتضت ضرورات الأمن والحماية أن يبنوا الحصون والأبراج لمراقبة تحركات العدو . ومن أهم الأسلحة الجماعية :

أ – المنجنيق : وهو آلة تقذف الحجارة أو اللهب ويستعمل في دك الحصون والأسوار فهي بمثابة المدفعية في عصرنا ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الرسول ﷺ أول من استخدم المنجنيق في الإسلام ، وقد استعمله في خيبر ليلقى الرعب في قلوب اليهود ، كما استخدمه في حصار الطائف سنة 8 هـ . ويقال إن الصحابي سلمان الفارسي ﷺ صنعه للرسول ﷺ ، وعني عمر بن الخطاب ﷺ بصناعة المجانيق ، واستخدم المسلمون في عهده عشرين منجنيقا لفتح بلاد فارس واستخدمها خالد بن الوليد لفتح الشام –كما صنع عمرو بن العاص المجانيق في الفسطاط .

وتطور هذا السلاح فيما بعد وأدخلت تعديلات وتحسينات عديدة عليه في العصر الأموي ولم يستغن عنه في حملاتهم وحصارهم للمدن وفتح الأسوار ، وتعددت أنواع المجانيق وأشهرها : (ذو الزيار) و(العرارة) و(المقلاعي) والمنجنيق (العروس) الذي صنعه الحجاج

ابن يوسف الثقفي ، ويعمل لخدمته خمسمائة رجل ، واستخدمه محمد بن القاسم الثقفي في فتح مدينة (الدبيل) في السند (كراتشي حاليا) سنة 89هـ / 707م ، وصار المنجنيق في العصر العباسي سلاحا عاديا استخدموه في أغلب معاركهم وبخاصة عندما استخدموا قذائف النفط والنار الإغريقية ، ومن أشهرها فتح عمورية سنة 223هـ /837م .

ب – الدبابة والضبر : وهي برج من الخشب الصلب مغلف باللبود والجلود المنقوعة بالخل كي لا تحترق ، يثبت على قاعدة خشبية لها عجلات يدخلها الرجال ويحميهم سقفها من الرمي ليندفعوا إلى السوار ويثقبوها .

ويروى أن أول دبابة صنعت في الإسلام كانت في عهد الرسول ﷺ عندما حاصر الطائف ، ثم أدخل العرب عليها تحسينات كثيرة فأصبحت تتسع لعشرة جنود وتجر على ثماني عجلات ووضعوا على سقفها وجوانبها الخشب السميك والحديد والرصاص ، كما جعلوا للدبابات سلالم مستعرضة تنتهي إلى شرفات تقارب السور في الارتفاع فعندما تقترب الدبابة من السور يصعد الرجال منها إلى أعلى السور ليطردوا رماة الأعداء ، وتعد معركة عمورية 223هـ من أشهر المعارك التي استخدم فيها المسلمون الدبابات بعد أن صنع المعتصم أعدادا كبيرة منها .

ج – الكبش وسلالم الحصار : الكبش عبارة عن عمود مستدير من الخشب طوله عشرة أمتار يحمل في مقدمته رأسا من الحديد أو الفولاذ على شكل رأس الكبش بقرونه ، لذا سمي بهذا الاسم ، ويركب هذا الرأس الحديدي داخل برج خشبي ثم يتدلى من سطح البرج محمولا بسلاسل تربطه من موضعين وبه يصطدمون بالأسوار ويعملون على نقبها أو هدمها بمساعدة سلالم الحصار ، وقد استخدمه خالد بن الوليد في فتح أسوار دمشق .

5 – وسائل وأسلحة الدفاع العربية الإسلامية :

عرف المسلمون في حروبهم الأولى الدرع والمجن والدرقة كأسلحة دفاعية واستخدموا الحسك المشبك وحفروا الخنادق وبنوا الأسوار واعتنوا كثيرا بهذه الوسائل الدفاعية ، لأن الإسلام حرم عليهم الاعتداء على الغير لكن أباح لهم رد المعتدين . ومن أشهر أسلحة الدفاع عندهم :

1 – الـــــدروع : وهو قميص منسوج من حلق حديدية رفيعة ، وهي على عدة أنواع منها (السابغة) إذا غطت الجسم كله بأكمامها الطويلة ، و (المغفر) وهي حلقات معدنية تنسج على قدر الرأس وتغطي الوجه ، و(الجوشن) وهي درع يتألف من صدر لا ظهر له ولا أكمام ، و (البتراء) إذا كانت قصيرة بلا أكمام ولا تبلغ أسفل الركبة ، و(الخوذة أو البيضة) وهي غطاء واق للرأس وتصنع من الحديد .

وكان شجعان العرب يتخففون من لبس الدروع اعتدادا ببطولاتهم واستهانة بالموت ، فقد اكتفى الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بدرع لا ظهر له ومنهم من يترع الدرع كضرار بن الأزور ، وكان العرب يقدمون الدارعين في صفوفهم الأمامية ، ونظرا لحب العرب لخيولهم فقد اهتموا بوقايتها خلال الحرب ، لذا ألبسوها (التجانيف) وهي دروع حديدية تغطي أجسادها وتحميها من ضربات الأعداء .

2 – الترس والمجن : استعمله المسلمون لحماية أنفسهم من سهام ورماح وسيوف العدو ، وقد صنعوها من الخشب أو الحديد ولصقوا عليها الجلد ويرصعوها بالمسامير ، وكانت على أشكال متعددة فمنها : المحدب المنحني الأطراف ، ومنها المحضر المستطيل الذي صنع بأحجام وأوزان مختلفة فمنها : الصغير أو الكبير أو الخفيف .

3 – حفر الخنادق : كان الرسول ﷺ أول من حفر في غزوة الأحزاب (الخندق) بإشارة من سلمان الفارسي عندما خطه الرسول وقطع لكل عشرة من الصحابة أربعين ذراعا ، ثم أدخل المسلمون فيما بعد تحسينات وإصلاحات عديدة على الخنادق وعرفوا الخنادق المائية على طريقة الروم ، وكثيرا ما ضربوا خندقا حول خندق العدو ليجبروه على التسليم ، كما حفروا خنادق دائمة حول بعض المدن والثغور وكثيرا ما خندقت سلطات البصرة والكوفة على نفسها خوفا من الثوار .

4 – الحسك الشائك : وهو من وسائل الدفاع التي أتقنها المسلمون وكانوا يصنعونه من حسك السعدان ، وهو شوك صلب ذو ثلاث شعب تنثر على الأرض لعرقلة خيل وإقدام العدو عند تقدمها أو تسللها ليلا ، وكان الرسول ﷺ أول من استعمل الحسك الشائك أثناء حصار الطائف ، ويبدو أنهم صنعوه فيما بعد من أصابع حديدية مدببة مشعبة وبثوه في بعض حروبهم حول الخنادق .

6 – أصناف الجيش واختصاصاته :

تألف الجيش الإسلامي من أصناف عديدة أهمها :

1 – المشاة : ويحملون الأسلحة الخفيفة كالسيوف والرماح والقسي والسهام ويرتدون الدروع ، وكانوا يعملون على إيقاع الاضطراب في صفوف العدو .

2 – الخنابلة : وهم الفرسان على خيولهم وعليهم تقع مسؤولية الاستطلاع والإغارة واستثمار النصر والسعي لخرق صفوف العدو والإحاطة به . وقد برع الخنابلة العرب بخفة الحركة وسرعة الكر والفر ، وقد اعتنى المسلمون بالخيل واقتنائها . وقال الرسول ﷺ : " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ".

3 – النشابة : وهم رماة السهام والقوس والنشاب ، ومن واجبهم الدفاع عن الممرات الإجبارية الهامة والتمهيد للقتال .

4 – صنف الدبابات : كانوا يهاجمون حصون العدو بدباباتهم الخشبية ويختبئون وراءها ، ويعمل معهم المهندسون الذين ينشرون حسك الحديد، وتحديد الدروب الخاصة عند الضرورة.

5 – النفاطون : وهم فرقة واجبها قذف النفط على حصون العدو وقلاعه وإحراق سفنه وهي من الفرق المهمة ، وقد استخدم العرب النفط في حروبهم بعد أن اقتبسوا من البيزنطيين النار اليونانية ، وهي عبارة عن تركيب كيمياوي أساسه النفط الذي يستخدمه النفاطون في إشعال الحرائق في جبهة العدو .

6 – رماة المنجنيق : ومهمتهم التمهيد بالرمايات التدميرية أو المحرقة .

7 – العيارون : وهم رماة الحجارة الكبيرة أو قطع الحديد من المقاليع على الحصون والأسوار لإحداث المنافذ فيها .

8 – الفدائيون : كان في الجيش الإسلامي في جميع أطواره نفر من الفدائيين الذين يقومون بأعمال جريئة داخل صفوف العدو ، ويعد أولهم علي بن أبي طالب الذي أفدى الرسول وبات في فراشه ، كما أفدى أنس بن النصر الرسول ﷺ بنفسه يوم أحد وقاتل حتى قتل .

9 – الأطباء والمضمدون : ومهمتهم الاعتناء برجال الجيش ورواحله وتضميده ، وفي أحيان كثيرة اشتركت النساء في تضميد الجرحى .

10 – النجارون والمهندسون والجواسيس (العيون) الذين كانوا يتنكرون في هيئة التجار أو الباعة ليجلبوا المعلومات عن جيش العدو وعدته .

ثالثا : تطور البحرية الإسلامية

كان للعرب اتصال بالأمم المجاورة منذ العصور القديمة فقد ازدهرت التجارة البحرية بين شبه الجزيرة العربية ومصر والهند ، واشتهر أهل عمان والبحرين بالملاحة البحرية ، كما تعامل العرب تجاريا مع الأحباش عن طريق البحر ، وعرف أبناء الشمال الإفريقي التجارة مع الأمم الأخرى وبخاصة أيام الفينيقيين .

ولما ظهر الإسلام وبلغت حركة التحرير العربية سواحل البحر الأبيض المتوسط شعر المسلمون بأهمية الأسطول لحماية شواطئهم من غارات الأسطول البيزنطي الذين كانوا يشنون غارات على المسلمين بين الحين والآخر ، فكانت العناية بالأسطول إذن ضرورة أملتها الصراعات المتوالية مع الروم من أجل نشر الإسلام والدفاع عن كيان الأمة الإسلامية .

أبدى بعض العرب المسلمين ميلا لركوب البحر ، وكان عثمان بن العاص الثقفي والي البحرين أول من قام بغارة بحرية على ساحل الهند ، كما قام خلفه العلاء بن الحضرمي سنة 17 هـ بالعبور بحرا إلى بلاد فارس ومعه اثنا عشر ألفا من المسلمين وعاد بغنائم كبيرة رغم فقدان بعض سفنه ، وقد أغضب عمله الخليفة عمر بن الخطاب غضبا شديدا فعزله لأنه لم يستأذنه ، كما لام عمر عرفجة بن هرثمة الأزدي لقيامه بغزو عمان .

ولما شاهد والي الشام معاوية بن أبي سفيان أسطول البيزنطيين رغب أن يكون لدى المسلمين مثله ، فطلب من عمر بن الخطاب أن يأذن له بغزو الروم بحرا لقرب سواحلهم من الشام ، ولم يشأ عمر السماح لمعاوية في ذلك قبل أن يتعرف على البحر فكتب إلى عمر بن العاص والي مصر طالبا منه وصف البحر فقال له : " يا أمير المؤمنين إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين بالنجاة قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود إن مال غرق ، وإن نجا برق ". عندها رفض عمر ﷺ طلب معاوية قائلا :" لا والذي بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا ، وبالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم ".

وكان لرفض عمر ما يبرره وهو خوفه على أرواح المسلمين الذين لم يعهدوا ركوب البحر والقتال فيه ، وقوة أسطول الروم وتفننهم في علومه وممارستهم القتال في البحر .لكن تلك الأسباب لم تثن عمر عن الاهتمام ببناء أسطول حربي إسلامي ، فاتخذ سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر البيزنطيين على ثغور المسلمين فحصن السواحل ، ورتب المقاتلة ، وأقام الحرس ، ورمم الحصون واستخدم النيران للإنذار عن اقتراب العدو من السواحل .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان عاود معاوية مشروعه القديم بغزو الروم بحرا فاستأذنه عثمان بذلك فوافق مشترطا على معاوية : " أن لا ينتخب الناس ، ولا يقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ، وأن يصطحب معه امراته فأخته بنت قرظة وأن يترك جيشا يحرس السواحل ".

وقام معاوية في ولايته وخلافته بإنشاء دور لصناعة السفن في الإسكندرية وصور وصيدا بعد أن أحضر لها الأخشاب من لبنان واستعان بخبرات أهل الشام وأقباط مصر ، كما اتخذ معاوية بموافقة الخليفة عثمان قرارا بتعيين إمرة للأسطول العربي يتولى صاحبها الإشراف على الموانئ والمنائر ودور الصناعة والحملات الحربية البحرية ، وطبق معاوية مشروعه عمليا فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي الذي أبحر سنه 27هـ لغزو قبرص فصالح أهلها على أن يدفعوا جزية للمسلمين بلغت سبعة الآف دينار سنويا ، واشترط عليهم الوقوف على الحياد في الصراع العربي البيزنطي وأن يبلغوا المسلمين بنوايا البيزنطيين ، فكانت تلك أول غزوة بحرية في تاريخ العرب المسلمين .

شجع انتصار معاوية البحري الوالي عبدالله بن أبي سرح عامل عثمان على مصر على حرب الروم والانتصار عليهم في معركة ذات الصواري سنة 34هـ ، التي تحطم فيها الأسطول البيزنطي وتشجع العرب على ركوب البحر بثقة عالية وغدت سيطرة العرب واضحة في البحر الأبيض المتوسط .

1 – الأسطول الإسلامي في العصر الأموي :

لما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة أولع بإنشاء السفن الحربية وأراد غزو القسطنطينية عاصمة الروم ، ومن أجل ذلك قوى الثغور البحرية في مصر والشام وشحنها بالجند المدربين على القتال البحري وجهز أسطولا تألف من 1700 سفينة ، وعلى الرغم من فشل حملة

القسطنطينية سنة 48هـ حيث استخدم الروم للنار الأغريقية التي لم يعهدها المسلمون من قبل، لكنه أثبت للروم بأن عاصمتهم أصبحت مهددة من قبل الأسطول العربي الإسلامي . وفي سنة 49هـ شن البيزنطيون حملة بحرية على سواحل الشام وفتكوا بالمسلمين الأمر الذي حدا بمعاوية لإنشاء دار لصناعة السفن في عكا ونجح جنادة بن أمية في فتح جزيرة رودس سنة 52هـ ، وغزوا كريت بعد ثلاث سنوات ، كما أسس معاوية دارا للسفن في جزيرة الروضة بالفسطاط بمصر سنة 54 هـ لحماية سواحل مصر وتنشيط حركة الملاحة التجارية .

ومن المنجزات الأموية الهامة في المجال البحري إنشاء دار لصناعة السفن في تونس سنة 80 هـ في عهد عبد الملك بن مروان إثر هجوم بيزنطي ذهب ضحيته العديد من المسلمين لأن سواحلها كانت غير محمية ، لذا مد عبد الملك بن مروان واليه على إفريقية حسان بن النعمان الغساني بألف تقني من أقباط مصر مع أسرهم للعمل في بناء السفن ، كما أمر البربر بجلب الأخشاب لإنشاء السفن ، فكانت تلك أول دار متخصصة لصناعة السفن في الإسلام وكانت قاعدة مهمة ومنطلقا لمواجهة الروم في سواحل صقلية ورودس وسردينيا وكريت وغيرها من الجزر المتوسطية ، ولم يتوقف العرب عن شن الهجمات على سفن الروم ثم استخدم المسلمون النفط في حروبهم .

وفي عهد سليمان بن عبدالملك بلغ عدد سفن الأسطول الأموي 1800 سفينة ، وقد بعث أخاه مسلمة لفتح القسطنطينية برا وبحرا لكن الحملتان البرية والبحرية فشلتا ، وذلك لطول مدة الغزو والخدعة التي تعرض لها مسلمة والتي أدت إلى تدمير سفنه حيث لم تنج من الغرق سوى خمس سفن فقط ، فاضطر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة بعد وفاة سليمان سنة 99هـ أن يستدعي مسلمة بعد أن استنفر المسلمون لإرسال العدد والطعام والخيل لإخوانهم في بلاد الروم فرجعوا ، فكانت هذه الحملة آخر الحملات الكبرى التي قام بها المسلمون نحو بلاد الروم .

انقسمت البحرية الإسلامية في العصر الأموي إلى ثلاثة أساطيل مستقلة عمل كل منها في منطقة معينة وهي : أسطول مصر ، وأسطول سوريا ، وأسطول شمال إفريقيا . ويطلق على قائد كل أسطول لقب صاحب البحر أو أمير البحر . ومن أشهر أمراء البحر الأمويين في عهد معاوية : علقمة بن جنادة ت 50 هـ ، وفضالة بن عبيد ، كما تولى خالد بن كيسان إمارة البحر في عهد الوليد بن عبد الملك الذي أسره الروم خلال هجمات المسلمين على البيزنطيين ،

ويعرف رئيس الملاحين (بالربان) الذي يجب أن تكون له معرفة شاملة في تسيير السفن وعلوم البحر والأنواء والقياسات ومطالع النجوم ، ويلي الربان في الوظيفة (الديدبان) وهو الرقيب الذي يقف في مقدمة السفينة ليتطلع أحوال البحر في حالة السلم وأخبار العدو في حالة الحرب ، وهناك (المنادي) ومهمته تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين ، و (الدليل) الذي يرشد السفن عند دخولها أو المرور على السواحل الوعرة والمضايق .

2 – الأسطول الإسلامي في العصر العباسي والدويلات المستقلة :

ضعف الاهتمام بالبحرية في العصر العباسي مع ازدياد اهتمامهم بالتجارة مع الشرق وبسبب استقلال بعض الدويلات عن جسم الدولة العباسية كالأدارسة والأغالبة ، ففي عهد الرشيد عهد بسواحل الشام إلى حميد بن معيوف سنة 190هـ الذي غزا جزيرتي قبرص وكريت ، كما اهتم العباسيون بإنشاء دور صناعة السفن في أحواض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي ، فقد أمر المتوكل ببناء الحصون على ساحل البحر المتوسط ليعزز الدفاع عنها بعد غزو الروم لمدينة دمياط سنة 247هـ ، ويلاحظ ازدياد اهتمام العباسيين في المحيط الهندي والخليج العربي مما أدى إلى الاستقرار السياسي ونشاط التجارة مع شرقي آسيا والصين .

واهتمت الدويلات الإسلامية بالبحرية ففي عهد الطولونيين عمل أحمد بن طولون منذ توليه مصر سنة 254هـ على تقوية القواعد والحصون الساحلية وجدد الاهتمام بدار صناعة السفن في جزيرة الروضة ، وقام بصنع مائة مركب حربي وعددا من السفن ، كما اهتم بالسواحل والثغور الشامية وحصنها لينطلق منه أسطوله لمهاجمة بحر إيجة وموانئ اليونان ، وقد كافأت الخلافة العباسية ابن طولون على نشاطاته البحرية ضد الروم فولته إقليم العواصم والثغور ، علاوة على مصر والشام وعند وفاته ترك لابنه خمارويه ألف قطعة حربية كبيرة وصغيرة ، كما عنى الأخشيديون في مصر بالأسطول فأنشأوا المراكب الحربية ونقلوا دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى الفسطاط سنة 325هـ .

وزاد اهتمام الفاطميين بصناعة السفن الحربية فأنشاوا دورا لصناعة السفن في الإسكندرية والفسطاط ودمياط وطرابلس وسوسة وبلغ عدد المشتغلين بالأسطول حوالي خمسة آلاف رجل يتزعمهم أمير الأسطول وعشرة من القواد ، كما نشّطوا الاتصال البحري بين المشرق والمغرب – أي بين بلاد الشام ومصر والمغرب وصقلية – وأنشأوا للأسطول ديوانا

عرف بديوان (الجهاد أو العمائر) ، وتولى الأسطول الفاطمي مهمة التصدي للسفن البيزنطية المعتدية وقام بطرد الروم من أطراف بلاد الشام الشمالية ، ثم أنزل أسطولهم هزيمة ماحقة بالأسطول البيزنطي في مينائي صور وطرابلس .

وقد بلغ الأسطول الفاطمي حوالي 600 قطعة بحرية مختلفة الأجناس ثم تناقص عددها إلى ثمانين شونة وعشر مسطحات ، وحينما ظهر الخطر الصليبي المتمثل في إغارتهم على سواحل الشام والاستيلاء عليها منذ 493هـ ، حاول العرب رد هذا الخطر الداهم إلا أن الخطر ازداد نتيجة للضعف الذي دب في جسم الدولة الفاطمية .

واستمر الاهتمام بالأسطول في العصر الأيوبي إذ خصه صلاح الدين الأيوبي بعناية وأنشأ له ديوانا خاصا يسمى (ديوان الأسطول) وعرف قائده بـ(صاحب الأسطول) ، وقد أمره ألا يبارح البحر وكتب إلى جميع الأعمال المصرية والشامية بتلبية طلباته ورصد الأموال اللازمة له والتي بلغت حوالي ثمانية وخمسين ألف دينار ، وقد حقق الأسطول الأيوبي انتصارات باهرة على الصليبيين في مواقع حربية عديدة في موانئ الشام ، لكن حالة الأسطول الأيوبي تدنت كثيرا بعد وفاة صلاح الدين ، وأخذ الاهتمام بالأسطول يرتبط إلى حد بعيد بمدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل الإسلامية ، ويتضح ذلك في أيام السلطان الكامل وابنه الصالح بسبب الهجمات الصليبية .

وفي العصر المملوكي ازدادت العناية بالأسطول لمواجهة الصليبيين في البحر المتوسط وبخاصة في قبرص ، وبدأ الظاهر بيبرس يشرف بنفسه على صناعة قطع الأسطول في جزيرة الروضة منذ سنة 1260 م ومنع الناس من التصرف فى الأخشاب للإفادة منها في إصلاح السفن في الإسكندرية ودمياط والفسطاط ، واستطاع بأسطوله الضخم رد خطر المغول الذين كانوا يغيرون على سواحل بلاد الشام وهزيمتهم في سواحل يافا أو الطاكية ، ثم هزم الصليبيين سنة 1291م ، وأخرجهم من آخر معاقلهم في عكا وطهر بلاد الشام منهم .

وحرص السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على صناعة أسطول قوي في الفسطاط سنة 692هـ تألف من ستين سفينة جهزت بالآلات الحربية ، كما اهتم أخوه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالبحرية وبنى أسطولا في الفسطاط سنة 702هـ غزا به جزيرة (أرواد) . وقد بلغت ذروة العناية بالأسطول أيام السلطان الأشرف شعبان سنة 767هـ أعقاب تعرض الإسكندرية لغارة ملك قبرص فأمر ببناء مائة سفينة في عام واحد ، وقام السلطان الأشرف

برسباي باحتلال قبرص سنة 829هـ وحمل ملكها أسيرا إلى مصر ثم آلت تبعية قبرص إلى مصر . لكن الأسطول المملوكي أصابه الأهمال أواخر حكمهم وبخاصة بعد ظهور البرتغاليين ، ثم جاءت الضربة القاضية عندما انتصر العثمانيون على المماليك في مصر سنة 923هـ / 1517م في عهد السلطان العثماني سليم الأول .

3 – صناعة السفن العربية الإسلامية :

صنع العرب سفنا بأنواع مختلفة وأسماء متعددة تبعا لأشكالها وحجومها وهياكلها ومن أشهرها : البغلة ، والقنجة ، والجهازي ، وتفنن العرب في صنع سفنهم وزخرفتها وكانت لها أشكال الحيوانات كالأسد والفيل والفرس ، ويتكون هيكل السفينة الأمامي من المقدمة التي وضعت فيها حديدة طويلة حادة تسمى اللجام أو الفأس لتهشم مركب العدو إذا صدمته وتغرقه ،وصدر السفينة (الجؤجؤ) ، والدقل وهو سهم السفينة ، والمرساة (الأنجر) ، والدفة وهي التي تسيرها وتحركها ، وتلون الأشرعة بعض الأحيان باللون الأزرق لتنسجم مع لون الماء كي لا تظهر من بعيد للعدو .

وصنعت هياكل السفن من خشب أشجار الصنوبر أو البلوط واللبخ والأرز اللبناني وبعد بنائها تكسى ألواحها بالقار أو الشمع ، كما علقوا حولها من الخارج الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب لمقاومة اشتعالها بالنفط .

واختلفت طريقة صنع السفن تبعا للبحار التي تستخدم فيها فجعلوا لكل بحر ما يناسبه من أنواع الخشب لتقاوم التيارات والأمواج والصخور . فسفن البحر الأبيض المتوسط كانت كبيرة وصنعت من شجر الأرز الذي جلب من لبنان والأناضول ، وكانت ذات دفتين واستخدموا المسامير في صنعها لتثبت ألواحها وربط أجزائها ، كما صنعوا سفنا خاصة تعمل في البحر الأحمر والمحيط الهندي من خشب الساج وهو من أحسن الأنواع وأكثرها مقاومة للمؤثرات البحرية وجلبت أخشابها من مصر وعمان وبلاد فارس ، واستخدم الفراء والليف والحبال في تثبيتها ، ولم تستخدم المسامير لأن مياه البحر الأحمر المالحة تؤثر في الحديد وتصدأ بسرعة ، ولضمان عدم تحطيمها في حالة ارتطامها بالصخور المرجانية الكبيرة .

4 – أنواع السفن العربية الإسلامية :

تعددت أنواع السفن الحربية والتجارية العربية ، ومن أشهرها :

1 – البوارج : وهي السفن الحربية الكبيرة .

2 – الشونة : وهي مراكب حربية كبيرة يخدمها (140) مجداف ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع عنها ، وتحوي صهاريج لحفظ الماء والطعام .

3 – الجفن : وهي سفينة حربية كبيرة الحجم .

4 – البسطة: وهي سفن كبيرة تتألف من عدة طبقات وتتسع لأكثر من سبعمائة مقاتل، وكانت تحمل المجانيق .

5 – المسطح : وهي من أكبر سفن الأسطول الإسلامي ، ويكون المقاتلة في الأعلى والمجدفون تحتهم .

6 – الحراقة : وهي سفن فيها مرامي للنيران والمجانيق، وتتسع لمائة مقاتل ومائة مجداف .

7 – الشلندي : من المراكب الكبيرة المسطحة ، وتستخدم للنقل .

8 – الطراد : وهي سفن مخصصة لنقل الخيل والجنود والسلاح ، وهي سريعة الحركة .

9 – البغلة : وهي ذات مؤخرة مربعة الشكل حمولتها أكثر من خمسين طنا .

10 – الغراب : وهي مراكب سريعة شكلها يشبه رأس الغراب .

11 – الشذا : وهي نوع من السفن العباسية الصغيرة .

12 – السميرية : وهي من السفن الحربية النهرية والبحرية السريعة .

5 – أسلحة الأسطول وفنون القتال البحرية :

يبدو أن قتال العرب في البحر أيام ولاية معاوية كان قتالا عربيا وذلك لعدم معرفتهم بالبحر وأساليبه القتالية ، فقد قاتلوا على طريقة القتال البري . وفي وصف الطبري لمعركة ذات الصواري ما يدعم قولنا ، إذ يقول في هذا الصدد :

" إنهم ربطوا السفن العربية إلى السفن البيزنطية ، وتواثب الرجال على الرجال يقتتلون بالسيوف والرماح ويتواجأون بالخناجر حتى صار ماء البحر ممزوجا بالدم ، وإن الدم قد غلب عليه ، وإن الأمواج قد طرحت جثث القتلى ركاما ".

وكانت السفن الحربية العربية على نمط السفن البيزنطية وفي كل واحدة منها مالا يقل عن خمسة وعشرين مقعدا للتجديف ، وفي كل واحد من ظهري السفينة الأسفلين يجلس على المقعد رجلان على المقاتلة ، ثم تطورت أسلحة العرب وتفننوا في صنع الأسلحة الخاصة بالقتال في البحر . ومن أشهر الأسلحة التي استخدمها العرب في أساطيلهم الحربية :

1 – الكلاليب : وتصنع من الحديد وتربط في نهاية سلاسل قوية ، تستخدم لجذب مراكب العدو ليسهل العبور إليها بعد الالتحام بها بواسطة السلالم .

2 – السلاسل : ذات الرمانات الحديدية التي تسمى (الباسليقات) ، وتستخدم في القتال الالتحامي .

3 – التوابيت : وهي صناديق خشبية مفتوحة من أعلاها تنصب في أعلى السارية ، ليلقي بها الجنود الحجارة والنار على سفن العدو .

4 – اللجام : وهو آلة حادة كالفأس تقع في مقدمة السفينة ، لتهشم سفن الأعداء ويغرقها .



مصادر ومراجع الفصل الرابع

1 – القرآن الكريم .

2 – د. إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر النبوي ، دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، 1990 .

3 – د. إبراهيم سليمان الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1997 .

4 – ابن الأثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الأجزاء الثاني والرابع والخامس ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 .

5 – ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، الجزء الأول ، القاهرة ، 1328 .

6 – ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 .

7 – ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، الطبعة الرابعة ، الجزءان الأول والثاني ، بيروت ، 1971 .

8 – أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1964 .

9 – د . أحمد عبد الرزاق أحمد ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الجزء الأول، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1990 – 1991 .

10 – د. أحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامي في مصر والشام ، أبو ريدة ، بيروت ، 1967 .

11 – البكري ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز ، المسالك والممالك ، لامكان ، 1965 .

12 – البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وأخيه عمر ، الجزء الأول ، بيروت ، 1957 .

13 – الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، الجزء الثالث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

14 – د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزءان الرابع والخامس، مكتبة النهضة العربية ، بغداد ، 1980 .

15 – د. حسن إبراهيم وعلي إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ، القاهرة ، 1962 .

16 – د. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .

17 – السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ،القاهرة ، 1966 .

18 – د. شوقي أبو خليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1993 .

19– د. صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

20 – الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء الثالث والرابع والخامس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .

21– د. عبدالحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ، 1995 .

22 – د. علي حسين الخربوطلي ، الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975 .

23 – القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ، د. ت.

24 – محمود أحمد سليمان ، الجيش والقتال في صدر الإسلام ، عمان ، 1987 .

25 – المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982 .

26 – د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت، 1975 .



الفصل الخامس

النظام الاجتماعي في الدولة العربية الإسلامية

أولا : أسس المجتمع العربي الإسلامي

1 - امتزاج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات الأخرى بعد الفتح العربي الإسلامي .

2 - نتائج الاندماج والامتزاج .

ثانيا : عناصر المجتمع العربي الإسلامي

1 - العرب . 2 - الموالي . 3 - أهل الذمة . 4 - الرقيق .

ثالثا : طبقات المجتمع العربي الإسلامي

1 - طبقة الحكام . 2 - طبقة العلماء والفقهاء . 3 - التجار .

4 - الحرفيون والصناع وأرباب المهن . 5 - الطبقة العامة . 6 - الفلاحون .

رابعا : المجالس الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي

1- مجالس الطرب والغناء. 2 - مجالس القصص والقصاص. 3 - مجالس الوعاظ.

خامسا : العادات والتقاليد الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي

1 - الأسرة العربية الإسلامية . 2 - المساكن والدور . 3 - الطعام والشراب .

4 - وسائل التسلية . 5 - الأعياد والاحتفالات في المناسبات .

6 - الملابس والأزياء .

أولا : أسس المجتمع العربي الإسلامي

1 – امتزاج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات الأخرى بعد الفتح العربي الإسلامي :

لما خرج العرب من جزيرهم بعد الإسلام كان من الطبيعي أن يشعروا بكيانهم ، ويتطلعوا إلى العالم المحيط بهم خارج الجزيرة العربية فصرعوا الفرس والإغريق والرومان وأقاموا دولة عظيمة امتد سلطانها من قلب بلاد الهند إلى شواطئ المحيط الأطلسي ، وكانت شريعة الله وسنة رسوله وفنون العرب ولغتهم وآداهم الأصلية تثبت أصولها أينما حلت بعد الفتوح الإسلامية .

وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الأمم الأخرى ، ذلك أن العرب أنشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من إقناع أمم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم . ومن الجدير بالذكر أن الإسلام أتاح بمبادئه الكريمة كالتسامح والحرية والانفتاح على الشعوب الأخرى التي كانت خاضعة لفارس وبيزنطة ، لذلك حرص العرب المسلمون الفاتحون على ترك أهل البلاد المفتوحة على دياناتهم ، ولم يرغموهم على اعتناق الإسلام ماداموا انضووا تحت لواء الإسلام ، فقضت هذه المبادئ على ما يخالف الدين الإسلامي واختلطت بالتقاليد الأخرى فعدلتها لتتماشى مع الفكر الإسلامي ، وقد أعطى الإسلام في تشريعاته هذه الفرصة للوفاق والامتزاج الحضاري .

لقد خرج العرب الفاتحون من الجزيرة العربية بعد الإسلام يحملون معهم مايلي :

1 – ما كان عندهم من تراث في اليمن وحضر موت والحجاز وعمان من أنظمة الري وبناء المدن ومعارف في الفلك والطب والزراعة والتجارة قبل الإسلام .

2 – اللغة العربية التي تتمثل بلاغتها في الشعر الجاهلي ، وبخاصة شعر المعلقات المشهورة في الحكم البليغة والأمثال السائرة وخطب الخطباء .

3 – التعاليم الإسلامية الجديدة التي جاء بها الإسلام ، وتتمثل في القرآن الكريم الذي عالج مشاكل العرب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، كما تتمثل في سنة

رسول الله ﷺ من أحاديث وأعمال وتقريرات وفي الفقه الإسلامي الذي شارك فيه الخلفاء والصحابة والتابعين في البلاد الإسلامية كافة .

4 – السجايا العربية ، وهي الصفات والخصال الحميدة التي كانوا يتفاخرون بها كالكرم والنخوة والنجدة والجوار .

2 – نتائج الاندماج والامتزاج :

لقد امتزج العرب حضاريا مع الأمم الأخرى صاحبة الحضارة ، وقد ساعدت عوامل المزج على ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، وكانت سبب تطورها وتقدمها . ومن أبرز تلك النتائج :

1 – اعتناق الشعوب المفتوحة الإسلام فأنقذت نفسها من العبودية والوثنية ، وتشجعوا على اكتساب العلم والمعرفة فابتعدت عن عناصر حضارتها السابقة وتوجهت إلى إبراز الحضارة العربية الإسلامية .

2 – التعريب ، أي جعل اللغة العربية اللغة الرسمية لإدارة الدولة والعلم والمعرفة والتعامل بين الدولة العربية وسكان البلاد المفتوحة ، فترتب على ذلك إقبالهم على تعلم اللغة العربية وهجر لغتهم الأصلية .

3 – رغبة الأنظمة السياسية في الدولتين الأموية والعباسية في الاستعانة بالعناصر غير العربية في الجهود الإدارية والعلمية .

4 – التنافس العلمي بين مراكز الخلافة العربية الإسلامية في كل من بغداد والقاهرة وقرطبة ، الأمر الذي ترك أثره الواضح في تشجيع العلوم والمعارف واستقطاب العلماء .

5 – الاستفادة من التراث الحضاري للأمم الماضية فقد استثمرت الحضارة العربية الإسلامية بعض المؤثرات من حضارات الأمم القديمة كالفرس والروم واليونان والهنود ، وقد كان العرب توّاقين إلى ارتشاف العلوم ، وكانوا يقدرون العلوم التي وصلت إليهم من الحضارات القديمة حق قدرها وشاع بينهم وبين المغلوبين من الأمم الأخرى وحدة المعتقد بالله والتزاوج والتصاهر ، وكان الاختلاط سريعا نتج عنه نشوء حضارة جديدة نفخ فيها العرب

روحا جديدة فنمت وازدهرت حين آلف العرب بين مقومات الحضارة اليونانية والفارسية والرومانية بالعبقرية العربية والروح الإسلامية فأشرقت وازدهرت وعلت علوا كبيرا .

ومما لا شك فيه أن العرب زادوا على ما أخذوه من حضارات تلك الأمم القديمة التي سبقتهم بكل ما استطاعوا ، فأوصلوها بأمانة إلى الأمم الحديثة فنجم عن هذا كله حضارة جديدة لها طابعها الإسلامي الخاص .

وسنتناول بإيجاز ما أخذه العرب من تراث الأمم الأخرى وتأثيرها الحضاري عليهم :

1 – الحضارة الفارسية :

وهي بمثابة المؤثر الأجنبي الأول الذي استمدت منه الحضارة العربية الإسلامية جانبا من مقوماتها ، فالفرس أمة ذات حضارة قديمة إذ نبغوا في السياسة والإدارة والحرب ومظاهر العمارة والفنون والآداب والعلوم ، فعندما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية دخل الفرس الإسلام أفواجا وصاروا موالين للفاتحين ، وبذلك طرحوا المجوسية ديانتهم السابقة وأقبلوا على الإسلام يدرسونه وعلى اللغة العربية يتعلموها ، وقلدوا العرب في قول الشعر وعرفوا أوزانه وأغراضه وتأدبوا بآدابهم وتخلقوا بكثير من أخلاقهم ، لذا كان تأثير الآداب الفارسية على العربية كثيرا. وقد برز منهم: ابن المقفع وآل نو بخت والحسن بن سهل، فأفادت الحضارة العربية الإسلامية من ذلك فوائد جمة إذ انتقلت أساليب الإدارة والدواوين والعلوم والآداب والرياضيات والطب وغيرها .

2 – الحضارة اليونانية والرومانية :

لقد تأثر العرب المسلمون بهاتين الحضارتين بطريق مباشر تضمن ترجمة مخلفاتهم وكتبهم العلمية، وطريق غير مباشر باتصالهم بأمم أخرى كانت متأثرة بتلك الحضارتين كالفرس والهنود والقبط والسريان وغيرهم من الذين أسهموا في بناء الحضارة العربية الإسلامية فيما بعد ، فاليونان أمة عريقة اشتهرت في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ظهر فيها أساطين الفكر في العالم القديم كسقراط وأفلاطون وأرسطو في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب وأقليدس في الهندسة ، وانتشر عملهم وفكرهم في الشرق إثر الفتوح التي قام بها الإسكندر الأكبر ، وقيام أسر يونانية حكمت في مصر والشام .

وكانت للمسلمين علاقات ثقافية مع السريان ومعرفة بتراثهم ، وتعد لغتهم من اللغات الآرامية التي انتشرت في العراق والجزيرة ، وخاصة في الرها ونصيبين وما جاورها وكان للسريان أثر مهم في نشر الفلسفة اليونانية قبل الإسلام ، وبعد الفتح الإسلامي ، كما أن قسما من السريان عنوا بالدين المسيحي بعد تنصرهم ، وقد قدم السريان خدمات كبيرة للعلم والفلسفة بما ترجموه من كتب اليونان إلى لغتهم أول الأمر ثم إلى اللغة العربية فيما بعد .

لقد استفاد العرب من نقل هذه الكتب إلى السريانية وكانت المصدر الأول لمعارفهم عن تراث اليونان والمنطق والرياضيات والفلك ، وقد أسلم بعض السريان ونبغ عدد منهم في العصرين الأموي والعباسي وكان لهم أثر واضح في نقل العلوم إلى العربية ، وبذلك انتقل فكر اليونان القديم وعلومهم إلى المسلمين ، وانصرف العرب عن ملاحم الإغريق ومسرحياتهم وأساطيرهم لما تتضمنه من مظاهر الوثنية التي لا تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

وجد العرب المسلمين في المناطق التي فتحوها عددا من المدارس التي اهتمت بعلوم اليونان، ومن أشهر تلك المدارس مدرسة الإسكندرية ونصيبين وحران والرها وجند يسابور . وسنتناولها باختصار :

مدرسة الإسكندرية (1): التي تعد أساس الثقافة الإغريقية ، وقد أضاف البطالسة إلى مكتبتها الكثير من الكتب التي وجدوها في خزائن أثينا وفرضوا على من يقيم بها من أهل العلم أن يقدم نسخة من كل ما يملكه من كتب ، كما انتقل إليها العلماء من معبد عين شمس ، وانتقلت إليها أفكار الشرق من بابل ، وظهر فيها مذهب الأفلاطونية الحديثة .

مدرسة نصيبين : عندما أغلق زينون إمبراطور القسطنطينية مدرسة النساطرة في الرها سنة 489م رحل علماؤها إلى نصيبين حيث أسسوا مدرسة اشتهرت في ميادين الفلسفة والطب اليونانيين ، ثم اعتبرت مقر كرسي الأسقفية لنشر اللاهوت الإغريقي بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية ، وظلت نصيبين أيام الفتح الإسلامي واستمرت شهرتها العظيمة .

مدرسة حران : تقع جنوب الرها وكانت مركزا لعبدة النجوم من الصابئة ، وهم من السريان ، وكانوا أهل علم ودراسة ويتقنون اليونانية والسريانية وتعلموا العربية فيما بعد فترجموا الكتب إليها .

مدرسة الرها: لما استولى الفرس على نصيبين سنة 363م حلت محلها مدرسة الرها، لذا تعد استمرارا طبيعيا لها ، وكانت الرها المركز الرئيسي لعلماء اليونان الذين تركوا بلادهم نتيجة الاضطهاد الديني ، فاتجهوا شرقا واستقروا في الرها بشمال العراق وهناك أسسوا مدرسة للنساطرة ازدهرت في القرن الخامس الميلادي ، وكان للنساطرة أثر كبير في إيصال الثقافة الإغريقية إلى العرب بما ترجموه من تراثهم إلى العربية فكانت الثقافة النسطورية إغريقية المادة سريانية اللغة ، وكانت الحيرة قلعة منيعة للنساطرة في منتصف القرن السادس الميلادي.

مدرسة جند يسابور : أغلق جستنيان إمبراطور القسطنطينية سنة 528م مدرسة أثينا الوثنية ، فهجرها علماؤها واتجهوا شرقا يبحثون عن مأوى لهم في أحضان دولة الفرس فاستقروا في جند يسابور حيث أنشأ خسرو الأول 531 – 578 م مدرسة جنديسابور وبيمارستانا ومدرسة للطب وكلية للفلك ، وبعد الفتح العربي الإسلامي استمرت هذه المدرسة قائمة ، وقد برز عدد كبير من علماء جنديسابور أشهرهم جبرائيل بن بختيشوع وخلفاؤه ممن ساعدوا على نشر الثقافة الإغريقية عند العرب .

3 – الحضارة الهندية والصينية :

تعود صلات العرب التجارية والحضارية بالهند والصين إلى عهود سبقت الإسلام وازدادت تلك الصلات بانتشار الإسلام في الهند في العهدين الأموي والعباسي ، وبلغت العلاقات ذروتها في القرن الخامس الهجري في العهد الغزنوي . وقد مرت الثقافة الإغريقية من الإسكندرية إلى الهند عن طريق البحر ، لذا أخذ علم الفلك والرياضيات الهندي الطابع الإغريقي .

أفاد علماء العرب المسلمين وكتابهم من الحضارة الهندية في علوم الرياضيات والطب والفلك والنجوم والأدب والحكمة ، واطلع العرب على بعض تلك العلوم حينما ترجموا التراث الفارسي إلى اللغة العربية لأن ثقافة الهنود وعلومهم نقلت إلى الفرس نتيجة لصلات الجيرة بينهم ، فترجم العرب في العصر العباسي كتاب (برهميكت) في الفلك في عهد الخليفة المنصور ، كما ترجموا كتاب (السند هند) ، والحال نفسه ينطبق على علم الطب والعقاقير

إذ برع الهنود في هذا الميدان ، كما عربت العديد من المصطلحات الهندية ، وترجمت كتب الأدب والقصص الهندي ، ومنها كتاب (كليلة ودمنة) ، ونقل العرب بعض الألعاب الهندية التي استهوهم مثل : لعبة الشطرنج .

امتدت صلات العرب بالصين إلى عهود قبل الإسلام حيث كان التبادل التجاري بينهما نشيطا واستمرت علاقاتهما بعد انتشار الدعوة المحمدية التي ساهمت في تلك الروابط ، ولا بد من الإشارة إلى أن الأمويين أخذوا من ملك الصين الجزية اعترافا منه بمقدرة الجيش العربي في عهد الوليد بن عبدالملك حيث وصلت قواته أرض الصين سنة 96هـ ، وقد أخذ العرب من الصينيين صناعة الورق عن طريق الأسرى الصينيين في سمرقند الذين أدخلوا هذه الصناعة إليها سنة 134 هـ ، ومنها انتقلت إلى بغداد في عهد الرشيد ، كما أخذ العرب عن الصينيين البوصلة وملح البارود والخزف .

ثانيا : عناصر المجتمع العربي الإسلامي

ولد المجتمع الإسلامي – مع مولد الدولة الإسلامية – بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة وجاءت ولادته بين أحضان المجتمع العربي قبل الإسلام الذي شمل الجزيرة العربية والذي كان مزيجا من العادات والتقاليد المتباينة ، ولم يلجأ الإسلام إلى أسلوب حرق المراحل والقفز في التغيير والإصلاح ، وإنما عالج الأوضاع الاجتماعية عند العرب بطريقة تدريجية بناءة فأقر ما هو صالح منها وعدّل ما يتطلب التعديل ، وأبطل ما رآه فاسدا يتعارض مع روح الإسلام ومبادئه ومثله وآدابه ، وبناء على تلك نظم الإسلام الحياة العامة من خلال تنظيم علاقة الفرد بربه وأسرته ومجتمعه .

اتسم المجتمع العربي الإسلامي الجديد في صدر الإسلام بالحرص الشديد على التمسك بتعاليم الإسلام والبساطة والزهد والمساواة بين الناس وانعدام الفوارق بين الحاكم والمحكوم والقوي والضعيف والعربي والأعجمي ، فكانت التقوى مقياسا لهم . وقد رسم الرسول ﷺ قواعد العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة من يهود ونصارى وفق الصحيفة التي أصدرها في المدينة المنورة التي هدفت إلى إيجاد مجتمع فاضل منظم ، فعدت تلك الوثيقة بمثابة القانون الأساسي للدولة الإسلامية الجديدة .

ولم تحدث الفتوحات الإسلامية تغيرات سريعة ومفاجئة في أوضاع المجتمع الإسلامي وذلك لقربهم من عهد الرسول ﷺ وتمسكهم الشديد بتعاليم الدين الحنيف ، لذا ظلت البساطة وخشونة العيش غالبة عليهم فكان عمر بن الخطاب يلبس الخشن ويرقع ثوبه بالجلد ، والإمام علي (كرم الله وجهه) يقول : " ياصفراء ويا بيضاء غري غيري" ، وعلى الرغم من اقتناء بعض الصحابة الأموال في عهد عثمان بن عفان فإن تلك الثروة لم تغير الملامح العامة الأساسية للمجتمع الوليد .

شهد المجتمع الإسلامي في العصر الأموي تغيرات واضحة من خلال اتساع الفتوحات وازدياد الغنائم من أموال وأسرى ورقيق ، وأدى انتقال العاصمة إلى دمشق إلى ابتعاد الخلفاء الأمويين عن المسرح الأول للإسلام بذكرياته وبساطته ومثله العليا ، فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع الدولة الإسلامية وانتشار الإسلام بين شعوب عديدة غير عربية لها جذورها وأصولها دخلت الإسلام بتراثها وعاداتها وتقاليدها ، أدركنا ما حدث من تفاعل اجتماعي بعيد المدى بين العرب الفاتحين من ناحية وتلك الشعوب من ناحية أخرى .

وبما أن الناس على دين ملوكهم فقد أخذت الحياة الاجتماعية في العصر الأموي تتخلى تدريجيا عن بساطة الحياة الراشدية ، وأخذت تتأثر في بعض جوانبها بالطابع الروماني والفارسي فظهرت عند بعض الخلفاء الأمويين مسحة قوية من الترف بعيد عن روح الإسلام ومبادئه ، ونجد في كتب التاريخ جانبا من سلوك أولئك الخلفاء فقد مال يزيد بن معاوية والوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان إلى اللهو والطرب والعبث ، وشغف هشام بن عبد الملك بسباق الخيل ، كما انتهج بعض حكام المغرب والأندلس النهج نفسه . وبطبيعة الحال انتقلت تلك العادات والتقاليد إلى الرعية فشغفوا بالموسيقى والغناء وانتشرت المغنيات وشاعت آلات الطرب والموسيقى بشكل لم يألفه العرب من قبل .

وامتدت موجه اللهو والغناء إلى مكة والمدينة حتى قيل إن أكثر المغنين والمغنيات الذين عرفتهم بني أمية تخرجوا من مدرسة الحجاز ، وإلى جانب حياة العلم والزهد والتقوى وجدت حياة المرح والمتعة ، ويرى بعض الباحثين أن ذلك يعود إلى رقة شعور أهل الحجاز من ناحية ، ووجود الأرستقراطية العربية فيها وهم العنصر الفاتح الذي حصل على خيرة الجواري من ناحية أخرى ، ورغبة الأمويين في إبعادهم عن السياسة ، مع ملاحظة أن الحياة الاجتماعية في الحجاز ظلت ملتزمة بقدر من الاعتدال ولم تصل إلى حد الإسراف الذي وصلت إليه

دمشق، ولا بد من الإشارة إلى أن الحجاز شهد ثورات وحركات معارضة عديدة تعد صرخة فى وجه سلوك بعض الخلفاء الأمويين .

وازدادت مسحة الترف والنعيم عند خلفاء بني العباس وغدت بغداد صورة بارزة لهذا الازدهار الحضاري بما شهدته من قصور وحدائق وأدوات زينة وحلي وجواهر وأحجار كريمة التي تزينت بها النساء كما زهت قصور الوزارء والأمراء بروعة البناء بحيث نافست قصور الخلفاء ، وبلغت الحضارة الإسلامية في هذا العصر مرحلة النضج وذروة الانتعاش سواء في الجوانب الفكرية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .

وفيما يلي أهم عناصر المجتمع العربي الإسلامي :

1 - العرب :

لقد اعتز العرب بالإسلام الذي أصبح المبدأ الشامل للعرب ونشروا الرسالة العظمى بلسانهم ، وبفضل الإسلام حقق العرب النصر على الدولتين الفارسية والبيزنطية من خلال حركة الفتوح ، وكان المقاتلة يمثلون معظم القبائل العربية التي استقرت فيما بعد في البصرة والكوفة والفسطاط ، وعدت تلك المدن بمثابة معسكرات للجند في بادئ الأمر ، وقد حرص الخليفة عمر بن الخطاب علىعدم اختلاط العرب بأهالي البلاد الأصليين لأنه أدرك أن سكنى المدن يؤدي إلى اختلاط الأنساب مما يضعف الجنس العربي ، فمنع العرب أولا من مزاولة الزراعة ليكونوا أداة الدولة العسكرية لنشر الإسلام ولمنعهم من امتلاك الإقطاعيات واغتصاب الأرض من أصحابها الأصليين ..

حافظت القبائل العربية التي سكنت في المدن على تقاليدها وعاداتها لفترة طويلة حتى نهاية عهد عمر بن الخطاب ، إذ ظهرت تقاليد جديدة نتيجة لاختلاط العرب بالشعوب المفتوحة ومزاولتهم المهن المختلفة الأخرى وزيادة عددهم بالتناسل وحصلوا على الجواري والإماء للزواج ، فضلا عن استعداد العرب للانتقال من البداوة إلى الحضارة نتيجة لازدياد ثرواتهم التي أدت إلى ترفهم الفكري .

رفض الإسلام العصبية القبلية ونجح في إضعافها وخمودها ، ولكنه لم يقض عليها نهائيا من خلال حركة الفتوح حيث توحدت القبائل العربية بالإسلام أمام أعدائهم من الفرس والروم . إلا أن العصبية القبلية عادت ثانية من خلال تقسيمهم حسب قبائلهم للسكن في المدن الجديدة،

واتضح ذلك في البصرة والكوفة حيث كانت العلاقة بين أفراد القبيلة أوثق من العلاقة بين أبناء المدينة الواحدة واتخذ زعماؤهم دور رؤساء القبائل قبل الإسلام من حيث صلتهم بالخليفة وسلطاته الإدارية والعسكرية والمالية ، كما تأثر الموالي (سكان البلاد المفتوحة) بذلك التعصب إذ تعصبوا إلى القبيلة التي حالفوها من العرب .

زاد التفاوت في العطاء في عهد الخليفة عمر بن الخطاب من حدة العصبية القبلية إذ اعتمد الخليفة في العطاء على القرابة من الرسول ﷺ والسبق في الإسلام ، الأمر الذي أدى إلى تركز أكثر الأموال بيد قبائل قريش ثم ازداد ذلك الشعور في خلافة عثمان بن عفان بتغلب الأمويين ، مما دفع القبائل الأخرى للوقوف في وجه قريش كقيس وتميم وشيبان وكندة وغيرها. وفي خلافة الإمام علي تركزت هذه العصبية بين بني هاشم وبني أمية ، وانقسمت القبائل بين معارض ومؤيد لهما ، وتجلى ذلك في معركتي الجمل وصفين حيث تواجهت القبيلة الواحدة بتقابل طرفي النزاع ، أي أن العصبية القبلية تعززت بعصبية المدن والأقاليم .

وفي العصر الأموي ازدادت العصبية القبلية بين القبائل العربية التي حملت لواء الدولة الأموية منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي انحاز إلى اليمانيين بزواجه من قبيلة كلب فأثار بذلك أحقاد القيسيين ، وسار ابنه يزيد على نفس النهج ، وبعد موت الأخير ظهرت روح العصبية بشكل واضح لكن الحزب الأموي كان قويا فلم تستطع هذه العصبية أن تضعضع أركان الدولة .

وكان الخلفاء الذين خلفوا يزيد إلى عمر بن عبد العزيز أقوياء أشداء يستطيعون الوقوف في وجه أي عاصفة ، فعندما رأى هشام بن عبد الملك اشتداد سلطان المضرية خافها وانحاز إلى اليمانية ليعيد التوازن بين الكفتين فولى اليمنيين وعزل المضريين عن ولاياتهم ثم عاد ثانية فولى المضريين كيوسف بن عمر الثقفي ونصر بن سيار المضري ، وكان لهذا التدخل آثاره البيئة سواء كانوا من هؤلاء أو مع أولئك ، فقد انتقلت عداوات الجانبين معهما إلى الأمصار التي فتحوها كخراسان ومصر وما وراء النهر والأندلس ، وأخيرا انحاز مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى القيسية فصارت البلاد الإسلامية مرتعا للفتن والاضطرابات بسبب الصراع بين القبائل العربية ، الأمر الذي أدى إلى نهاية الدولة الأموية سنة 132هـ .

ومع بداية العصر العباسي انتهى النفوذ العربي بتعاظم نفوذ الموالي ، لذا لم تشهد الخلافة العباسية سياسة التعصب للعرب بقدر ما كانت بعض هذه المظاهر ردود فعل لتسلط الموالي

على أمور الدولة العامة . وفي هذا العصر ازداد دور العناصر غير العربية مع كثرة الأموال من ناحية والابتعاد تدريجيا عن العهد الأول للإسلام من ناحية أخرى ، وقد أدى انتعاش الدولة العباسية واتساعها واستتباب الأمن إلى جعلها مجمع لكثير من الأجناس والعناصر والطوائف الدينية ، وأدى هذا الخليط البشري الكبير المتنوع الأصول والدماء واللغات والعادات والتقاليد إلى إكساب الحياة الاجتماعية لونا خاصا فريدا داخل بوتقة الحضارة الإسلامية .

2 – الموالي :

وهم المسلمون من غير العرب وكانوا في الأصل أسرى حرب ثم أصبحوا بمنزلة الرقيق ثم أسلموا فاعتقوا وأصبحوا موالي ،فتحالفوا مع القبائل العربية فكان موالي كل قبيلة ينتسبون إليها ويحاربون في صفوفها ويعتزون بنصرها وقوها ،وكان الرق مصدرا آخر من مصادر الولاة بالزواج أو العتق ، وقد ازداد عدد الموالي من الفرس والترك بعد حركة الفتوح.

لم يشهد عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون تعصبا ضد الموالي لكن سياسة الأمويين اتخذت أشكالا من التعصب ضدهم من النواحي العسكرية والضريبية ، وقد شعر الموالي بتعصب الأمويين ضدهم من حيث عرقهم والضرائب المالية التي فرضت عليهم بعد إسلامهم كالجزية ، والتعامل معهم في الحياة العامة فلم يقتنعوا بإمامتهم في الصلاة ، والامتناع عن منادالهم بالكُنى وتحديد جلوسهم أو مسيرهم في الولائم ، وامتد ذلك حتى إلى الزواج حيث تتم خطبة بنات الموالي من مولاها وسيدها وليس من أبيها أو أخيها وإن لم يحصل ذلك عد العقد باطلا .

وفيما يخص الجانب العسكري لم يكن للعرب رغبة في اشتراك مواليهم معهم في الحرب لأن الموالي يحترفون المهن الأخرى غير الحرب ، وفي بعض الحالات التي اشترك فيها الموالي اقتصر اشتراكهم على المشاة دون الفرسان وحارب الكثير منهم مع العرب دون عطاء.

أدت تلك السياسة إلى ردود أفعال قوية من قبل الموالي فيما عرف بالشعوبية ، وهي حركة اجتماعية وفكرية حاول خلالها الموالي التعصب لأصلهم الأعجمي بعد أن وصفوا العرب بالمثالب وقللوا من قيمهم الحضارية ، ولم تقتصر ردود الأفعال تلك على الجوانب الفكرية

بل تعدهّا إلى انضمام الموالي في الحركات والثورات المسلحة ضد الدولة الأموية فانضموا لحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي وعبدالرحمن بن الأشعث ويزيد بن المهلب وغيرها .

واستغل العباسيون تذمر الموالي من الحكم الأموي فنشط الدعاة العباسيون في إقناع الموالي لمناصرة دعوتهم فانضموا إليهم وآزروهم في خراسان حتى نجحوا في القضاء على الأمويين ، وغدا من الثابت أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس والموالي الذين ازداد نفوذهم السياسي والحضاري وبخاصة في العصر العباسي الأول ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم الواضحة في المجتمع الإسلامي ، ويتجلى ذلك في مظاهر الترف وبناء القصور والأزياء والملابس الرجالية والنسائية كاستعمال القلانس والسراويل والجوارب والحلي والمجوهرات والأحزمة النسائية ، وظهرت ألوان الأطعمة الفارسية فضلا عن انتشار مجالس الغناء والطرب والشراب وغيرها والتي اصطبغت بالصبغة الفارسية الواضحة .

وفي النصف الأول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ظهر عنصر جديد من الموالي وهم الأتراك وازداد نفوذهم وتوافدوا على الدولة العباسية منذ خلافة المعتصم حاملين دماء جديدة وعادات وتقاليد خاصة سرعان ما تركوا أثرا في المجتمع فازداد عدد الجواري اللائي امتلأت بهن قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة والأثرياء ، وقد بالغن في زينتهن وتأنقهن في الملبس مما أدى إلى انتشار فن التجميل وتلونت أزياء المجتمع . وقد استأثر الأتراك بالسلطة طيلة خلافة المعتصم والواثق حتى سيطروا على الخلفاء الذين فشلوا في الحد من نفوذهم .

إن ازدياد نفوذ الموالي الفرس والأتراك في المجتمع الإسلامي لم يقض على أثر العنصر العربي وإن فقد الكثير من امتيازاته ، ويجب أن لا ننسى أن الدولة العباسية ازدهرت في وقت انتشرت فيه الكثير من القبائل العربية في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية ومنهم البدو الذين تركوا أثرا سلبيا في الحياة الاجتماعية بنشر الاضطرابات وتهديد المدن والقوافل . أما العرب المتحضرون فكانوا عنصرا بناء في مجال الحضارة ، ودعم الاستقرار الاجتماعي ، كما وقف العرب موقفا صلبا إزاء تيار الزندقة والشعوبية ، وحافظوا على المثل والتقاليد العربية الأصيلة والآداب والمبادئ الإسلامية الأمر الذي أدى إلى تماسك المجتمع الإسلامي .

3 – أهل الذمة :

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى والمجوس الذين يعيشون في بلاد الإسلام ، وقد عرف الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلادهم وخارجها في رحلاتهم إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد الروم ومصر ، وكان العرب في جاهليتهم يسترشدون بما عند أهل الكتاب من علم وحكمة ويسمعون أقوال حكمائهم وعقلائهم .

وارتبط المسلمون معهم بعهود نظمت العلاقة بينهما منذ عهد الرسول ﷺ فكان عليهم دفع الجزية (ضريبة الرأس) وهي الأموال المأخوذة من أهل الذمة جزاء المنة عليهم بالإعفاء من القتال ، وقد أخذها النبي ﷺ من نصارى نجران وجعلها المسلمون بثلاثة مقادير وفقا لحالة الذمي المعاشية وطاقته ، وأعفى منها الصبيان والأطفال والمرضى والعجزة والنساء والمساكين وذوي العاهات والرهبان . ولا بد من الإشارة إلى أن دفع الجزية يعفي الذمي من الخدمة العسكرية وبخاصة الرجال القادرين على الحرب ، وكانت الجزية لا تتعدى مبلغا تافها من المال في الوقت الذي يدفع المسلم الزكاة وفق نظام تصاعدي دقيق . كما يدفع الذمي الخراج (ضريبة الأرض) التي نظمت طبقا لموقع الأرض وطبيعتها وطريقة سقيها ومحصولها ، فضلا عن ضريبة العشر على التجارة لكنهم أعفوا من الضرائب الأخرى التي يدفعها المسلمون كالزكاة .

تمتع أهل الذمة بقدر كبير من الحرية والتسامح في المجتمع الإسلامي ، مما مكنهم من ممارسة شعائرهم الدينية واحترام أماكن عبادقم ومارسوا حياقم الخاصة ومباشرة كافة المهن ، فكان منهم الأطباء والتجار والصيارفة والمهندسين وتقلد الكثير منهم وظائف هامة في الدولة .

لقد تحددت العلاقات الاجتماعية بين المسلمين من ناحية وأهل الذمة من ناحية أخرى في ظل تعاليم الإسلام ، فسمح بزواج المسلم من الكتابية دون أن تجبر على ترك دينها والدخول في الإسلام ، كما أحل الله طعام أهل الكتاب للمسلمين وبالعكس ، وفي ظل سماحة الإسلام قوت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فشارك كل طرف الآخر في أعياده واحتفالاته وتبادلوا الهدايا والمأكولات في المناسبات الدينية وغير الدينية .

وفي عهد الخلفاء الراشدين عومل أهل الذمة بالحسنى فقبل وفاة عمر بن الخطاب أوصى بهم قائلا :" يوفى لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم "، وسار على هذا النهج عثمان بن عفان . أما الإمام علي فقد ساوى أهل الذمة مع الموالي والعرب في العطاء وأوصى ولاته بهم خيرا إذ أمر عاملا له بحفر نهر لأهل الذمة .

استمر تمتع أهل الذمة في العصر الأموي بحقوقهم وعاشوا في ظلهم بسلام لأن الأمويين كانوا بعيدين عن روح التعصب الديني فواصلت الدولة التسامح معهم ، فقد خصص معاوية ابن أبي سفيان لابنه يزيد مربيا مسيحيا وسمح لهم الخلفاء الأمويين ببناء الكنائس وتعميرها، فقد بنى خالد بن عبد الله القسري والي العراق كنيسة في الكوفة وكذلك بنيت كنيسة في الفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد ، وأمر عمر بن عبد العزيز عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيت نار .

وحرص الأمويون على حماية أهل الذمة لقاء ضريبة الخراج والجزية التي أخذوها على أن يحموهم ولما كثر دخول أهل الذمة في الإسلام ورأى الخلفاء الأمويين أمثال : عبد الملك والوليد وسليمان أن دخول أهل الذمة بالإسلام بكثرة سوف يحرم بيت المال من موارد جسيمة استمروا يأخذون تلك الضرائب منهم لأنهم نظروا إلى مصلحة الدولة العامة ، وإن كان في ذلك مخالفة لظاهرة الشرع الإسلامي .

أما الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز فكانت له سياسة خاصة مع الذميين اتسمت بالعدالة ، إذ ألغى قوانين المواربة والاحتيال التي اصطنعها عمال الأمويين لإجبار أهل الذمة الذين دخلوا الإسلام على دفع الجزية ، فعندما طلب منه أحد عماله أن يبقي الضرائب عليهم قال : "إن الله بعث محمدا هاديا وليس جابيا "، كما منع عامله على الكوفة من إعادة أهل الذمة على قراهم كما فعل الحجاج بن يوسف ، وأمره بأن يوزع ما بقي من خراج الكوفة لسداد الديون أو للزواج كما جعل صدقات قبيلة بني تغلب المسيحية في فقرائهم دون أن يضمها إلى بيت المال .

واستخدم أهل الذمة في العصر الأموي في الوظائف الحكومية كالدواوين وكتاب القضاء وأسهموا في النشاطات الاقتصادية كالزراعة والفلاحة وصناعة المنسوجات والزجاج والسفن والتجارة ، ومارس العديد منهم الطب والصيدلة ومنهم من اختص بخدمة الخلفاء .

حافظت الدولة العربية في العصر العباسي على علاقاتها السليمة مع أهل الذمة وأفادت منهم في نظمها الإدارية والمالية والثقافية وسمحت لهم بتنظيم شؤونهم الداخلية ، ولم تتدخل في شعائرهم الدينية بل كان بعض الخلفاء يحضرون مواكبهم وأعيادهم . أما فيما يتعلق ببناء الكنائس وصيانتها فكان الأمر مرهونا بالظروف المحيطة فتارة يسمح لهم وأخرى يمنعون من ذلك ، وكانت الدولة تتدخل في بعض الحالات الاستثنائية في شؤون أهل الذمة وحياتهم الخاصة وعقائدهم الدينية ، وقد حدث ذلك في فترات محدودة في بغداد عبر خلافة الرشيد والمتوكل والمقتدر .

ولأهل الذمة في العصر العباسي دور بارز في النشاطات الاقتصادية المختلفة واتسع دورهم في تولى الوظائف والأعمال الحرة فكان معظم الصيارفة في بلاد الشام يهودا . أما الكتبة والأطباء فإن أغلبهم من النصارى ، وقد أفتى بعض الفقهاء بجواز أن يكون وزير التنفيذ من أهل الذمة ، ولا يخفى ما للكتّاب النصارى الذين هم في خدمة الخليفة والدواوين من تأثير في اختيار الوزراء فيذكر أن الحسين بن القاسم استوزره المقتدر سنة 319هـ بتأثير الكتّاب المسيحيين ، وفي مقدمتهم اصطفين بن يعقوب كاتب مؤنس .

واستخدم البويهيون الوزراء والكتّاب النصارى ، وفي العصر الفاطمي أحرز أهل الذمة مكانة مرموقة ، فقد استوزر الخليفة العزيز الوزير يعقوب بن كلس اليهودي الذي أسلم فيما بعد ، كما أكرم النصارى وصاهرهم .

وتوطدت العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة من خلال الزواج والمناسبات الدينية والأعياد وتأثير بعضهم بملابس وأزياء الطرف الآخر ، وقدمت لهم الدولة الخدمات الصحية أسوة بالمسلمين ، وفي الأندلس كانت لهم محاكمهم الخاصة ، وفي بعض الأحيان يقضي بينهم القضاة المسلمون كما فعل قاضي مصر محمد بن مسروق سنة 177 هـ.

4 – الرقيق :

كان الرق أمرا مألوفا وعميق الجذور في المجتمعات القديمة قبل ظهور الإسلام ، ولعله كان في جزيرة العرب أخف وطأة من أي مكان آخر لما عرف عن العرب قبل الإسلام من حفظ الذمام ومراعاة الجوار .

فالحضارة اليونانية بما كان لها من منطق عقلي وفلسفة الرحمة لم تعترض على نظام الرق في أي صورة من صوره ، بل كان المجتمع اليوناني قائما على نظام الرق فاليونانيون الأحرار يعيشون على كد الأرقاء وعملهم حتى إن فيلسوفهم أرسطو طاليس بما له من نفاذ البصيرة ، واستنارة العقل لم يجد في نظام الرق ما يتنافى مع كرامة الفرد وإنسانيته فيقول في هذا الصدد :

" خلق العبد للخضوع والطاعة وعلى الأحرار أن يستكثروا منهم " .

وكان يرى أن الرقيق هو الآلة الحية التي عليها توفير القوت والقيام بالأعمال الشاقة ، والرقيق في رأيه من وسائل الإنتاج الضرورية التي لا غنى عنها .

أما أفلاطون فكان يرى أن يكون الرقيق من غير اليونانيين ، ولم تنكر الديانة اليهودية الاسترقاق بل كانت اليهودية تشجع المتاجرة بالرقيق ولا سيما أولئك الذين كانت تعمل على إخصائهم من الأوربيين وتصدرهم إلى بلاد الشرق ليباعوا في أسواق النخاسة ، وكان النخاسون اليهود في أوربا يسرقون النساء والأطفال لبيعهم في الأسواق .

ولم تر المسيحية في نظام الرق ما يحرج منطق العدالة الاجتماعية بل إنها كانت تبارك وتبشر بطاعة العبيد للسادة ، وقد ازدهرت تجارة الأوربيين في الرقيق الأبيض والأسود على أيدي المسيحيين عدة قرون ولا سيما في عهود الاستكشافات الجغرافية في إفريقيا وأمريكا منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ، وقد سخّر الأوربيون الرقيق في مختلف أعمالهم وأذلوهم بشتى الوسائل فكانوا يقتضون الناس وأخذهم عبيدا لتشغيلهم في مستعمرات ويسنون القوانين التي تعين موقفهم من أسيادهم وتحرم عليهم الوظائف والزواج والتعلم ، لذا فالأوربيون دون غيرهم هم المسؤولون عن مأساة الرقيق الإنسانية .

ولم يكافح الغربيون الرق جديا إلا في القرن التاسع عشر والعشرين ولم يكن القضاء على نظام الرق راجعا إلى حساسية الضمير الإنساني أو لدوافع إنسانية أو يقظة الإدارك الاجتماعي الأوربي بمقدار ما يرجع إلى طبيعة التحول الصناعي وتطور وسائل الإنتاج إلى حد جعل اقتناء العبيد وتسخيرهم في الصناعة عبئا أكثر تكلفة من تكاليف الوسائل الآلية ، ومن هنا كان تحرير العبيد في العصر الحديث ظاهرة اقتصادية في مضمونها ومغزاها .

– مصادر الرقيق :

تعددت مصادر الرقيق في المجتمع الإسلامي ، فقد كانت الأمم تقاتل بعضها بعضا وتسترق ما يقع في أيديها من أسرى أعدائها وحينما جاء الإسلام وضع حدا لهذا المنبع الأصلي للرق ، فكان الإسلام يطلق سراح أعدائه إذا أسلموا حالا . أما إذا تأخر إسلامهم فكان يتأنى في تسريحهم مخافة الخديعة والمكر وعودتهم إلى قومهم يحملون معهم السلاح على المسلمين . أما الصادقون منهم فلم يكتف الإسلام بتسريحهم بل يأمر بمساعدتهم ماديا لتحسين أحوالهم كما جاء في قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ

خَيْرا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[1] ، وكان يوكل أمر أسرى العدو لولي الأمر الذي لم يكن أمامه إما أن يفاديهم أو أن يمن عليهم بعد أن تضع الحرب أوزارها حسبما تقرر في الآية الكريمة : ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[2] .

ومن العوامل الاقتصادية المهمة في الاسترقاق الربا ، أي تراكم الدين الذي يعجز صاحبه عن إيفائه فيضطر إلى التنازل عن حريته لدائنه ، وقد حذر الله تعالى من عواقبه الوخيمة بقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

وثمة مصدر آخر من مصادر الاسترقاق هو القمار ، وقد حرمه الإسلام بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] . لقد عمل الإسلام كثيرا للقضاء على الرق وقطع في إلغائه شوطا بعيدا جدا ووضع أسسا لو سارت سيرها الطبيعي لقضت على الرق منذ زمن بعيد ، فقد عد الإسلام استرقاق الإنسان خصومة موجهة إلى الله تعالى مباشرة ، ففي حديث قدسي يقول الله عز وجل :

" ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجره ".

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ليس في التشريعات الإسلامية ولا في السنة النبوية ولا في تشريعات الفقهاء نص واحد يأمر باسترقاق الناس أو اتخاذهم عبيدا أو الاتجار بهم في أسواق النخاسين ، بل لم يكن في أنظمة الأمم السياسية غير الإسلام ما يدل على أنها حاربت الرق وقاومته كما قاومه الإسلام .

فالإسلام إذن أول دين قرر القضاء على الرق جديا ، وكانت طريقته في ذلك هي القضاء عليه بالتدريج .

(1) سورة النور : الآية 33 .
(2) سورة محمد : الآية 4 .
(3) سورة البقرة : الآية 278 .
(4) سورة المائدة : الآية 90 .

ومن أهم الطرق التي انتهجها الإسلام في تحرير الرقيق ما يلي :

1 – حرض الإسلام على تحرير العبيد وجعله مثوبة وقربى إلى الله ثم جعل عتق الرقاب جزءا من الديات ، كما أدخله في باب الكفارات فهو كفارة من عقوبات القتل الخطأ . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾[1] .

2 – والعتق كفارة عن الأيمان كما قال تعالى : ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾[2] .

3 – جعل الإسلام جزءا من أموال الزكاة لتحرير الرقيق وفك رقاهم بشرائهم من غير المسلمين من أموال الزكاة ، أي أن الدولة كانت تساعد على ذلك من بيت المال وفقا لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3] .

4 – والعتق كفارة عن الإفطار عمدا في رمضان . جاء في صحيح البخاري أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال له : هلكت يا رسول الله . قال له : ولم ؟ قال : وقعت على أهلي في رمضان قال : فاعتق رقبة ..".

ويتحرر الرقيق بطرق ثلاثة :

1 – ضيق الأحوال الاقتصادية التي قد ترغم المالك على عتق رقيقه ليتخلص من أعبائهم المادية .

2 – قد يحرر الرقيق نفسه ويشتري حريته من خلال دفع مبلغ معين من المال لسيده .

(1) سورة النساء : الآية 92 .
(2) سورة المائدة : الآية 89 .
(3) سورة التوبة : الآية 60 .

3 – قد يوصي الإنسان بتحرير رقيقه قبل موته ، كما فعل الخليفة المعتصم الذي أوصى قبل موته بتحرير مماليكه البالغ عددهم ثمانية آلاف .

أصناف الرقيق :

كان الرقيق في المجتمع الإسلامي من أصناف شتى منهم :

1 – الصقالبة : وهم سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الإدرياتيكي غربا .

2 – الزنوج السود : ومعظمهم يأتون من شرق ووسط إفريقيا ، وقد عملوا بالزراعة واستصلاح الأراضي في جنوب العراق ونتيجة لسوء أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، قاموا بثورة الزنج التي امتدت من 255 حتى 270 هـ في خلافة المعتمد العباسي .

3 – الترك : الذين جلبوا من أقاليم ما وراء النهر مثل : خوارزم والشاش وأشروته وفرغانه وسمرقند وبخارى ، وقد أتيحت لهم الفرصة فاستولوا على أكبر المناصب العسكرية والإدارية في بغداد ثم حكموا كل من مصر والشام وأطراف أخرى في دولة المماليك .

نظر الإسلام إلى الإماء (الإناث من الرقيق) والجواري نظرة إنسانية عميقة ، فإذا أعطيت الأمة حريتها وتركت لشأنها خرجت إلى غير مأوى ولا معيل ، فقد تتعرض للغواية وعندها يصاب المجتمع بكارثة خلقية ، وقد حل الإسلام هذه المشكلة بنظرة عميقة إلى طبيعة النفس البشرية عندما أباح تمتع السيد من رقيقه بصفة التسري الذي كثيرا ما يؤدي إلى الزواج إن لم يستطيعوا نكاح المحصنات . قال تعالى في سورة النساء الآية 25 :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ[1] وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ[2] ﴾ .

وقد قيد الإسلام الزواج من الحرائر بأربع نساء ، على حين أباح للرجل معاشرة إمائه دون حد كما جاء في سورة النساء الآية 3 :

(1) السفاح : أن تكون لكل من أراد .

(2) المخادنة : أن تكون لواحد .

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ .

فإذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها وأصبحت (أم ولد) وهي حرة بعد موت سيدها ولا يجوز بيعها أو هبتها أو توريثها ، كما أن وليدها ذكرا أم أنثى يكون حرا منذ ولادته وتنتسب أمه إلى أسرة تنال فيها كرامتها ، وهذا هو الباب المفتوح المأمون لنيل الحرية للإماء.

وقد لعبت الجواري والإماء دورا هاما في الحياة السياسية ونلن منزلة رفيعة في بيوت سادتهن في المجتمع، فكثيرا من أمهات الأولاد ارتفعت منزلتهن فكانت منهن أم أمير وأم خليفة، كما كان لهن دور في الحياة الاجتماعية والثقافية والفنية حسب ما تمتعن به من مواصفات الجمال والكفاءة في الأعمال والمهن والتعلم .

ثالثا : طبقات المجتمع العربي الإسلامي

إن تقسيم المجتمع العربي وفق سلم الطبقية الاقتصادية أمر في غاية الصعوبة ، لأن تكوين الطبقة الاجتماعية يقوم على عدة عوامل متباينة ومعقدة .. ويمكن تقسيم المجتمع العربي الإسلامي إلى سبع طبقات :

1 – طبقة الحكام : وهم الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء والقادة ، ويمثل هؤلاء قمة الهرم في المجتمع الإسلامي ، وقد ساهمت مواردهم الواسعة وثرائهم بأن يعيشوا فى ترف ، فكانت قصورهم التي شيدوها وزخرفوها وزينوها تعج بالحشم والخدم والتحف ، وغدت حياة القصور التي أنفقوا على بنائها أموالا لا تصدق سمة بارزة من سمات المجتمع .

بعد حياة التقشف التي شهدتها الحقبة الراشدية اتجه الأمويون لبناء القصور الفخمة إذ شيد معاوية قصر الخضراء في دمشق ، كما شيد الخلفاء من بعده قصورا عديدا وتحت تأثير النفوذ الفارسي والثروة الواسعة التي غرق بها الخلفاء العباسيون اتجهوا نحو بناء القصور العظيمة وتزيينها بالرخام والفسيفساء والذهب والفضة ، فقد بنى المتوكل تسعة عشر قصرا وشق لها الترع والجداول لتنقل الماء لحدائقها ، وكان يتنقل بين قصوره وهو يردد عبارة : " علمت الآن أني ملك ".

ولم يقتصر الأمر على قصور الخلفاء بل كان للوزراء والأمراء قصورهم الخاصة ، فكان قصر جعفر بن يحيى البرمكي يحوي ثلثمائة وستين مرفقا ، كما ولع الأتراك والبويهيون ببناء

القصور والدور وأنفقوا عليها الأموال الطائلة ، فقد تكلفت دار (المعزية) التي بناها معز الدولة البويهي شمال بغداد حوالي ثلاثة عشر مليون درهم .

وعاش أفراد هذه الطبقة داخل تلك القصور عيشة بذخ وترف فارتدوا الملابس الفاخرة الموشاة بالذهب والفضة ، وتنوعت الحفلات التي أقاموها لشتى المناسبات كالزواج وغيرها ، ولا بأس أن نقف وقفة قصيرة أمام حفلة زواج الخليفة المأمون من بوران ابنة الحسن بن سهل سنة 210هـ ، فقد نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب ، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا من تور الذهب فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف ، ويقال أن أمير الأمراء ابن رائق أنفق خمسة عشر ألفا من الدنانير في حفل زواجه وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى المعيشة والأسعار في ذلك العصر .

2 – طبقة العلماء والفقهاء : كون العلماء ورجال الدين طبقة لها وزنها الاجتماعي زمن ازدهار الحضارة الإسلامية سواء عند الخلفاء والأمراء والوزراء ورجال الدولة أو لدى عامة الناس ، إذ عاش العلماء في رغد من العيش وتميزوا في المجتمع بزيهم الخاص ومظهرهم الواضح وحققوا لأنفسهم تلك القيمة الاجتماعية من خلال بثهم المثل الاجتماعية والخلقية والدينية ومقاومة المنكرات في المجتمع ، ولم يرض بعض العلماء عن انحرافات بعض الخلفاء والأمراء والحكام فتصدوا لهم في شجاعة ، وحرضوا العامة ضدهم مما ترك أثره الواضح أحيانا على الأوضاع السياسية .

وتجلت المكانة التي تمتع بها العلماء والفقهاء في العهدين الأموي والعباسي من خلال ألقابهم التي كان يضفيها كتاب ديوان الإنشاء كلقب (حجة الإسلام ، تاج الفقهاء ، شيخ الإسلام) وغيرها ، والتي حققت لهم الاحترام والتقدير عند الخاصة والعامة ، واكتسب بعضهم أموالا طائلة عاشوا بها في رفاهية ، كما خصصت الدولة لبعضهم أرزاقا ومرتبات عديدة فخصص للعالم الزجاج ت 310 هـ رزق العلماء ورزق الفقهاء ورزق الندماء بلغت ثلاثمائة دينار شهريا .

واعتمد بعض العلماء والفقهاء على أنفسهم في المعيشة ، فقد اعتمد أبو بكر الصبغي ت 344هـ على بيع الصبغ ، وارتزق أحمد بن محمد البربيلي الخياط ت 373 هـ من خياطة القمصان وهو أحد فقهاء الشافعية في مصر ، وامتنع بعض الفقهاء عن أخذ أجور من الدولة أو من العامة لقاء تعليم الحديث والفقه والتعليم ، ومن هؤلاء المحدث أبو بكر الجوزقي

النيسابوري ت 388هـ الذي قال : " أنفقت في الحديث مائة ألف درهم وما كسبت به درهما ".

ويجب أن لا يغيب عنا أن العديد من العلماء عاشوا في شر حالة ، فكتب التاريخ والأدب مليئة بأخبار هؤلاء ، فكان أبو حيان التوحيدي يعيش من نسخ الكتب والتأليف واضطر في نهاية عمره بعد أن ساء حاله وفقره أن يحرق كل كتبه ، وأجبرت ظروف أبي علي القالي الإمام اللغوي أن يبيع كتبه ليعيش .

3 – التجـــار : مثل التجار أرستقراطية المال في الدولة الإسلامية زمن ازدهار حضارتها وانتعاش الحياة الاقتصادية فيها ، لكنهم لم يكونوا فئة واحدة في المجتمع الإسلامي ، فكان منهم كبار التجار الذين عاشوا في المدن الكبرى الذين اختصوا بالتعامل في السلع الثمينة كالجوهرات والأحجار الكريمة والملابس الفاخرة ، لذا ارتبطوا بقصر الخلافة والحكام والأمراء ارتباطا مباشرا . وبلغت حالات التعاون بين التجار والحكام حد إقراضهم الحكومة مبالغ من المال أثناء الأزمات الاقتصادية التي ألمت بالدولة أحيانا ، وقد أدت ثرواتهم الطائلة إلى تعرضهم للمصادرات بين حين وآخر نتيجة لمطامع الحكام فيهم .

أما صغار التجار والباعة فكانت أحوالهم متوسطة يتبلغون هم وأهلهم بطعام جيد وسكن حسن وخدم محدودين ، وكان اتصالهم بعامة الشعب أقوى وأوثق من طبقة كبار التجار بحكم قربهم منهم .

4 – الحرفيون والصناع وأرباب المهن : بعد اتساع المدن الإسلامية وازدياد سكانها اكتظت بالصناع وأصحاب الحرف والمهن للنهوض بمتطلبات المجتمع فألف هؤلاء فئة نشيطة في المجتمع الإسلامي ، وانتموا إلى أجناس وطوائف دينية متعددة إذ برع غير المسلمين في الصناعات المتعددة المعروفة آنذاك ، وقد تكتل أصحاب الحرف والصناعات وأسسوا لهم نقابات ذات نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، وكان في الغالب لكل حرفة أو صناعة شيخ أو كبير ينظم أمورهم ويحل مشاكلهم ويكون واسطة بينهم وبين الحكومة ، ولم يكن الانتساب إلى تلك النقابات أمرا سهلا بل يخضع المنتمي إلى شروط خاصة .

أشرفت الحكومة على الصناعات من خلال رقابة المحتسب الذي كان يعين لكل طائفة من الصناع عريف مشهود له بالثقة والأمانة وعلى معرفة ودراية تامة بأمور الحرفة التي يشرف عليها ليطلع المحتسب على أخبار أهل صنعته ، وقد انفرد أصحاب الحرفة الواحدة في سوق

متخصصة بصنعتهم في المدن الإسلامية المختلفة . وقد عاش معظم الحرفيين عيشة متوسطة في المدن فلم يكونوا من الأغنياء الموسرين ولا فقراء محتاجين ، وربما أدى ضيق ذات اليد أحيانا إلى مساهمتهم بفعالية في الحركات والثورات التي كانت تقوم ضد الدولة أملا في تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية .

5 – الطبقة العامة : شكل هؤلاء مجموعة كبيرة من المجتمع الإسلامي ، إذ اكتظت بهم المدن بصورة خاصة ويتألف أصحاب هذه الطبقة من صغار الباعة المتجولين والمكاريون والمكدين والمعدمين وأصحاب الحرف الصغيرة ، وكان أغلبهم يعيشون في حالة اقتصادية سيئة وفقر مدقع الأمر الذي دفع الكثير منهم للمساهمة في الثورات أملا في تحسين أوضاعهم ، وكان كثير منهم مصدر فساد واضطراب مما جعل الدولة تخشى سطوتهم وتتملقهم وتحسن إليهم اتقاء لشرهم في بعض الأحيان .

وليست لدينا معلومات عن مقدار هؤلاء البؤساء لكن بعض الروايات تعطينا صورة عن حالتهم فيروي مسكويه في كتابه (تجارب الأمم) في حوادث سنة 352هـ " أن أبروثما الطبيب كان يدور من باب إلى آخر ليعالج المرضى ويأخذ دانقا ونصف درهم عن كل مريض "، فإذا كان هذا حال الطبيب فما بالنا بموارد الطبقة العامة ومقدار مدخولها اليومي . وقد عاش الكثير من الشحاذين والعاجزين على صدقات الناس وإحسانهم ، وكانوا يتخذون المساجد والطرقات العامة أماكن لسكنهم . أما المتصوفة فقد عاشوا من ريع الأوقاف وإحسان المحسنين ، كما انتشرت الزوايا والمدارس الدينية التي كان يجد فيها المتصوفة طعامهم وشرابهم .

6 – الفلاحون : كان أغلب أفراد هذه الطبقة من أهالي البلاد المفتوحة وهم سكان الأرياف ، في حين انشغل العرب المسلمون بالفتح والجهاد . ومن معروف أن الدولة العربية الإسلامية شجعت الزراعة منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين فيما شرعته من نظم الضرائب المنصفة لأصحاب الأرض والدولة على حد سواء ، وكان الخليفة عمر قد أبقى الأرض في يد أصحابها حرصا على ديمومة الإنتاج الزراعي وتأمين قوت الرعية والأموال للدولة . لكن هذا لا يعني أن الفلاحين لم يتعرضوا لحالات من التعسف والظلم في جباية الضرائب من حيث زيادة مقدار أو أساليب جبائها في العصرين الأموي والعباسي ، وقد ساهم الفقهاء في دعوة الخلفاء والأمراء والولاة لرفع الظلم عن الفلاحين ، وقد اشترك الفلاحين في الانتفاضات والثورات التي قامت ضد الدولة وأدواتها من كبار الفلاحين وأهل الإقطاع وجباة الضرائب .

رابعا : المجالس الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي

تميزت حياة القصور في الدولة الإسلامية بالمجالس الاجتماعية المتعددة الأنواع وأهمها : مجالس الغناء والطرب والموسيقى ، ومجالس القصص ، ومجالس الوعاظ ، وغيرها . ومن الجدير بالذكر أن فكرة المجالس عرفت في العهد الراشدي حيث امتازت بالبساطة ، وكانت تعقد في المساجد والمنازل وكان الناس يلتقون الخلفاء مباشرة دون أن يمنعهم حاجب أو حرس . أما عمال الأقاليم والمدن فقد امتازت مجالسهم بالأبهة وذلك لقربهم من الفرس والروم ، وفي العصر الأموي شهدت تلك المجالس مظاهر الأبهة وعينوا لها الحجاب والحراس .

1 – مجالس الطرب والغناء :

وقف المتشددون من المسلمين ضد الغناء والموسيقى موقفا معارضا حيث فسروا بعض الآيات القرآنية على أساس أن الغناء باطل من أساسه ، كما رووا عن الرسول ﷺ والصحابة الأوائل أقوالا في عدم الترحيب به ، وفي مقابل ذلك فسر المتساهلون مع الغناء عددا من الأحكام التي تبيح الغناء وأوضحوا أن أصل الغناء هو الشعر الذي أجازه الرسول ﷺ واستمع إليه .

وكان شعر الرجز أول ما تغنى به العرب على إيقاع مسيرة الجمل وهو ما عرف (بالحداء) ثم تطورت مع الوقت ، وكان إتقان الغناء نتيجة طبيعية لاستخدام الآلات الموسيقية التي انتقلت من بلاد فارس إلى الحجاز على أواخر عهد عثمان بن عفان حينما ظهر في المدينة مغنيان فارسيان هما : (نشيط) و (سائب) ، وذاع صيت الأخير وطلبه يزيد بن معاوية ولي العهد ليغني أمامه . ومن أشهر المغنين سائب بن سريح المخنث الذي كان يضع شعرا مستعارا ويلبس قناعا على وجهه ، ويعد ابن سريح أول من ضرب العود بمكة وأول من غنى بالحجاز ، كما اشتهر معبد بن وهب بالغناء بالمدينة وأصبح فيما بعد مطربا للخلفاء الأمويين ، إذ غنى ليزيد بن عبد الملك وتوفي في دمشق وهو ضيف على الوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن المطربات المشهورات جميلة مولاة بني سليم التي غنت في المدينة وتعلمت الغناء عليها سلامة وحبابة جاريتا يزيد بن عبد الملك .

إن ازدهار الغناء والموسيقى في الحرمين الشريفين من الأمور المستغربة رغم معارضة الكثير من المتشددين المسلمين الذين أرادوا لمجتمع مكة والمدينة الحفاظ على نقائه الأول ، ولا شك

أن ذلك الازدهار كان وثيق الصلة بمرحلة التطورات التي حدثت منذ أيام الخليفة عثمان حيث تدفقت الأموال على كبار الصحابة الذين انتابت بعضهم الرغبة في التمتع بمباهج الحياة وامتلكوا الجواري الروميات والفارسيات بعد الفتوح ، كما أدى عنف الأمويين تجاه خصومهم في الحجاز إلى ترك الكثير من المعارضين العمل السياسي والانصراف إلى التمتع والغناء .

لقد ازدهر الغناء بفضل رعاية الخلفاء الأمويين وبخاصة يزيد بن عبد الملك الذي وهب نفسه للقيان وصرف جهده وماله في السماع ، ثم أدمن الوليد بن يزيد الغناء والطرب مما كان له أثره في المجتمع حتى قيل إن شهوة الغناء انتشرت حتى غلبت الخاص والعام ، ولم تقتصر مجالس الطرب على الخلفاء فحسب ، وإنما امتدت إلى مجالس الولاة الأمويين كزياد بن أبيه وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف التي كانت تعج بالمطربين والندماء والمختشين والمضحكين .

وفي العصر العباسي تطور فن الغناء بصورة واضحة نتيجة لتأثير العباسيين بالفرس والروم وكثرة الجواري ، فضلا عن تشجيع الخلفاء العباسيين للمغنين ومنحهم العطايا والهدايا ، فقد جلس أبو العباس السفاح والمنصور من وراء الستار ، كما استهوى الخليفة المهدي السماع والطرب حتى قال فيه الشاعر بشار بن برد :

بني أمية هبـــــوا طال نومكم   إن الخليفة يعقـــــوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا   خليفة الله بين الناي والعـــــود

وبلغ انغماس المهدي في الغناء والموسيقى إلى حد نبوغ عدد من أبنائه في هذا الفن كإبراهيم بن المهدي الذي ملأ الدنيا غناء وطربا وأخته علية بنت المهدي .

وعرف الغناء دفعة قوية نحو الأمام على عهد الرشيد تتناسب مع ازدهار بغداد عاصمة الخلافة الجديدة وظهرت أسر توارثت الغناء والعلوم والفنون ، ففي مجال الغناء ظهرت أسرة آل الموصلي وابنه إسحاق وحفيده حماد وغيرهم ، واستمر الواثق يرعى الطرب والغناء . وفي خلافة المعتمد عدت سامراء ذروة الغناء العربي حيث بدأت فترة التنظير والدراسة في علم الموسيقى ، ويتضح ذلك في محاضرات ابن خرداذبة في تاريخ الموسيقى، وكانت مجالس الغناء عامرة في الأندلس فيما شهدت استقبال بعض المغنين في العراق كزرياب الذي برع في العود .

وكثيرا ما كانت مجالس الغناء والطرب تقترن بالشراب ويعد لها إعدادا خاصا تنفق فيها أموالا طائلة ، وكان للرقص فيها نصيب أيضا وبخاصة في حفلات الأفراح حيث ترتدي الراقصات الثياب المزركشة ويحملن الزهور والرياحين ويؤدين رقصاتهن على إيقاع الموسيقى .

2 – مجالس القصص والقصاص :

عرفت مجالس القصص في عهد عمر بن الخطاب ﷺ الذي أجاز تميم الداري وعبيد بن عمير ، واستمر عثمان بن عفان في ذلك . وتذكر الروايات أن معاوية بن أبي سفيان ولى رجلا على القصص الخاصة يبتدئ به بعد صلاة الصبح كواجهة دينية لدولته برواية القصص الديني والدعاء لمعاوية والنيل من أعدائه ، ونجد أحيانا القصاصين في صفوف المقاتلين يحرضونهم على القتال كما كانوا عند العرب قبل الإسلام .

وفي العصر العباسي كانت مجالس القصص تعقد داخل القصور والأماكن العامة ، وفي بعض الأحيان في المساجد والطرقات ، وظل هدفها دينيا للوعظ وذكر أخبار السلف الصالح . غير أن القصاص لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذا الهدف وصارت غايتهم تحقيق المكاسب المادية والمنافع الشخصية ، فأخذوا يرددون القصص الخرافي الذي يرضي أذواق المستمعين وتسلية العامة باختراع الأحاديث وتشويه القصص الديني بالأساطير ، وكثيرا ما جلسوا في المساجد والطرقات والأسواق والمقابر يرددون قصصا لا تخلو من النزعات الماجنة ، الأمر الذي أغضب العلماء ورجال الدين فتصدوا لهم وحاربوهم ، فعندما حاول المؤرخ الطبري التصدي لهم وعدهم بمعية المشعوذين والمنجمين والعراف ، رمى العامة داره بالحجارة حتى سدوه وصعب عليه الخروج منه .

ثم استجاب الخليفة العباسي المعتضد لدعوة العلماء ورجال الدين بإيقاف نشاط القصاص عندما منع القصاص من الجلوس في المساجد والطرقات ، وفي سنة 367هـ منعهم من الظهور في الأماكن العامة منعا باتا ، وازدادت إجراءات الخليفة القادر بأمر الله سنة 408هـ بأن أمر بضرب القصاص واتخذ الإجراءات المشددة ضدهم بهدف القضاء عليهم ، وفي أواخر القرن الرابع الهجري غدا أكثر مثيري الفتن بين الطوائف الإسلامية من القصاص مما أفقدهم كل ثقة أهل التقى والصلاح .

3 – مجالس الوعاظ :

يفترض أن تكون مجالس الوعظ ذات صبغة دينية بناءة يشرح فيها الوعاظ المسائل الشرعية وإجابة الحاضرين على أسئلتهم ، فبدأت تلك المجالس بداية طيبة فنهضت برسالة لها خطورتها في توجيه الناس نحو الخير والصلاح ، لكنها لم تلبث في القرنين الثالث والرابع الهجريين أن تحولت إلى مجرد وسيلة للكسب المادي فانحط المستوى الفكري للوعاظ واحترفوا نشر الخرافات والبدع ، وربما استغلهم بعض الحكام للدعاية له ضد أعدائه مما صبغ مجالسهم بصبغة سياسية ، فلما أحست الدولة بهذا الخطر أصدر القادر أمرا بتحديد مجالس الوعظ وجعلها مقتصرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

خامسا : العادات والتقاليد الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي

حاول الإسلام طبع المجتمع العربي بطابعه الجديد وفق مبادئ الشريعة الإسلامية ، وعندما خرج العرب من جزيرتهم لنشر الإسلام كان عليهم التخلي عن عصبيتهم القبلية والتعامل مع الحالة الجديدة التي شكلتها عدة اعتبارات ، بعضها يتعلق بتراث الشعوب والعناصر التي اختلط بها العرب ، وبعضها يتعلق بالأمصار التي سكنوها بعد انتصاراتهم العسكرية .. كل ذلك صاغ الأنماط العامة لأخلاق وعادات المجتمع الإسلامي الذي كان مزيجا من عناصر الخير والشر والزهد والمجون .

وفي العصرين الأموي والعباسي ازداد اختلاط المجتمع العربي الإسلامي بالشعوب الأخرى كالفرس والروم والأتراك ، ونشطت حركة التأثر والتأثير بوسائل مختلفة كالمصاهرة والترجمة وانتقال الثقافات المختلفة والسكنى والمصالح المتبادلة ، ولم تعد مجتمعات المدن والأقاليم بمعزل عن هذه التأثيرات فازدهرت الحياة الاقتصادية والثقافية وتعقدت الحياة الاجتماعية بين طبقات المجتمع .

وسنتناول باختصار أهم العادات والتقاليد الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي :

1 – الأسرة العربية الإسلامية :

ظل الطابع العام للأسرة الإسلامية هو السائد سواء من ناحية مركز الأب ونفوذه على الزوجة والأبناء أو احترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم ، واعتاد الرجل قضاء معظم نهاره

في عمله خارج المترل والعودة إليه بعد انتهاء عمله . أما الزوجة فكانت تقوم بشؤون مترلها وربما خرجت إلى الأسواق لإحضار مطالب الأسرة حتى إذا ما اقترب موعد عودة زوجها ارتدت الثياب الرقيقة لتظهر أمامه في صورة فاتنة . وفي هذا الصدد نصح أكثر فقهاء المسلمين النساء باستكمال زينتهن داخل المترل بتسريح الرأس وتزيين الشعر ووضع الطيب لأزواجهن .

وكانت نظم الأسرة في العهد الأموي نظما عربية خالصة ، فقد أقاموا وزنا كبيرا للدم العربي . أما في العصر العباسي فقد تبدلت الأحوال وغزت النساء الأعجميات من رقيقات وغيرهن بيوت الطبقة العليا والوسطى وعجت الدور بهن ، وبذلك ضاع الدم العربي وضاعت الطبقة العربية التي تعتز بدمها العربي في العصر الأموي ، وحلت محلها طبقة من الهجناء الذين لا تهمهم عراقة الأنساب ولا نقاوة الدماء . وفي نهاية العصر العباسي انحطت الأسرة العربية انحطاطا مريعا فسقط مستوى الأخلاق لكثرة انغماس الناس في الشهوات .

وأضحى البيت الإسلامي يعج بالزوجات المتعددات الأصول ، وتبع الناس في ذلك خلفاءهم فتاه الناس في تلك البيئة المنحلة المضطربة ، وكثرت الجواري والغلمان وصارت لهم دور خاصة للهو والفسق ونبغ في هذا العصر فسقة مُجان .

2 – المساكن والدور :

لا نملك معلومات دقيقة عن هندسة ومفروشات وآنية البيت العربي في العصر الأموي والعصر العباسي الأول بل لدينا معلومات متفرقة ليست ذات غناء كبير ، ويبدو أن البيت أو الدار الإسلامية في العصر العباسي ظلت كما كانت عليه الحال قبل الإسلام والعهد الإسلامي ، فقد عرف العرب في الحجاز واليمن أيام الجاهلية الأبنية العالية ذات الطبقات الكثيرة كما عرفوا السراديب التي تقيهم من الحر ، وأغلب الظن أنهم لما دخلوا البلاد المفتوحة أعجبهم نمط البيوت التي كانت في الشام والعراق ومصر فاستساغوها بعد أن غيروا فيها بعض التغييرات التي اقتضتها البيئة الإسلامية كجعل محلات خاصة بالنساء بعيدة عن أمكنة تواجد الرجال .

وصف المستشرق ديموجين البيت العربي وصفا نظن أنه كان مطابقا لواقع البيوت العربية آنذاك قائلا :" عرفت بلاد العرب منذ الجاهلية بيوتا ذات عدة طبقات وقلاعا من السهل أن تقاوم ضد أسلحة البدو البسيطة ، وتكون الغرف المشيدة تحت الأرض ملجأ في حالات تطرف

درجات الحرارة ، ونجد أن البيوت ذات الطابق الواحد هي الشائعة وتتكون من صالة صغيرة تفتح على المدخل حيث يجد الزائر دكة يستريح عليها منتظرا أحد أفراد المنزل أو تقوده خادم عجوز خلال ممر إلى فناء المنزل المستطيل الذي يحوي في وسطه بركة ماء ، وتزينه ببضعة شجيرات ، وعليها تفتح الأبواب والشبابيك الضيقة للغرف ، وفي إحدى الزوايا سلم يؤدي إلى السطح هو مجال النساء وملجأهن في ليالي الصيف . أما الداخل محجوب تماما عن أعين المارة ومحمي ضد حوادث السطو ، والأثاث قليل يتألف من بضعة صناديق مغطاة برسوم بسيطة وبعض الحصر والسجاجيد وأدوات وأوان معدنية وفخارية ، كما تحاط غرف الجلوس المفروشة بالمراتب ومن ورائها النمارق والوسائد . أما الإنارة فغالبا بالشموع أو قناديل الزيت التي توضع في المشاكي " .

هذه حال دور الطبقة الوسطى . أما دور الطبقة الدنيا فكانت أقرب إلى دور البداوة ، وتتكون من ساحة صغيرة قسمت إلى أربعة أقسام رفع في كل جزء منها حيطان من طين وسقفت بالخوص أو أوراق الشجر بلا شبابيك ، وفي هذه الغرف يسكن الإنسان وإلى جانبه ماشيته في الغالب .

أما دور الخلفاء والأعيان والأمراء فقد بلغت حدا عاليا من الترف في سعة البناء والفخامة والزخارف واستكمال مظاهر الرفاهية والراحة ، ففيها الكراسي الأنيقة والسجاجيد البارعة والدواوين المطرزة والمصابيح المذهبة وأواني الطعام والشراب الفضية والعادية المطعمة . وكانت منازل هذه الطبقة تبرد صيفا بالثلج بطرق خاصة ، وفى عهد المنصور اتخذت طريقة أخرى للتبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء حتى يبرد الجو ، وقد شاعت هذه الطريقة في بغداد ، كما استعملت المراوح في فصل الصيف التي تعلق في سقف البيت وهى تشبه شراع السفينة ويشد بها حبل يديرها وتبل بالماء وترش بماء الورد ، وكانت دور كبار رجال الدولة من الفخامة والمتانة مما يؤكد تكاليفها العالية فقد بنى الوزير ابن الفرات داره الكبيرة بثلاثمائة ألف دينار . أما دار الخلافة فكانت لسعتها مدينة قائمة بذاتها تشتمل على دور بساتين ومصطبات مظللة بالأشجار وعلى قباب وأروقة ومزينة بالبرك والأنهار الجارية ، وكانت الأروقة تسمى الأربعين أو الستين تبعا لعدد الغلمان أو الحرس الذين يجتمعون فيها ، وكانت زخارف هذه القصور فائقة الوصف من أشجار وأزهار وفرش وتحف ، ومن أروعها ما كان في قصر وهي شجرة فضية وزنها خمسمائة ألف درهم تقوم وسط بركة مدورة

صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشرة غصنا عليها الطيور والعصافير وأكثر قضبان الشجرة من الفضة والذهب ولها ورق ملون ، وقد أدخل الخليفة المقتدر رسل الروم لهذه الدار فأعجبتهم تلك الشجرة أكثر من أي شيء شاهدوه .

وكانت قصور الفاطميين الكبيرة والصغيرة تتصل فيما بينها بسراديب تحت الأرض يدخل فيها الناس ويخرجون دون أن يراهم أحد ، واحتوى قصر عضد الدولة البويهي بشيراز على ثلاثمائة وستين غرفة يجلس كل يوم في غرفة حتى ينتهي الحول .

وازداد التأنق والتفنن في بناء الدور والقصور أواخر القرن الثالث الهجري ، فكان في قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعا وعرضها خمسون ذراعا .

واعتنى الناس بالأزهار والأشجار وأصنافها حتى كان لها تجار متخصصون ، واشتهر الخليفة القاهر ببستانه الذي حملت أشجاره من الهند، وولع خمارويه الطولوني بالأزهار والبساتين وأصناف الشجر ، وكان المصريون يضعون أشجارا على سطوح منازلهم تبدو كأنها بساتين فإذا اشترى أحدهم منها ينقلها إلى داره دون أن يصيبها بشيء .

3 – الطعام والشراب :

أدى انتقال العاصمة إلى بغداد لإدخال الكثير من الأطعمة الفارسية والتركية في المطعم العربي ، وكانت للطعام آداب تمسك بها المعاصرون منها التسمية أول الأكل والحمد والشكر في آخره ، والاتكاء على الفخذ الأيسر عند الجلوس للأكل . والأكل بثلاثة أصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغة وتقليل الكلام أثناء الأكل ، وقد نال الاهتمام بفن الطبخ عناية كبيرة من المؤلفين فقد ألف المنجم أبو الحسن علي بن هارون المنجم وإبراهيم بن المهدي وجحظة البرمكي لكنها ضاعت مع الأسف ، وامتازت حياة المنازل بظاهرة لا نجد لها مثيلا في المجتمع الأوربي في العصور الوسطى وهي كثرة الولائم المنزلية ، ففي كل مناسبات الزواج والولادة والختان والاحتفال بعودة المسافرين ، وضعت لهذه المآدب آداب وقواعد خاصة أهمها أن على صاحب البيت أن يبدأ بالأكل إيناسا للضيوف ويعزم عليهم ، ولا يمعن في الأكل حتى إذا شبع الضيوف فحينئذٍ يأكل بانشراح ، وأن يقدم لضيوفه قبل الأكل وبعده ما يغسلون به أيديهم على أن يبدأ بالغسل أفضلهم ، ويكون صاحب الدار آخر من يغسل يديه .

أدى ترف ورفاهية ولائم الأغنياء والولاة أن يجعلوا لها آدابا خاصا أخذوا أكثرها عن التقاليد الفارسية ، وحفظت لنا كتب التاريخ معلومات قيمة عن تلك الآداب ، فيذكر الجهشياري في كتابه الوزراء في هذا الصدد ما نصه :

" إن الوزير ابن الفرات كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم ، وكان منهم أربعة نصارى كانوا يقعدون إلى جانبه وبين يديه ويقدم إلى كل واحد منهم طبقا فيه أصناف الفاكهة ، ثم يجعل في الوسط طبقا كبيرا يشمل جميع الأصناف وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه ، فإذا بلغوا حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الأباريق فغسلوا أيديهم" .

وبلغت أنواع الأطعمة أوجها في العصر العباسي الأخير ، فيذكر لنا الوشاء في كتابة (الموشيء) فصل عن آداب موائد الطعام ومجالس الشراب ، ويفصل فيه أنهم كانوا يكرهون أنواعا خاصة من الأطعمة ويبتعدون عنها كالهندباء والفجل لنتنها والكراث والبصل لرائحتها ، وكانوا يمتنعون عن أكل الزيتون والتمر والمشمش والأجاص وغيرها مما له نوى لما في إخراج النواة أمام الحاضرين من نقص في الذوق ، وأنهم لا يأكلون السمسم المقلي والزبيب الأسود لأنهم يشبهونه بالبعر ، ويأكلون مع الشراب مملوح البندق والفستق وتفاح الشام وقصب السكر المغسول بماء الورد . ولاشك أن هذا كان نوعا من الرفاهية والترف لم تصل إليه مجالس اللهو والشراب في أرقى عصورها في أوربا .

أما الشراب فقد كان منتشرا رغم نهي القرآن الكريم عنه لكنه اختلف باختلاف البلاد الإسلامية ، ولم يكن الشراب مقصورا على العامة بل ابتلي بعض العلماء بهذا الداء . وعظم تعاطي الشراب في العصر العباسي وصار كثير من الخلفاء يشربون الخمر وعرف ذلك عنهم فلم يأنفوا منه ، وجدد العباسيون نظم مجالس الشراب الساسانية وآداب الندماء على الطريقة الفارسية فصرنا نجد في بيوت الأكابر إلى جانب الطباخين والخدم رجالا يسمون (الشرابيين) للعناية بالشراب وآلته وفاكهته ، وكان أكثر الساقين من أهل الذمة ولم يتورع كبار رجال الدولة عن شرب الخمر رغم تحريمه .

وازدادت الموبقات وشرب الخمر إلى درجة اضطرت الفقهاء الحنابلة إلى الثورة لمطاردة هؤلاء الفساق وكسر الخمر آلات الغناء ودنان الخمر وتخريب دور اللهو والمجون . ومنع بعض الخلفاء ذلك أيضا ، ففي سنة 312 هـ أمر الخليفة الظاهر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة

وأمر ببيع الجواري والمغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء . وكان القاهر مولعا بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقا لتحصيل غرضه رخيصا . وامتنع الخليفة الراضي عن شرب الخمر لكنه لم يمنع جلساءه من الشراب . وترك الخليفة المستكفي النبيذ قبل الخلافة ولكنه عاد إليه بعد استخلافه . وروي عن الحكم الفاطمي نهي الناس عن شرب الخمر حتى اتخذ أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم طبيبا له فأشار عليه بشرب النبيذ فسمح به واستدعى المغنين إلى مجلسه ، ولما مات طبيبه عاد الحاكم ثانية إلى منع النبيذ والخمر وعاقب عليهما .

4 – وسائل التسلية :

اتسمت الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية بتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس ، ومن أشهر وسائل التسلية في العصر العباسي التي انتشرت بشكل واسع لعبة الشطرنج ، وكان الصولي ت 300 هـ أحسن لاعب للشطرنج وقد مهد له ذلك دخول دار الخلافة ، وقد رعى الخليفة المعتضد هذه اللعبة بآلة مستحدثة تسمى (الجوارحية) وتسمى بأسماء حواس الإنسان .

كما انتشرت لعبتا النرد والقمار اللتان نهى عنهما القرآن الكريم ، ويحكى أن الشريف الرضي ت 406 هـ عاقب أحد العلويين لأنه كان يقامر بما يتحصل له من حرفة يعاينها ويترك أطفاله محتاجين ، وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من وظائف المحتسب، وكان في مصر شيوخا يسمون (المطمعين) لهم جراية من دور القمار لقاء جلبهم الناس إليها ويطمعونهم في اللعب .

ويتسلى الناس أحيانا بألعاب اتخذت طابع المقامرة مثل : تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمنافرة بالديوك فيراهن الشخص على الطير أو الديك فإذا فاز كسب الرهان ، ويدخل في هذا النوع من الألعاب أيضا المعالجة أي رفع الأثقال والمثاقفة وهو الخصام والجلاذ والطعان بالرمح والملاكمة والمشابكة ، وكل هذه الألعاب تتم بطريق المقامرة والرهان ، فضلا عن البهلوانات والحواة التي يتسلى بها الناس بالمدن.

أما الألعاب الرياضية عند الأمراء والأعيان والوزراء فهي الصولجة وأصلها فارسي في حين مال البويهيون إلى المصارعة ، فقد شجعها معز الدولة ببغداد وانتشرت بين أحداث بغداد ، وظل الصيد والقنص من أهم أنواع الرياضة التي يفضلها الخلفاء والأمراء ، وعرف

عن الخليفة المعتصم (حيرا للوحوش) في سامراء لحفظ الحيوانات الوحشية ، وبنى خمارويه في مصر دارا للسباع ، وكان ابن صنبازه من مصر ت 391 يهوى تربية الأفاعي والعقارب في داره .

ومن وسائل التسلية التي شاعت في كثير من أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة مصر لعبة (خيال الظل) ، وفيه كانت تعرض تمثيليات في شكل عرائس وصور من الجلد أو الورق المقوى وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الستارة ليراها الناظر من الوجهة الأخرى ، وفي تلك العرائس ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة الحركة ويحركها مقدم التمثيلية بعصا في يده حسب الحوار الدائر في القصة .

ويبدو أن (خيال الظل) غدا في وقت من الأوقات تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع ، وكان صلاح الدين الأيوبي شغوفا وقت فراغه وراحته بحضور تمثيليات خيال الظل ومعه وزيره القاضي الفاضل .

5 – الأعياد والاحتفالات في المناسبات :

اعتادت المجتمعات الإسلامية أن تشهد كثيرا من الاحتفالات والأعياد الدينية التي يحتفل بها المسلمون والوطنية أو شبه القومية التي يحتفل بها المسلمون وغيرهم ، وفى تلك الاحتفالات كان الناس يضعون الزينة ويكثرون من الأضواء ويعملون الولائم ويتصدقون بأنواع الصدقات . أما الخلفاء والسلاطين فكانوا يبالغون في توزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين ، فضلا عن منح الهبات للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والقادة .

ومن أبرز الاحتفالات الدينية عند المسلمين الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وقد أشـــارت الروايات أن أول احتفال بولادة الـــرسول صلى الله عليه وسلم كان سنة 300هـــ .

لكنه أبطل لأن المستمسكون بالتقاليد الإسلامية الأولى اعتبروه بدعة ثم أعاده مظفر الدين كوكيورى حاكم أربيل ت 630 هـــ ، وجدد الاحتفال به بقراءة السيرة النبوية وقصة الإسراء والمعراج ، كما أن صاحب الاحتفال كان يقيم الولائم لرجال الدين والصوفية والفقراء .

وكان الاحتفال بعيدي الفطر المبارك والأضحى من أكبر المناسبات عند المسلمين وبخاصة في بغداد والقاهرة حيث يستعد الجميع للأعياد بالملابس الجديدة وإعداد الكعك والحلوى ، وبعد الاحتفال بصلاة العيد يهرع الناس إلى المتنزهات ، وفى مصر تعمل الأسمطة ، وفى كثير من هذه الأعياد يخرج الخليفة أو السلطان في حفل كبير بأبهى صورة وسط تهليل الناس وزغردة النساء ودعاء الرجال . ويتجلى الكرم وتكثر الصدقات في شهر رمضان المبارك ، فيذكر أن دار الصاحب بن عباد كانت لا تخلو فى كل ليلة من ليالي رمضان من ألف شخص يفطرون على مائدته ،وكانت صدقاته فيه تعادل ما يطلقه في السنة كاملة . وظل عيد رأس السنة الهجرية عيدا في قصر الخلافة ولا يحيط غيره من الفخامة لكونه متنقلا وليس له موعد ثابت .

وهناك نوع آخر من الاحتفالات التي اتصفت بالمسحة الإقليمية واتخذت طابعا محليا اختصت به مدينة دون غيرها من المدن الإسلامية وبخاصة حواضر الأقاليم وعواصم الدول المستقلة ، ومنها الاحتفال بتولية خليفة جديد أو سلطان أو عودته من الحرب منتصرا أو شفائه من مرض ، وفي هذه الحالات كانت المدينة تتزين بأنواع الزينة وتمد الأسمطة في قصر الحاكم وتضاء الدكاكين والحوانيت بالشموع والقناديل وتجلس المغنيات وتدق بالدفوف فيختلط صوتها بزغاريد النساء ودعاء الرجال ،وقد شهد الرحالة ابن بطوطة أفراح أهل القاهرة بمناسبة شفاء الناصر محمد سلطان المماليك في مصر من كسر أصاب يده فوصف تفنن التجار في تزيين أسواقهم وكيف أنهم علقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما .

ومن الأعياد المحلية عيد النوروز والربيع وهو مبدأ السنة الشمسية ، وكان ذلك من المؤثرات الفارسية الواضحة وخاصة في العراق حيث يتبادل الناس الهدايا ويوزع الخليفة في بغداد صور مصنوعة من عنبر وورد أحمر ، ويروى أن المتوكل احتفل بهذا العيد وكان أصحاب الأقنعة يرقصون أمامه وهو ينثر عليهم الدراهم .

أما في مصر فإن الأصل في عيد النوروز أنه من أعياد النصارى ويكون في أول شهر (توت) أي رأس السنة القبطية ولكنه غدا في أواخر العصور الوسطى – وبخاصة في عصر سلاطين المماليك – عيدا عاما يشترك في إحيائه المسلمون والمسيحيون على حد سواء فيصنعون الحلوى ويتبادلون في شكل هدايا ، ويخرجون إلى الطرقات وأماكن النزهة يلعبون ويلهون في حين تتعطل الأسواق عن البيع والشراء . وفي مصر يحتفل بهذا العيد حيث ينتخب

رجل يسمونه (أمير النوروز) ويطلي وجهه بالدقيق أو الجير ويركب حمار ويدور في الشوارع ويرتدي ثوبا أحمر أو أصفر ويسير معه جمع كبير من الناس ويطلب من المارة رسما يرتبه لنفسه بموجب سجل فمن لا يدفع رش بالماء الممزوج بالقاذورات ، ومن عادة الناس في رأس السنة الفارسية رش بعضهم بعضا بالماء حتى منعها سلطان مصر سنة 335 هـ ثم أبطل السلطان برقوق هذا العيد نهائيا .

ويأتي بعد عيد النوروز عيد آخر هو عيد المهرجان وفيه يخلع على القواد ورجال دار الخلافة ملابس الشتاء كما يغير العامة فرشهم وملابسهم في هذا العيد ويقدم الرعية هدايا للسلطان .

وثمة مناسبات محلية يحتفل بها في مصر احتفالا كبيرا ومنها الاحتفال بوفاء النيل ، فإذا أعلن عن ارتفاع ماء النيل ستة عشر ذراعا أعرب المصريون عن فرحتهم بإشعال الشموع والقناديل واستئجار المراكب وتزيينها ثم يحتفل بكسر الخليج في موكب كبير يخرج فيه السلطان ومعه كبار رجال الدولة إلى مقياس الروضة حيث يمد سماط كبير .

وهناك أعياد للنصارى كانوا يمارسون الاحتفال بها بحرية تامة ويشاركهم فيها المسلمون في أحيان كثيرة ، ومن أشهر أعياد النصارى : عيد (أحد الشعانين) ويسمى في مصر عيد (الزيتونة) وكان يحتفل به في قصر الخلافة ببغداد وفي بيت المقدس ، وعيد (الخميس المقدس) الذي يسمى في مصر (خميس العدس) لأن النصارى يأكلون فيه العدس ، وفي يوم عيد الفصح كان المسلمون والنصارى يقدسون دير سمالو الواقع شرق بغداذ بباب الشماسية ويحضره أهل اللهو والطرب . ومن الأعياد النصرانية أيضا عيد (القديسية أشموني) وهو من الأعياد ببغداد يجتمع فيه الناس ويحضره أهل الطرب واللهو في السفن . وفي مصر عيد (الغطاس) إذ يغطس الكثير من النصارى فى هذه المناسبة فى مياه النيل ، وكان صاحب الشرطة يمنع المسلمين من الاختلاط مع النصارى فى هذا العيد . وفى سنة 415 هـ تطلع الخليفة الظاهر الفاطمي لهذا العيد وأمر بأن توقد النار والمشاعل ليلا ابتهاجا به . وللنصارى عيد (الشهيد) وفيه يلقون فى النيل تابوتا من الخشب يحوي إصبعا من أصابع أسلافهم زاعمين أن ذلك لا يزيد ماء النيل وفى هذا العيد يجتمع أهل اللهو والفسق والمجون في مدينة(شبرا) ويباع فيه الخمر بما قيمته مائة ألف درهم وقد أبطله الناصر محمد بن قلاوون في القرن الثامن .

ومن الأعياد التى يشترك فيها المسلمون مع النصارى في مصر عيد الخروج لسجن يوسف (ع) بالجيزة ، وكانت العادة أن يطوف المحتفلون بالأسواق بالطبول والأبواق ليجمعوا من التجار ما ينفقونه بخروجهم ، ولما امتنع التجار من الدفع سنة 415 هـ لشدة الغلاء أمرهم الخليفة الظاهر بدفع الضعف وخرج الناس إلى السجن ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات وشاركهم الخليفة الاحتفال .

6 – الملابس والأزياء :

عرف المسلمون فى صدر الإسلام خشونة العيش والزهد والتعفف فى الملبس والمأكل ، وبعد إنجاز الفتوح واستقرار الفاتحون في الأمصار تأثروا بملابس الفرس والروم ، وتأثر الخلفاء الأمويون بمخلفات الأمم السابقة فاستعملوا الوشى الذي كان يجلب من اليمن والكوفة ، وبلغ ولع الخليفة سليمان بن عبد الملك حدا أنه منع دخول أهل بيته وعماله وأصحابه إلا في الوشى، واجتمع لدى هشام اثنا عشر قميصا ، وكانت كسوته إذا حج تحمل على سبعمائة جمل ، وكانت أثواب الخلفاء وولاتهم تنسج في دور الطراز ويكتب عليها اسم الخليفة ، وإذا تمرد الوالي على الخليفة أزيل اسمه من ردائه .

اختلفت ملابس العرب والمسلمين باختلاف مهنهم ومراتبهم الاجتماعية وقدرتهم المالية ، فقد لبس القضاة القلانس العظام ولبس الشعراء الوشي والمقطعات والأردية السود وكان الجند المشاة يلبسون القمصان المحاكة على أجسامهم إلى ما تحت الركبة ويضعون على رؤوسهم الخوذ ويلبس بعضهم الأقبية فوق الدروع ، كما لبس وجوه المسلمين في دورهم الأكسية وإذا خرجوا منها لبسوا المطارف . أما أشهر ملابس العامة فهي القميص والطيالسة والعمائم والمدد ، ولبس العرب (التبان) وهي سراويل صغيرة أخذوها عن الفرس كما استعملها الملاحون ، في حين كان لباس البدو مؤلفا من قباء طويل مشقوق من الوسط ومربوط بحزام من الجلد وكثيرا ما ارتدوا العباءة فوق القباء .

وفي العصر العباسي أمر المنصور سنة 153 هـ بلبس القلانس الطوال والدراريج وتعليق السيوف في أوساطهم ، ولما جاء المستعين 248-252 هـ صغر القلانس وأحدث لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن معهودة من قبل فجعل عرضها ثلاثة أشبار ، وكان الأغنياء يلبسون قميصين ورداء فوق السراويل وهو ما ارتداه الخليفة القاهر عند مبايعته

سنة 321 هـ ثم صار القباء لباسا رسميا لرجال الدولة سنة 300 هـ ، حتى كان لا يدخل المقصورة يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود وجعل الرشيد للعلماء زيا خاصا بهم رتبه لهم القاضي أبو يوسف يتألف من العمامة ومن فوقها الطيلسان .

واختلف لباس الرأس باختلاف الأزمنة والأمكنة لكن الغالب كانوا يرتدون العمامة التي تختلف من حيث حجمها تبعا للسن والمركز العلمي والاجتماعي ، وجرت العادة أن يرتدوا الطيلسان فوق العمامة وهو منديل كبير يتدلى على الكتفين ليقي الرقبة من حرارة الشمس ، ولبس البدو العمامة الخفيفة وكانوا يشدون بها أوساطهم عند العمل ، وكان أهل البصرة يكورون العمامة على رؤوسهم ولبس التجار قلنسوة سوداء طويلة .

منع الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أهل الذمة من التشبه بملابس المسلمين فجعلوا في أوساطهم الزنارات وهي الخيط الغليظ المعقود في وسطه ، وأن تكون قلانسهم طوالا ونعالهم متينة ، ونهى عمر بن عبد العزيز أهل الذمة عن لبس القباء والطيلسان والسراويل ، وأمر أن تكون الزنارات من الجلد وكلف المحتسب بمراقبة أزيائهم .

أزياء النساء :

تكونت ثياب النساء من سروال فضفاض وقميص مشقوق من الرقبة عليه رداء قصير يلبس عادة في البرد وإذا خرجت من بيتها ارتدت (الحيرة) وهي نوع من برود اليمن ، وهي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها من التراب والطين ، وكن يرتدين الشفوف والثياب والصدريات ويضعن على رؤوسهن ما يستر شعورهن . وفي العصر العباسي استحدث نوع جديد من أغطية الرأس قيل إن أول من لبسته علية أخت الرشيد وهو قبعة مزركشة من الحرير في أسفلها دائرة يمكن ترصيعها بالجواهر والحلي .

وتوسع نشاط في شوارع المدن وأسواقها ، فقد لاحظ الفقيه ابن الحاج في القرن الثامن الهجري أن النساء في عصره يباشرن معظم أمور الشراء من الأسواق بل إن أغلبهن يشترين لأزواجهن ما يحتاجون من ملابس ، ومع أزياء الثراء وتعقد الحياة في المدن الكبرى تنوعت أزياء النساء وأسرفن في لبس الفاخر من الثياب والحلي ، وقد أفزع هذا الاتجاه الحكام والولاة فتدخلت الحكومات لتحديد ملابس النساء في المدينة ومنعهن من الإسراف ، ففي السنوات 751 هـ و 793 هـ و 850 هـ كان المنادون يطوفون الطرقات في القاهرة وأسواقها

يحذرون النساء من الإسراف في لبس الملابس الغالية ، فإذا وجدت امرأة في شوارع المدينة خالفت هذه التعليمات ضربوها وجرسوها .

ويبدو أن عامة النساء كان لهن بعض العذر في الخروج عن المألوف أحيانا والمبالغة في اللباس ، لأن المدن الإسلامية عرفت المستحدثات في تلك العصور وهو ما نسميه اليوم (الموضة) فأولعت نساء كل طبقة بتقليد نساء الطبقة التي تعلوها . وقد شهد المقريزي ذلك ، ففي حوادث سنة 793هـ أعاب المقريزي على عوام النساء تشبههن بنساء الملوك والأعيان، ويضيف في حوادث سنة 850 هـ أن نساء السلاطين استحدثن ثيابا طويلة تسحب أذيالها على الأرض ولها أكمام واسعة ، ولاحظ ابن الحاج في القرن الثامن الهجري أن نساء القاهرة أحدثن بدعة في ثيابهن في جعلها ضيقة وقصيرة .

ومن ناحية أخرى تقشفت الكثير من النساء في الملبس ، فعندما اشتد تيار التصوف في أواخر العصور الوسطى سلكت بعض النساء في القاهرة وغيرها من المدن التصوف طريق التصوف ، فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال ، وأطلق عليهن الشيخات ولازمت المتصوفة الزوايا والرباطات.



مصادر و مراجع الفصل الخامس

1 - إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر النبوي ، دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، 1990 .

2 - ابن الأثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الطبعة الثالثة ، الجزء السادس ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 .

3 - ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 .

4 - ابن سعد ، محمد عبد سعد الزهري ، الطبقات الكبرى ، الجزء الأول ، دار صادر، بيروت ، 1968 .

5 - ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الجزء الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1953 .

6 - ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ، الجزء الرابع ، بيروت ، 1966 .

7 - ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، الطبعة الرابعة ، الجزء الثاني ، بيروت ، 1971 .

8 - أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين بن محمد القرشي ، الأغاني ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، الجزء السادس عشر ، مطبعة الشعب ، القاهرة ، 1969 .

9 - د . أحمد إبراهيم شريف ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية، الكويت، 1981 .

10 - د . أحمد عبد الرزاق أحمد ، الحضارة العربية في العصور الوسطى ، الجزء الأول، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1990-1991 .

11 - آدم متز ، الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، الجزء الثاني ، بيروت ، 1967 .

12 – البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، الجزء الثاني ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وأخيه عمر ، بيروت ، 1957 .

13 – د . جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الطبعة الثالثة ، الجزء الخامس ، مكتبة النهضة ، بغداد ، 1980 .

14 – زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، المكتب التجاري ، بيروت ، 1969 م .

15 – سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 م .

16 – السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1952 .

17 – الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، مكتبة الحسيني التجارية ، القاهرة ، 1948 .

18 – د . شوقي أبو خليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1993 .

19 – د . صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ،نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

20 – صلاح الدين خدابخش ، حضارة الإسلام ، ترجمة د . علي حسين الخربوطللي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1971 .

21 – الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الجزء الرابع ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .

22 – د . عبد الحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات الجامعة المفتوحة . طرابلس ، 1995 .

23 – د . علي حسني الخربوطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1959 .

24 – الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين ، الجزء الثاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1934 .

25 – القلقشندي ، أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، الجزء الخامس ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1987 .

26 – الماوردي ، أبوالحسن محمد بن حبيب المصري ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978 .

27 – محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ، دار الأندلس ، بيروت ، د.ت.

28 – محمد الطاهر بن عاشور ، أحوال النظام الاجتماعي في الإسلام ، تونس، 1964.

29 – المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، الجزء الثالث ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982 .

30 – د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت، 1975.

31 – د. نبيلة حسن محمد ، في تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د.ت .



الفصل السادس

التربية والتعليم والثقافة والمكتبات في الحضارة الإسلامية

الإسلام والعلم .. (تقدمة) مختصرة

أولا : المؤسسات التعليمية في الدولة العربية الإسلامية

أ – البيت .
ب – الكتاب والكتاتيب .
ج – القصور .
د – المساجد .
هـ – المدارس .
و – المجالس العلمية .
ز – الزوايا والربط .

ثانيا : المكتبات في الدولة العربية الإسلامية

1 – المكتبات العامة :

أ – بيت الحكمة في بغداد .
ب – بيت الحكمة التونسي .
ج – دار الحكمة بالقاهرة .
د – مكتبة قرطبة .
هـ المكتبة الحيدرية .

2 – المكتبات الخاصة (مكتبات العلماء).

3 – المكتبات الطبية .

الإسلام والعلم .. (تقدمة) مختصرة :

اهتم الإسلام بالعلم ودعا إلى تحصيله ، وجاءت أول الأوامر الإلهية التي تلقاها الرسول ﷺ تحث على العلم وفضله قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] ، ولهذه الآية مدلول كبير وعظيم وتأكيد على أن الإسلام جاء ليبدد الظلام وينير طريق البشرية .

وتعددت الآيات القرآنية التي تشيد بالعلم وترفع قدره، وتزكي جهاد العلماء المسلمين . وقد ورد العلم ومشتقاته في نحو تسعمائة موضع في القرآن الكريم ويكفي تعظيم الله للعلم أنه كان صفة من صفاته وهي : العالم ، والعليم ، والعلام . ومن الآيات القرآنية التي جاءت في العلم قوله عز وجل : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[2] و ﴿ وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴾[3] و ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيما ﴾[4] .

وخص الله تعالى العلماء بالعديد من الآيات التي ترفع من قدرهم وتجلهم . ومن تلك الآيات :﴿ يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات ﴾[5] ، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[6]، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا ﴾[7] ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْما ﴾[8] .

---

(1) سورة العلق : الآية 1 – 5 .
(2) سورة القلم : الآية 1 .
(3) سورة الطور : الآيتان 1 ، 2 .
(4) سورة النساء : الآية 112 .
(5) سورة المجادلة : الآية 11 .
(6) سورة العنكبوت : الآية 23 .
(7) سورة الإسراء : الآية 85 .
(8) سورة طه : الآية 111 .

ووردت الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد أهمية العلم والمعرفة كقول الرسول ﷺ : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " و " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " و " يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء " و " من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم " . وغير ذلك من الأحاديث الشريفة ، ولم يختص القرآن والرسول ﷺ الرجال وحدهم بالعلم والتعلم بل تعداه إلى المرأة والطفل دون تحديد لسن التعلم ، فقال الرسول ﷺ : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ".

كان التعليم عند العرب قبل الإسلام محدودا ، فيروى أن عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة حوالي السبعة عشر رجلا ، وأوصى الرسول في بداية دعوته بالعلم في أول مدرسة إسلامية عندما عرض على كل أسير من أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين لقاء حريته ، وقد أثمرت توجيهات الرسول في الحث على طلب العلم فيما ظهر من الصحابة الأوائل من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الذين اعتمد عليهم الرسول ﷺ في جمع القرآن ونسخه، وذلك من واقع المدونات التي كانت لدى كتّاب الوحي ومن صدور حفظته المشهود لهم بالتقوى وقوة الذاكرة .

وقد وردت الكثير من آثار وحكم الصحابة مؤكدة توجيهات الرسول في الحث على العلم ومن ذلك قول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) لكميل بن زياد : "ياكميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق، محبة العلم دين يدان به تكسب المرء الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، ومنفعة المال تزول بزواله ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .. مات خزان وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر" .

وقال ابن عباس ﷺ :" خُيِّر سليمان بن دواد (عليهما السلام) بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه "، وقال الإمام الشافعي ﷺ : " من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو من شيء حقير فرح ، ومن دفع عنه حزن ".

ويمكن إجمال دوافع اهتمام المسلمين بالعلم بما يلي :

1 - حث الإسلام على طلب العلم من خلال القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

2 – أن نشر الإسلام وتعليم علوم الدين الإسلامي للآخرين يحتاج إلى معرفة القراءة والكتابة ، حتى إن الرسول ﷺ نصح زيد بن ثابت بتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم .

3 – بعد استقرار الإدارة في الدولة العربية الإسلامية ظهرت مجموعة من الوظائف التي تستدعي أن يتعلم شاغلها القراءة والكتابة .

4 – ساهم العديد من الخلفاء والحكام المسلمين في تشجيع الحياة العلمية من خلال إغداق الأموال على العلماء وبناء المعاهد والمدارس والمكتبات وغيرها من مؤسسات التعليم .

5 – حرية الفكر التي دعا إليها الإسلام ودعوته إلى إطلاق العقول من قيودها لتنظر في الكون وتفكر فيه بعيدا عن العادات والقيم الموروثة .

أولا : المؤسسات التعليمية في الدولة العربية الإسلامية

أ – البيت : كان للبيت دور رئيسي في غرس منهج التربية الإسلامية التي ترتكز على الإيمان بالله ورسله والتحلي بالأخلاق الحميدة في ذهن الطفل منذ نعومة أظفاره ، والتزم المسلمون بالأخذ بتعاليم الإسلام والاهتمام بدور الأسرة في تربية الطفل قبل ولادته ، ذلك أن الإسلام أكد على ضرورة اختيار الزوجة الصالحة المؤمنة لتكون مع زوج صالح ، وحين يرى الطفل الدنيا لأول مرة فإن أول ما يتطرق إلى سمعه اسم الله ثم يحمل خير الأسماء ويحرص الإسلام على أن يكون للأسرة دور في تعويد الطفل على الفضائل والخصال الحميدة.

واهتم المسلمون بالعلاقات بين البيت والمدرسة ، فالطفل صورة عائلته وتربيته على الفضائل لا يمكن أن يكتسبها في المدرسة ، إنما يمارسها الطفل يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام وتلك هي مسئولية الوالدين .

ب – الكُتّاب والكتاتيب : وهي من أقدم المراكز التعليمية عند العرب ، وقد عرف العرب قبل الإسلام الكتاب لتعليم صبيانهم القراءة والكتابة لكن على نطاق محدود واقتصر على أبناء الأغنياء والوجهاء ، وكان هناك نوعان من الكتاتيب الأول يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، ويقوم بالتعليم بعض الذميين في أحيان كثيرة ، ولم يجلس لتعليم القراءة والكتابة من المسلمين في صدر الإسلام إلا عدد قليل جدا بسبب عدم معرفتهم لها ،

وكان هذا النوع من التعليم يجري في مترل المعلم . أما النوع الثاني : فكان يتعلم فيه صبية الكتاب القرآن الكريم والدين وأطلق على المكان اسم (الكُتّاب) .

لم تظهر الكتاتيب في صدر الإسلام إذ كان الأطفال يندسون بين الكبار في مجالسهم وحلقاتهم في المساجد ، كما يتلقى بعضهم القرآن الكريم من آبائهم وذويهم ولم تكن الكتاتيب في المساجد إذ لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي ﷺ أمر بتتريه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، واتخذ بعض المعلمين من الدروب وأطراف الأسواق والمناطق القريبة من المساجد والغرف الملحقة بها أماكن لتعليم الصبيان .

كانت مكانة الكتاب في القرون الهجرية الأولى عالية الشأن ، إذ يعد بداية لتعليم أعلى فيروي الإمام الشافعي قوله :" كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني في الكتاب ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع في الثقافة الدينية ".

واشتهر عدد من المعلمين في الكتاتيب وذاع صيتهم ، فكان الحجاج بن يوسف الثقفي معلما بأحد الكتاتيب يعلم الصبيان ويأجرونه خبزا على حين كان عبد الله بن الحرث يعلم دون أن يأخذ أجرا ، وعرف عن الضحاك بن مزاحم ت 106هـ أنه كان مؤدبا للصبيان في أحد كتاتيب الكوفة ، وكان لديه ثلاثة آلاف صبي وهذا عدد كبير جدا فلا بد أن يكون يعلم على هيئة وجبات ، واختلف حجم الكتاب ما بين الحجرة الواحدة والمكان المتسع ، فيروي ياقوت الحموي في معجم الأدباء أن كتاب أبي قاسم البلخي كان به ثلاثة آلاف تلميذ وكان فسيحا جدا يتسع لهذا العدد ، لذا احتاج البلخي أن يركب حمارا ليتردد بين هؤلاء وأولئك ويشرف على جميع تلاميذه ، وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني الهجري حتى أصبح في كل قرية كتاب .

لم تكن مقررات ومواد التعليم في الكتاتيب واحدة في العالم الإسلامي بل اختلفت من قطر إسلامي لآخر ، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن الكريم وأحاديث الأخبار وبعض الأحكام الدينية والشعر ومبادئ الحساب وبعض قواعد اللغة العربية ، إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذي كان له مدرسون متخصصون واستعمل الصبية الألواح في الكتابة . ففي المغرب العربي اقتصر التعليم على القرآن الكريم وفي الأندلس اعتمد على تعليم القرآن والشعر واللغة والخط في حين كان أهل المشرق وإفريقيا يخلطون في تعليم أبنائهم بين القرآن والحديث والعلوم والخط .

وكانت مدة بقاء الطفل في الكتاب خمسة أعوام أو ستة على الأكثر وتكون في الغالب ابتداء من السنة الخامسة أو السادسة ، ويحفظ الطفل خلال هذه الفترة القرآن الكريم كله أو بعضه عن ظهر قلب ، وعندما يتم الطفل مدة الدراسة في الكتاب ويحفظ القرآن يمتحنه المعلم ليتأكد منه ، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة ليواصل دراسته إن أراد ذلك .

اتسمت معاملة المعلمين المسلمين لتلاميذهم بالعدالة والمساواة دون تمييز بينهم ، ولم يكن الفقر واليتم عقبة في سبيل التعلم حيث يجد الفقراء فرصتهم للتعليم وحفظ القرآن ، وقد جلس الأطفال والصبيان متجاورين غنيهم وفقيرهم تظللهم الرغبة في التعليم .

وخضعت الكتاتيب لرقابة المحتسب ، فكان يتوثق من معلمي الصبيان ومؤدبيهم ممن تتوفر فيهم الشروط الأخلاقية والاجتماعية والعلمية ، كأن يكون المعلم متزوجا صحيح العقيدة متدينا عاقلا من حملة كتاب الله عالما بالقراءات صالحا لتعليم القرآن والحديث والخط والآداب، كما يشترط على المؤدب أن يترفق بالصغار ويعلمهم قصار السور من القرآن الكريم بعد حذاقته بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل وإجادة الخط وحفظ ما أملاه عليهم ويضربهم على إساءة الأدب والفحش في الكلام .

ج – القصور : صاحب انتشار الكتاتيب عند العامة انتشار التعليم الخاص لأبناء الأسر الغنية حيث كان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين يذهبون إلى قصورهم أو دورهم فيجلس الأولاد إليهم يتلقون منهم قدرا من الثقافة والمعرفة ، وكان الآباء يشتركون في تخطيط وتحديد ما يتعلمه أبناؤهم من معلميهم الخاصين ، وقد أطلق على المعلمين اسم (المؤدب) وأقام بعضهم في تلك القصور حيث أعد لهم جناح للإقامة ليشرفوا على تربية الأولاد .

وكان الخلفاء يوكلون إلى المؤدبين تعليم أبنائهم وتأديبهم دون أن يتدخلوا في شؤونهم . قال الأحمر النحوي : بعث إليّ الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين فلما دخلت عليه قال :" إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام ، وابدأه وامنعه الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا أحضروا مجلسه ، ولا تمرن بك

ساعة إلا وأنت مغتنم منها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به ، فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته ، فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة ".

د – المساجد : يعد المسجد من معاهد الثقافة الأولى لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية ، وكان مسجد الرسول ﷺ في (قباء) أول مركز ثقافي في الإسلام انبثقت منه المعارف ، وكان الرسول ﷺ يجلس فيه يعلم أصحابه شؤون دينهم ودنياهم ثم صار المسلمون يشيدون في كل مدينة مسجدا فعلت المآذن في مختلف الأمصار ، ولم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب بل مكانا للدراسة ومحكمة للتقاضي ومقرا للتوجه إلى الجهاد وغيرها . ويروى أن بعض الصحابة مارسوا التعليم في مسجد قباء في عهد الرسول ﷺ فكانت لأبي عثمان بن ربيعة حلقة دراسية فيه ، ثم أنشأت مساجد أخرى على غراره في البلاد التي فتحها العرب المسلمون ، ومن أشهرها مسجدا البصرة والكوفة ومسجد عمرو بن العاص في الفسطاط ، كما أنشأت مساجد في دمشق وبغداد وغيرها من مدن الأمصار .

وكان النظام التعليمي المتبع في المساجد هو نظام الحلقات التعليمية أو حلقات العلم حيث يجلس الشيخ قرب الحائط أو أعمدة المسجد ويجلس حوله طلابه على شكل حلقة أو دائرة يدونوا ما يلقيه عليهم وتشهد الحلقات في الغالب مناقشات بين الطلبة وشيوخهم ، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان عند اختلاف الآراء إلى اعتزال الطلاب شيوخهم كما حصل لحلقة الحسن البصري في مسجد البصرة ، إذ اعتزله تلميذه واصل بن عطاء لتبدأ فرقة المعتزلة بالظهور منذ ذلك الحادث ، وكان في مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط أكثر من أربعين حلقة دراسية يؤمها الطلبة للدراسة والبحث منها حلقة الإمام الشافعي ، وفي منتصف القرن الرابع الهجري بلغت حلقاته مائة وعشر حلقات خصص بعضهن للنساء ثم ظهر نظام الإجازة "الشهادات العالية" حيث يستخدم الطالب بعد الإجازة كتب أستاذه ويمكنه الرواية عنه .

وعد الجامع الأموي بدمشق من عجائب الدنيا ، فقد أنفق الوليد بن عبد الملك على بنائه خراج الدولة العربية الإسلامية سبع سنوات ، واحتوى على حلقات لتدريس الطلبة . ومن المساجد العباسية ذات الشهرة الذائعة جامع المنصور ببغداد الغربية الذي بناه أبو جعفر المنصور وحدث فيه الخطيب البغدادي ، ومسجد المهدي في الرصافة وقد حدث فيه الإمام أحمد بن حنبل .

ولم تقتصر حلقات الدرس على العلوم الدينية بل تعدته إلى علوم اللغة والطب وغيرها فدرس الكسائي مثلا علوم اللغة في جامع المنصور ، ودرس الحديث الشريف في الجامع الطولوني بمصر ، وفي سنة 360هـ بنى جوهر الصقلي الفاطمي الجامع الأزهر الذي أصبح من الجامعات الأولى في العالم الإسلامي ، فقد خصص للدارسين فيه المرتبات ودورا للسكن بجواره، ومن المساجد التي جرى فيها التدريس مسجد القيروان والزيتونة في شمال إفريقيا ومساجد بخارى وغزنة ، وقرأ الناس في مساجد الأندلس جميع العلوم وبخاصة جامع قرطبة.

تباينت حلقات الدرس في المساجد الإسلامية من حيث سعتها ، فقد اتسعت وصغرت تبعا لعدد الطلاب فيروى أن أبا بكر النعالي ت 380هـ كانت حلقته تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها في جامع عمرو بن العاص ، وكانت بعض الحلقات تتخصص بأصحابها فقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه ت323هـ خمسين سنة بجوار أسطوانة في جامع المنصور دون أن يغير محله .

وللمرأة دور في التدريس في حلقات المساجد فسجلت كتب التاريخ أسماء عشرات النساء المحدثات ومنهن أم الدرداء الصغرى التي روت عن أبي الدرداء ، وسلمان الفارسي وفضالة بن عبيدة وأبي هريرة وكعب بن عاصم وآخرين ، وكان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يجلس بمسجد دمشق يستمع لها . ومنهن زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية ت 740هـ التي كانت تدرس صحيح مسلم ، وسمع عنها الرحالة ابن بطوطة في جامع بني أمية بدمشق .

احتوت المساجد على خزائن للكتب بمختلف الفنون للمطالعة والاستنساخ والتأليف ، وقد ساعد على ذلك حركة الترجمة والتأليف وتقدم صناعة الورق التي ازدهرت ببغداد وانتشرت منها إلى سائر البلاد ، وقد أوقف الكثير من العلماء كتبهم على تلك المساجد ومنهم ابن جزلة الطبيب البغدادي ت493هـ/ 1099م الذي أوقف كتبه بمشهد الإمام أبي حنيفة ، وأوقف المؤرخ ياقوت الحموي البغدادي ت 626هـ كتبه في مسجد الزيدي في بغداد الشرقية .

ومن المساجد التي احتوت على خزائن الكتب خزانة المشهد الشريف الغروي وهي في صحن المشهد الذي فيه ضريح الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في مدينة النجف الأشرف ، وهي من الخزائن القديمة التي تكونت بمرور الزمن من هدايا السلاطين والأمراء

والوزراء والأغنياء التي تحوي الكثير من الكتب الثمينة والتحف النادرة بخطوط أشهر الخطاطين ، وخزانة جامع البصرة فعندما احترق جامع البصرة سنة 624هـ أعاد عمارته أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرومي الناصري ت 640هـ في خلافة المستنصر وبنى في دهليز الجامع حجرتين جعل في أحدهما كتبا ووقف في جميع المدارس كتبا وانتشر العلم في زمانه وقصده العلماء من جميع الآفاق . ومن الخزائن المهمة خزانة جامع قمرية بغداد الذي شيد في خلافة المستنصر بالله العباسي سنة 626هـ وجعل فيه خزانة للكتب وحمل إليها كتب كثيرة .

هـ - المدارس : انتقل التعليم من المساجد إلى المدارس عندما بدأت الحلقات العلمية في المساجد تكثر وتتسع مما سبب الإزعاج والأذى لبعض المصلين الذين تطرق آذاهم أصوات المناقشات العالية الحامية الوطيس داخل المساجد ، ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون والطلاب مجالات أوسع للنقاش والبحث والمجادلة، وفي الوقت نفسه حاول المعلمون الارتزاق باحتراف التعليم فوجدوا ذلك في المدارس التي تقابل الجامعات في عصرنا الحالي .

تختلف المدارس عن المساجد وغيرها من المؤسسات التعليمية الأخرى ، ومن أبرزمعالم المدارس القاعات الدراسية أو الإيوان ، كما احتوت المدارس على مساكن للطلاب والأساتذة، ومسجد للصلاة ومكتبة يستعملها الأساتذة والطلاب فضلا عن المرافق الأخرى كالحمامات وقاعات الطعام ، وفي أغلب الأحيان كانت الدولة تشرف على هذه المدارس وتهتم بالتعليم وترعاه وتعين المدرسين الأكفاء للتدريس وجعلت التعليم مجانا لمن يريده بل إن أكثر المدارس يقدم منحا ورواتب للفقراء من الطلبة .

ولم تعرف المدارس في عهد الصحابة ولم تنشأ إلا في نهاية القرن الرابع الهجري ويروى أن أول مدرسة أوقفت على الفقهاء هي دار علم سابور بن أردشير التي أنشأها سنة 383هـ/ 993م في بغداد الغربية ، كما أنشأ أهل نيسابور عددا من المدارس منها : مدرسة أبو بكر البيهقي ت 458هـ والمدرسة السعيدية التي شيدها الأمير نصر الدين بن سبكتكين ومدرسة أبي إسحاق الاستقراييني وغيرها .

لكن المدارس التي أنشأت بالمعنى الفني هي المدارس النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك ت 485هـ في بغداد والبصرة والموصل ، وكان الدافع لإنشائها مذهبيا وسياسيا

لمناهضة الفاطميين في مصر بعد أن نهض الجامع الأزهر في عهدهم بالتعليم ونصرة الخلافة العباسية من الناحية السياسية والمذهبية . ومن أبرز المدارس في بغداد :

1 – مدرسة الإمام أبي حنيفة : التي بنيت بإزاء مشهد أبي حنيفة سنة 459هـ ونزلها الطلاب وعين لهم المدرسين وخصصت لهم رواتب من أوقافها واحتوت على خزانة أوقفت لها كتب كثيرة حوت أغلب مؤلفات الجاحظ وفيها أوقفت كتب ابن جزلة الطبيب .

2 – المدرسة النظامية : أسسها الوزير نظام الملك ببغداد على شاطئ دجلة وقد شرع ببنائها سنة 457هـ أبو سعيد الصوفي وأكمل بناؤها في سنتين ، واشتهرت بكونها أول مدرسة كبرى منظمة تنظيما دقيقا ونزلها الطلاب وأجرى عليهم جرايات الطعام اليومية والأرزاق الشهرية ، وقد تخرج منها عدد كبير من رجال العلم المشهورين ، واحتوت على مكتبة ضمت آلاف الكتب النفيسة التي جمعها نظام الملك ، ونقل إليها الناصر لدين الله بعد ذلك آلاف الكتب وكان لها خزان ومشرفون حفلت بهم كتب التراجم ، كما أوقف فيها العلماء العديد من الكتب أبرزهم العلامة ابن النجار صاحب كتاب (ذيل تاريخ بغداد) .

3 – المدرسة الكمالية : التي تنسب إلى أبي الفتوح كمال الدين المعروف بابن بقشلان ت 556هـ في الجانب الشرقي من بغداد .

4 – مدرسة أبن الشمحل : بمحلة المأمونية التي افتتحت سنة 556هـ شرقي بغداد .

5 – مدرسة ابن هبيرة: أسسها الوزير ابن هبيرة في باب البصرة ببغداد سنة 557 هـ، وقد أقام فيها الفقهاء وأجرى عليهم .

6 – مدرسة بنقشة : على شاطئ دجلة التي افتتحت سنة 570هـ ، وأسسها بنقشة بنت عبدالله التركية عتيقة المستضيء المتوفاة سنة 598هـ .

7 – المدرسة الاسبهاذية : التي أسسها الاسبهيد بن حمارتكين ، وتقع في الجانب الشرقي ببغداد ، وكان لها نظار لرعاية وقفها على شؤونها .

8 – المدرسة الشرابية : التي افتتحت سنة 628هـ ، وأسسها شرف الدين إقبال الشرابي ت 653 هـ في الجانب الشرقي ببغداد .

9 – المدرسة المستنصرية : وهي من أشهر المدارس في التاريخ الإسلامي ، وقد استحقت أن تسمى (الجامعة المستنصرية) وتقع على شاطئ دجلة في الجانب الشرقي من بغداد مما يلي

دار الخلافة ، وقد أسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله وبدأ ببنائها سنة 625هـ وافتتحت سنة 631هـ أشرف على بنائها محمد بن العلمي وأخوه أحمد ، وكان افتتاحها يوما مشهودا ببغداد حيث ذبح فيه ألف رأس من الغنم ، ووضعت الحلويات والمرطبات في صف واحد ، ووزع فيها اللحم المشوي والدجاج .

درست فيها علوم الدين والمذاهب وعلم الأصول والفروع وعلم القوافي وأحاديث الرسول ﷺ والفرائض والتركات وعلم الحساب والطب ومنافع الحيوان وغيرها من العلوم ، وتنوع هيكلها الإداري وسكنها الطلاب وأجريت عليهم الجرايات من الطعام والمال ، ورتب لأساتذتها الرواتب والطعام والخبز كل يوم بما يكفيهم ، وبنى لهم داخل المدرسة حماما وطبيبا يتردد إليهم بكرة كل يوم يتفقد صحتهم ومخزنا يحوي كل ما يحتاجون إليه لطبخ الأطعمة وحفظ الأشربة والأدوية .

قال الذهبي عن أوقافها : " لا أعلم وقفا في الدنيا يقارب وقفا أصيلا سوى أوقاف جامع دمشق وقد يكون وقفها أوسع ". أما مكتبتها فكانت مرجعا لطلابها وشيوخها والوافدين عليها ولطالما قصدها الكثير وترددوا عليها وأفادوا من كنوزها . وفي يوم افتتاحها نقل المستنصر من الكتب النفيسة التي تحوي العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حملا وجعلت في خزانة الكتب سوى ما نقل إليها فيما بعد ، وقد رتبت هذه الكتب بحسب الفنون ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها ، ولعل المكتبة المستنصرية كانت في القرنين السابع والثامن الهجريين أعظم دور العلم وأشهرها في العالم كله آنذاك . وقد استمر التعليم بالمدرسة المستنصرية فترة طويلة من الزمن سوى فترتين الأولى : بفعل الغزو المغولي لبغداد سنة 656هـ . والثانية : دخول تيمورلنك واحتلال بغداد ثانية سنة 795هـ .

وفي دمشق وجد عدد كبير من المدارس وبخاصة في العصر الأيوبي حيث كانت المدرسة الصلاحية بحلب التي وقفها الأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدوادار وجعلها على المذاهب الأربعة ، والمدرسة الأسدية والعادلية والأمجدية وغيرها ، ومن أشهر مدارس دمشق المدرسة النورية الكبرى التي بناها نور الدين محمود زنكي سنة 563هـ على مساحة ألف وخمسمائة متر مربع واحتوت على قاعات للدراسة ومسجد وأماكن يسكنها الطلاب ، ومن بين المدارس الدمشقية المدرسة الدخوارية التي أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي ابن حامد الدخوار سنة 621هـ وواقف عليها ضياعا عديدة .

وبلغ عدد مدارس مصر أربعا وسبعين حسبما ذكر المقريزي ، نذكر منها بإيجاز :

1- المدرســة الناصــرية : التي شيدها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 566هـ ، وسميت أيضا باسم المدرسة الشريفية أو مدرسة ابن زين التجار أحد أعيان الشافعية، وقد درس فيها فترة طويلة . ويذكر المقريزي أنها أول مدرسة أنشأت بالديار المصرية وأوقفت عليها الأوقاف العديدة .

2 – المدرسة القمحية : التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي التي خصصت للفقهاء المالكية وأوقف عليها الوقوف .

3 – المدرسة الصلاحية : التي شيدت بجوار قبة الإمام الشافعي لتدريس فقه الشافعية ، وكان بإزائها الحمامات ومساكن الطلاب .

4 – المدرسة الفاضلة : بناها القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني بجوار داره بالقاهرة سنة 580هـ ، ووقف عليها مكتبة عظيمة في سائر العلوم وقدر عدد كتبها بمائة ألف مجلد نهبت أو ضاعت في فترة اشتداد الغلاء بمصر سنة 694هـ حيث كان الطلبة يبيعون الكتاب برغيف خبز حتى ذهب معظمها ولم يبق فيها إلا مصحف كبير مكتوب بالخط الكوفي ، يقال إن القاضي الفاضل اشتراه بأكثر من ثلاثين ألف دينار على أساس أنه مصحف الخليفة عثمان بن عفان ﷺ .

5 – المدرسة الصاحبية : أسسها الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر ، وجعلها وقفا على المذهب المالكي ، وجعل فيها خزانة كتب .

6 – المدرسة الصالحية : وهي أول مدرسة رباعية المذهب افتتحت بمصر سنة 641هـ / 1243 م ، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب وأوقف عليها أوقافا عديدة .

7 – المدرسة الكاملية : أنشاها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر أيوب بن شادي بن مروان سنة 622هـ ، وعرفت أيضا باسم دار الحديث الكاملية .

8 – المدرسة الظاهرية : أنشأها الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة 662هـ / 1263م، وجعل فيها أربعة أواوين اثنين للحنفية والشافعية واثنين لأهل الحديث والقراءات السبع ، وجعل بها خزانة للكتب اشتملت على أمهات الكتب في سائر العلوم ، وبنى بجوارها مكتبا

لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم وأجري لهم المنح والكسوة ، وتعد من أجمل مدارس القاهرة آنذاك .

9 – المدرسة المنصورية : أنشأها الملك المنصور بن قلاوون الألفي سنة 683هـ ، وكان في المدرسة دروس على المذاهب الأربعة والطب وسائر الدروس الأخرى ، وفي القبه درس تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي ، ووقف عليها وعلى القبة وقوفا عظيمة ، وجعل في القبة مكتبة جليلة كان فيها عدة احمال من الكتب في أنواع العلوم ، وقد ضاع معظم كتب هذه المكتبة وتفرق في أيدي الناس .

10 – المدرسة المحمودية : أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستدار سنة 797هـ ، وفيها مدرسة عظيمة احتوت على كتب في مختلف الفنون والعلوم .

11 – المدرسة الجمالية : انتهت عمارتها سنة 811هـ / 1408م ، وكان في خزائنها عشرة مصاحف طول كل مصحف أربعة أشبار إلى خمسة أحدها بخط ياقوت المستعصمي وآخر بخط ابن البواب ، ولها جلود في غاية الحسن معمولة في أكياس من الحرير الأصلي ، كما تحتوي المدرسة على كتب نفيسة بحوالي عشرة أحمال كانت في مدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون .

ولننتقل لنظام المدارس في المغرب العربي والأندلس ، ففي تونس شيدت أول مدرسة في ظل حكم الحفصيين سنة 650هـ وهي مدرسة المعرض ، وشيدت أول مدرسة في المغرب سنة 684هـ وهي مدرسة الصفارين والتي تعد من أشهر مدارس بني مرين في فارس ، وأنشأت في الأندلس عدة مدارس فبلغت مدارس غرناطة سبع عشرة مدرسة كبرى ومائة وعشرين مدرسة صغرى .

وكانت في مكة عدد من المدارس أهمها المدرسة الغياثية أو مدرسة الملك المنصور بمكة التي بناها الملك المنصور غياث الدين أبو المظفر أعظم شاه الهندي ، وجعلها على المذاهب الأربعة ، وقد فرغ من بنائها سنة 841هـ وأنفق عليها وعلى أوقافها أموالا طائلة ، ومدرسة السلطان قايتباي التي تمت عمارتها سنة 884هـ ، واحتوت على 72خلوة وفيها أربعة مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة وأربعين طالبا ، وجعل فيها أربعين صبيا من الأيتام وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل لها خازنا وتولاها المؤرخ قطب الدين الحنفي ووقف عليها أوقافا كثيرة .

لعبت تلك المدارس على اختلاف أنواعها وأماكنها دورا هاما في تنمية وتقدم الحركة الفكرية والعلمية في البلدان الإسلامية ، وساهمت في إقامة الصرح العلمي الذي تميزت به الحضارة الإسلامية خلال فترة ازدهارها .

و — **المجالس العلمية** : عقدت المجالس العلمية في بيوت العلماء حيث كانوا يخصصون جزءا أو مكانا من بيوتهم يتجمع فيه أهل العلم لمناقشة المسائل العلمية والقضايا المهمة ويبدي كل منهم رأيه فيها ويقترح الحل الذي يراه مناسبا لكل مسألة أو قضية ، كما خصص الخلفاء أماكن خاصة في قصورهم لعقد المجالس التي تعد منتديات للعلماء والفلاسفة والأدباء آنذاك يتنافسون ويتجادلون في المواضيع الدينية وغيرها ، وكان كثير من الخلفاء يشاركون في تلك المجالس والندوات ويثرون النقاش ويبدون رأيهم في العديد من القضايا المطروحة .

استغل بعض الخلفاء المجالس لتقوية حكمهم ،فقد استعان المنصور بالعلماء والفقهاء في تقوية أركان دولته وقربهم وأفاد منهم ومن أبرزهم الإمامين أبو حنيفة ومالك ، وكان المهدي يحب العلم ويكرم أهله ويقربهم ، وازدهرت نواحي العلم والفن في عهد الرشيد فصارت بغداد في عهده قبلة الطلاب في العالم وقتئذ ، فوفد إليه العلماء من كل أنحاء المعمورة لأنه كان يوليهم عطفه وتشجيعه .

وارتفعت الحياة العقلية بكافة نواحيها في عهد المأمون لكونه يحب العلم ويقرب أهله ويغدق عليهم المنح والعطايا ، فنبغ في عهده أئمة كبار كانوا عمدة التأليف وأئمة التصنيف خلفوا للمكتبة العربية آلاف التصانيف في كافة فروع العلم ، وفي عهده بلغت حركة الترجمة ذروتها فجمع فيبيت الحكمة كنوز العلم ، ولم يكن المأمون نفسه بعيدا عن البحث والدراسة والمناقشة فاستطاع المعتزلة أن يثيروا شوقه بالمناقشات الفلسفية التوحيدية ، فاعتنق مذهبهم وتبنى نظرياتهم وعقد لهم المناظرات والمحاورات مع غيرهم .

وفي عصر انحلال الدولة العباسية وسقوطها ظل النشاط العلمي والأدبي مزدهرا ولم يتأثر بالانحلال السياسي رغم انفصال بعض أجزاء الإمبراطورية واستقلالها عن العاصمة فكان بلاط سيف الدولة يضم أكابر علماء المسلمين وشعرائهم وفلاسفتهم ، وكان سيف الدولة يحضر

تلك المجالس ويناقش العلماء ، ونبغ عدد من الأئمة وبخاصة علماء الحديث كالبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

وكان محمود بن سبكتكين وأبوه يحبان العلم وأهله حتى غدت (غزنة) أيام محمود كعبة طلاب العلم والمعرفة ، وصار بلاطه موئل العلماء والفلاسفة وأشهرهم العالم البيروني والشاعر الفردوسي .

لقد شجع الخلفاء والأمراء والسلاطين أهل العلم وأكرموهم فاقتنوا الكتب وأحسنوا إلى مؤلفيها وأغدقوا عليهم العطايا ، فيروى أن المعتضد اعتنى بأهل العلم وأجرى عليهم الأرزاق ، وأسس الأمير علي بن محمد بن عمار صاحب طرابلس في الشام سنة 472هـ أول دار حكمة لبث الفقه الشيعي ، وأسس نورالدين بن محمود بن زنكي المدارس لأهل السنة واستدعى لها العلماء والصوفية . ووجدت الكثير من هذه المجالس عند الفاطميين وملوك الأندلس .

اعتبر الخلفاء والسلاطين والأمراء أنفسهم حماة ورعاة للعلم والثقافة ، وأن من واجبهم تشجيع العلماء وتوفير أسباب الراحة والجو العلمي لهم ليساهموا في تقدم الأمة الإسلامية العلمي .

ز – الربط والزوايا : أطلق الرباط أول الأمر على الثغر الذي يرابط فيه المجاهدون ثم صار يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة ثم صار مسكنا للعاجزين والفقهاء الغرباء وأحيانا لكبار العلماء ، ثم غدت الربط بمثابة مواطن للمعرفة تؤدي خدمات ثقافية ودينية كالوعظ والإقراء والحديث والإفتاء ومنح الإجازات العلمية وتصنيف الكتب ، ومما ساعد على ذلك أن الواقفين أنشأوا فيها المكتبات ووقفوا فيها الكتب وعينوا عليها من يقوم بصيانتها ومناولتها ليطلع عليها العلماء والفقهاء .

اتخذ العلماء من الربط أماكن للمطالعة والكتابة والاستنساخ والتأليف ساعدهم في ذلك احتوائها على مكتبات عامرة وأماكن يمكثون فيها أوقاتا طويلة ، لذا نجد أن كثيرا من كتب التصوف ألفت في تلك الربط كونها مجمعا للزهاد والمتصوفة ، على أن الربط لم تخل من مؤلفات بعض الفلاسفة والعلماء والأدباء مثل : كتاب (الفصول والغايات) للمعري ، وكتاب (الفنون) لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي ت 513هـ ، وكتاب (عوارف المعارف) لمؤلفه الشيخ شهاب الدين الشهرزوري ت 632هـ . وقد كثر رواد الربط من الفقهاء والعلماء حتى نافست المدارس ، وقد تولى مشيختها أكابر العلماء والفقهاء .

ثانيا : المكتبات في الدولة العربية الإسلامية

شغف المسلمون بالقراءة ومطالعة الكتب واقتنائها وذلك لحث القرآن الكريم والرسول ﷺ على العلم وتبجيل العلماء ، ونتيجة لانتشار حركة التدوين والترجمة والتأليف التي شهد العالم الإسلامي وانتشار الوراقين والنساخ ، ولتسهيل المطالعة وتيسيرها للراغبين وبخاصة غير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها آنذاك . وقد سارع الخلفاء والعلماء والأغنياء والوزراء والأمراء إلى تأسيس المكتبات (دور العلم) ، وكانت المكتبات على أنواع عديدة أهمها : المكتبات العامة ، والخاصة ، والمكتبات الطبية ، ومكتبات المساجد والمدارس وغيرها .

1 – المكتبات العامة :

انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع المدن الإسلامية وقد تنافس الخلفاء والأمراء والأغنياء والعلماء على تأسيس هذا النوع من المكتبات ، وشيدت لها أبنية جميلة لتستقبل العلماء والمطالعين وكانت تحتوي على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة ، وثبتت رفوف الكتب بجوار الجدران لتوضع عليها الكتب ، كما خصصت بعض الأروقة للمطالعة وبعض الحجرات للنسخ وأخرى للاجتماعات ، كما تم تأثيث المكتبات بأثاث فخم وفرشت أرضها بالبسط والحصر ليجلس فيها المطالعون . يذكر المقريزي في الخطط في هذا الصدد : "أن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها الستور وأقيم عليها خدام وفراشون اختصوا بخدمتها ".

ونظمت الكتب على الرفوف بكتابة اسم الكتاب ومؤلفه على أطراف الصفحات واحتوت على فهارس منظمة حسب موضوعات الكتب ، وحفظت الكتب في دواليب لصق على جانب كل منها ورقة تحوي أسماء الكتب التي تحويها ، وقد سمح بالاستعارة الخارجية وفق قيود شديدة ، وكثيرا ما كان المستعير يدفع ضمانا لها ، وأعفي العلماء من ذلك الشرط تقديرا لهم وتسهيلا لعلمهم ، وقد مدح ياقوت الحموي المشرفين على المكتبات بمدينة مرو ، إذ سمحوا له أن يستعير مائتي مجلد دون أن يدفع ضمانا .

نظمت المكتبات العامة تنظيما دقيقا وخصص لها موظفون يعملون على إدارتها ويقدمون الخدمات لزوارها ، ومن هؤلاء : الخازن والمترجم والناسخ والمجلد والمناول ، وكان الخازن

(أمين المكتبة) من أصحاب العلم والمكانة في عصره ويشرف على الناحية العلمية والإدارية بالمكتبة ومهمته مدها بالكتب الجديدة ويلاحظ دقة فهارسها وحسن تنظيمها وييسر للقراء عملهم ، وتمتع الخازن بثقافة عالية . ومن أبرز الخزنة : سهل بن هارون ، والمؤرخ الكبير ابن مسكويه .

وأدرك المسلمون ضرورة احتواء المكتبة على قسم للنشر والنسخ فعينوا للمكتبات نساخا عرفوا بجودة الخط ، وهناك المجلدون الذين يقومون بتجليد الكتب حفاظا عليها من التمزق والتلف . ونال تجليد الكتب عناية خاصة من أهل العراق والأندلس ، وتطور فن التجليد حتى ظهر التذهيب والزخرفة والتزويق . والمناولون هم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف ويحضرون الكتب من أمكنتها إلى حجرات المطالعة ، وقد أطلق عليهم اسم (الخدم) لأنهم يقومون بخدمة القراء تمييزا لهم عن الفراشين الذين يقومون بتنظيف أثاث وفرش المكتبة .

وكان للمكتبات ميزانيتها الخاصة التي تنفق منها على احتياجها من الكتب وغيرها من الأدوات وتدفع رواتب العاملين فيها ، وتلك الميزانية تخصص من الدولة أو من الأوقاف التي توقف عليها أو مما يقدمه الأغنياء والعلماء الذين يؤسسونها . وبلغت مكتبات بغداد ثلاثين مكتبة عامة ، وضمت مدن الأندلس والشام وشمال إفريقيا مكتبات عامة وعديدة .

ومن أشهر المكتبات العامة : مكتبة بيت الحكمة ببغداد ، وبيت الحكمة التونسي ، ودار الحكمة بالقاهرة ، ومكتبة قرطبة :

أ – بيت الحكمة في بغداد : أسسها هارون الرشيد وزودها ابنه الخليفة المأمون بالمؤلفات الكثيرة والضخمة ووسع أبنيتها ، وتعد بيت الحكمة ببغداد أول مكتبة عامة لها شأن كبير في التاريخ الإسلامي ، إذ اجتمع فيها زمن المأمون صفوة العلماء والأدباء وحج إليها طالبوا العلم والمعرفة ، وحوت على مكتبة واسعة رتبت فيها الكتب وزودت بمقاعد للقراءة وجعل لها قيمون لحفظها وترتيبها ، وضمت فرقا خاصة للترجمة والنسخ ، وقد أرسل المأمون بعثة علمية إلى القسطنطينية ضمت صاحب بيت الحكمة لجلب الكتب اليونانية الطبية والفلسفية ، وأمر المترجمون بترجمتها ، وكان النساخ ينسخون تلك الكتب بعدة نسخ من كل مؤلف ، إما لقاء جراية معلومة من الخليفة أو على نفقة العلماء والأغنياء لقاء أجر معلوم .

وجعل المأمون وزيره سهل بن هارون مشرفا على المكتبة نظرا لأهميتها وزاد محتويات المكتبة بما قدمه الحكام والأمراء من هدايا ضمت الكتب والمخطوطات النادرة تقربا من الخليفة

لعلمهم مدى حبَه للكتب ، كما حصل المأمون على خزانة كتب اليونان من جزيرة قبرص عندما هادن أهلها وعقد الصلح مع حاكمها ، وقد اغتبط المأمون كثيرا بوصول تلك الكتب وجعل سهل بن هارون خازنا لها . ويبدو أن بيت الحكمة أهمل بعد عهد المتوكل كما أثرت الفتن والحروب بين المعتز والمستعين في ذلك الإهمال ، ثم جاء التدمير والنهب الذي لحق كتبها أثناء الغزو المغولي ودمر خزائنها وضاع أكثرها مع الأسف .

ب – بيت الحكمة التونسي : أسس بيت الحكمة التونسي في عهد الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي تاسع أمراء الأغالبة بتونس بمدينة (رقادة) قرب القيروان وجعله على غرار بيت الحكمة ببغداد ، وقد اعتمد على علماء بغداد وكتبهم ، إذ جلب العلماء والكتّاب مؤلفاتهم من العراق ومصر والشام ، فكان إبراهيم الأغلبي يرسل إلى بغداد كل عام سفارتين لتجديد ولائه للخليفة العباسي ولاقتناء نفائس الكتب ويجلب العلماء المختصين من العراق ، وعندما مات إبراهيم نشّط ابنه عبد الله الثاني بيت الحكمة وحرص زيادة الله الثالث على جلب العلماء من بغداد والفسطاط لإضافتهم في بيت الحكمة التونسي ، وفي عهدهما ترجمت بعض الكتب إلى العربية عن اللاتينية .

وعندما استولى الفاطميون على هذه المكتبة سنة 296هـ /909م صارت نواة لمكتبتهم الكبرى في القاهرة ، حتى أمر صلاح الدين الأيوبي بهدمها بعد قضائه على الدولة الفاطمية بمصر .

ج – دار الحكمة بالقاهرة : أنشأت في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة 395هـ/ 1004م ، وسميت دار الحكمة تقليدا لبيت الحكمة ببغداد وبيت الحكمة بتونس ، وكانت مكتبة عامة يقصدها الناس للقراءة والاستنساخ والدراسة والمناظرة ، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور الفاطمية في سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ومن مصادر متعددة ، ويروي أحد المؤرخين أنه حملت إلى هذه المكتبة من الكتب مالم ير مثله مجتمعا لأحد الملوك والخلفاء قط .

وأمدها الحاكم بأمر الله بكل مستلزمات النساخين من محابر وأقلام وورق ، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم خصصوا لخدمتها ووقفت عليها الأوقاف ، وكان فيها من يشتغل بالطب والمنطق والتنجيم ، وأمر الحاكم بفتح أبوابها لمن يشاء للاستفادة من كنوزها العلمية ، وعقدت فيها المناقشات والمحاورات والمحاضرات التي أحيت فيها الجو العلمي ، وصار

الحاكم يحضر بنفسه أحيانا مجالس المناظرة العلمية ويخلع في نهاية كل جلسة الخلع والهدايا على العلماء المساهمين في المناظرات والمناقشات ، واستمرت دار الحكمة في عملها حتى هدمها صلاح الدين الأيوبي وأقام مكانها مدرسة للشافعية سنة 567هـ / 1171م .

د – مكتبة قرطبة : أسسها الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة 350هـ في قرطبة واهتم بها اهتماما عظيما لكونه محبا للعلم ويكرم أهله وكان له وكلاء في البلاد الإسلامية يزودونه بما ينتجه العلماء المسلمون من مؤلفات ، وكان يبذل الأموال من أجل جلب الكتب إلى الأندلس وأقام المستنصر لمكتبة موظفين خاصين للعناية بشؤونها وجمع فيها النساخ والمهرة في الضبط والإجادة وعين لها عددا كبيرا من المجلدين ، ونظمت كتبها تنظيما جيدا احتوت على أكثر من أربعمائة ألف كتاب فهرست على أربعة وأربعين فهرسا لكل منها عشرون ورقة تحوي أسماء الكتب .

ظلت مكتبة قرطبة محط أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس ، وقد وفد إليها الأوروبيون للنهل من معينها والتزود من علومها . وكان مصير هذه المكتبة مفجعا عندما أخرج منها المنصور بن أبي عامر الذي حكم الأندلس كتب الفلسفة وأحرقها في ميدان قرطبة العام ليرضي العامة والفقهاء في زمانه ، وبعد وفاته نهبت الكتب النفيسة ، ولما استولى الأسبان على قرطبة أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة من كتبها حوت على ما يزيد عن مليون وخمسين ألف مجلد .

هـ – المكتبة الحيدرية : أنشأت بمدينة النجف الأشرف في العراق ، وسميت بالحيدرية نسبة إلى حيدر وهو اسم الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ولا تزال هذه المكتبة موجودة حتى الوقت الحاضر .

2 – المكتبات الخاصة (مكتبات العلماء) :

المكتبات الخاصة هي المكتبات التي كونها العلماء الذين لهم القدرة على شراء واقتناء الكتب في بيوتهم ، وعلى الرغم من كون هذه المكتبات تخص أفرادا معينين بذلوا أموالهم في سبيل تأسيسها والاستفادة من علومها ، إلا أنهم حرصوا على أن تكون للنفع العام ولخدمة طلاب العلم والباحثين . وسنذكر بإيجاز أهم تلك المكتبات وأشهرها :

أ – مكتبة علي بن يحيى المنجم : ت 275 هـ واشتملت على أنواع المؤلفات وأوقفت على الطلاب والباحثين وقصدها الناس من كل بلد للإقامة فيها ويتعلمون فيها صنوف العلم ، وكانت الكتب متوفرة لهم والنفقة من مال المنجم ، ويذكر ياقوت الحموي أن أبا معشر المنجم قدم من خراسان يريد الحج فوصفت له خزانة ومكتبة المنجم فمضى فرآها فهاله أمرها فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وتعمق به حتى ألحد .

ب – مكتبة الفتح بن خاقان : كان الفتح أحد المشهورين بحب العلم واقتناء الكتب والقراءة وقيل إنه عندما يحضر مجلس المتوكل ويقوم الأخير لحاجة له يخرج من كمه أو خفه كتابا يقرأه لحين عودة المتوكل إلى المجلس ، وقد أوكل الفتح بن خاقان إلى علي بن يحيى المنجم مهمة جمع الكتب لمكتبته ، فنقل الأخير إليها من كتبه إضافة لما اشتراه الفتح من الكتب فكانت من خزائن الكتب العجيبة التي لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، وكان يحضرها فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة حتى مقتله بالمتوكلية مع المتوكل سنة 247هـ.

ج – مكتبة ابن سوار بالبصرة : أسسها أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال عضد الدولة البويهي ، وكان محبا للعلم شديد الشغف بها ، وكان يؤدي فيها التدريس بجوار الكتب، وفيها شيخ يدرس عليه مذهب الاعتزال .

د – مكتبة سابور بن أردشير : أنشأها الوزير سابور بن أردشير بالكرخ سنة 383هـ في عهد البويهيين ، ونقل إليها كتبا كثيرة مما ابتاعه وجمعه وعمل لها فهرسا ، وقد زادت على العشرة آلاف كتاب وصارت مركزا ثقافيا هاما يلتقي فيه العلماء للمطالعة والمناظرة ، وكان أبو العلاء المعري كثير التردد عليها ، وقد احترقت المكتبة فيما احترق من محال الكرخ في عهد السلاجقة .

هـ – مكتبة القاضي أبي المطرف : أنشأها القاضي أبي المطرف قاضي الجماعة في قرطبة ت 402هـ ، وجمع فيها من الكتب في أنواع العلوم مالم يجمعه أحد من أهل الأندلس في زمانه، فكان يشتري الكتب بأي ثمن وكان لا يعير كتابا لأحد ، فإذا ألح أحدهم في استعارته أعطى الكتاب لأحد الناسخين لينسخه ويعطيه للمستعير ، وبعد وفاته اجتمع أهل قرطبة لبيع المكتبة فأخذت عاما كاملا وجمعوا من ثمنها أربعين ألف دينار .

3 – المكتبات الطبية :

اهتم المسلمون بالطب والعناية بالمرضى وإيجاد الأماكن اللازمة لمعالجتهم وتطبيبهم فبنوا البيمارستانات العديدة ضمت المشافي مكتبات فخمة تضم ثمرات العقول ، لأن المستشفى لم يكن مكانا للتطبيب والتمريض فحسب بل مكانا لتعليم الطلاب الأمراض وطرق معالجتها، فكان مكانا للتدريب العملي والدراسة النظرية .

واحتوت المستشفيات على مكتبات طبية خاصة ومنها البيمارستان العضدي الذي ألحقت به مكتبة ضخمة كانت مصدرا أساسيا للطلاب ، والبيمارستان النوري في دمشق الذي أسسه نور الدين زنكي الذي حكم قسما من العراق وسوريا ومصر وعين عليه الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم ت 570هـ ، وكان يعود المرضى ثم يرجع إلى الإيوان ويبدأ بكتب الطب ، وكان الطلاب والمشتغلون بالطب يقومون بالبحوث الطبية .

بلغت بعض المكتبات الملحقة بالمشافي حدا ضخما ، فيذكر أن عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون في القاهرة حوالي مائة ألف مجلد ، واهتم الأطباء المسلمون بجمع الكتب وتحصيلها وكونوا منها مكتباتهم الخاصة ومنهم الطبيب ابن رضوان الذي امتلك كتبا عديدة ، كما حوت مكتبة ابن الزفان في مصر أكثر من عشرين ألف مجلد أغلبها كتب طبية ، وامتلك ابن الدخوار الطبيب الدمشقي المشهور عددا كبيرا من الكتب الطبية منها ما نسخه بيده وغيرهم .

قدمت المكتبات الإسلامية بأنواعها الثقافية والعلم لروادها مجانا ووفرت لهم جوا علميا ساعد بلا شك في نشر تلك الثقافة في أصقاع المعمورة ، في حين كانت أوربا تغط في ظلام الأمية الدامس وقتذاك .



مصادر ومراجع الفصل السادس

1 – القرآن الكريم .

2 – د. إبراهيم سلمان الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1997 .

3 – ابن الاثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الطبعة الثالثة ، الجزء العاشر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 .

4 – ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 .

5 – ابن النديم ، محمد بن إسحاق ، الفهرست ، القاهرة ، 1348هـ .

6 – ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1953.

7 – د. أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1973.

8 – د. أحمد عبد الرزاق أحمد ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الجزء الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1990–1991.

9 – أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1980 .

10– آدم متز ، الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبو زيدة ، الجزء الأول ، بيروت ، 1967.

11 – الجاحظ، أبو عثمان بن بحر ، البيان والتبيين ، الجزء الثالث ، دار الكتب العلمية، بيروت ، د.ت.

12 – د. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .

13 – د. شوقي أبو خليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1993 .

14 – د. صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

15 – صلاح الدين خدابخش ، حضارة الإسلام ، ترجمة علي حسين الخربوطلي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1971 .

16 – د. عبد الحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ، 1995 .

17 – د. علي حسين الخربوطلي ، الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة . 1975

18 – د. ماهر حمادة ، المكتبات في الإسلام ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1970 .

19 – د. محمد منير موسى ، التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1982 .

20 – محمود السيد سلطان ، مفاهيم تربوية في الإسلام ، القاهرة ، 1977 .

21 – المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهرة ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، الجزء الثالث ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982.

22 – المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، الخطط المقريزية ، الجزءان الثاني والثالث ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1998.

23 – د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت، . 1975

24 – ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي ، معجم الأدباء ، الجزء الرابع ، دار إحياء التراث العربي . د.ت.



الفصل السابع

الدراسات والعلوم اللسانية والإنسانية والتطبيقية

أولا : الدراسات والعلوم اللسانية

أ - علوم اللغة العربية .

ب - النحو والصرف .

ج - علوم الأدب .

ثانيا : الدراسات الإنسانية (الاجتماعية)

1 - علم التاريخ .

أساليب ومناهج الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين .

2 - علم الجغرافيا .

تطور علم الجغرافيا عند العرب وأشهر المناهج الجغرافية الإسلامية .

3 - الفلسفة .

ثالثا : الدراسات والعلوم العقلية والتطبيقية

أ - الطب .

ب - الرياضيات والحساب .

ج - الجبر والهندسة .

د - علم الفلك .

هـ - علم الكيمياء .

أولا : الدراسات والعلوم اللسانية

أ – علوم اللغة العربية والمعاجم :

تدل اللغة على الأفكار التي تجول في عقول القوم – في أي عصر من العصور – وأدوات الحضارة المادية التي استخدموها والنظم الاجتماعية التي عاشوا في ظلها . وتتصف اللغة العربية بخصائص ذاتية تميزها عن غيرها من حيث المرونة والمطاوعة والبلاغة والمفردات والاشتقاقات مع سهولة التعبير وسحر البيان ، وإذا كان للغة العربية أهمية بالغة في تميز الحضارة العربية فإن القرآن الكريم هو النموذج الأعلى لبلاغتها ، وكانت اللغة العربية من أقوى وسائل الارتباط بين العرب أنفسهم وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمونها في البلاد الإسلامية .

وكانت لغة العرب في الجاهلية غنية بالألفاظ ، وخاصة فيما يتصل بطبيعة أرضهم وأجوائهم وحياتهم المادية والاجتماعية ، وأصبحت اللغة العربية بعد ظهور الإسلام لغة الدين والفكر وإعانتها خصائصها ، لذا اهتم العرب المسلمون منذ وقت مبكر بعلم اللغة ، واتجه العلماء منهم إلى البادية لجمع الكلمات والمفردات أو يتصلون بمن يقدم من الأعراب إلى المدن كالبصرة والكوفة فيسألونهم ويأخذون منهم ويدونون عنهم . وكانت طريقة علماء اللغة في جمع المفردات أنهم يذكرون السند كما يفعل أهل الحديث وكانوا يتأكدون من الكلمة الصحيحة من حيث اشتقاقها من أصولها . لكن جمع اللغة لم يكن عملا سهلا بسبب أن بعض المشتغلين فيها لم يكن ثقة ، وأن اللغة آنذاك لم تكن مشكلة أو منقوطة ، فضلا عن قلة معرفة العلماء الأوائل بلغات الشعوب من حولهم كالفرس والروم والسريان .

دوّن بعض العلماء ألفاظ اللغة العربية في رسائل وكتب صغيرة مستقلة تقتصر على ألفاظ موضوع معين مثل : كتاب (الإبل) ، وكتاب (الخيل) ، وكتاب (النخيل) للأصمعي ، كما نظم بعض العلماء الألفاظ في معاجم عامة لا تقتصر على موضوع معين ، وإنما رتبت حسب الحروف الهجائية أو المعاني المتشابهة والمتقاربة ، وأول من فكر في ترتيب ألفاظ اللغة حسب الحروف الهجائية الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض (علم أوزان الشعر وبحوره) ، فقد رتبت ألفاظ اللغة حسب مخارجها من الحلق فاللسان فالشفتين وبدأ بحرف

العين وجعل حرف العلة في الآخر ، لذا سمي كتابه (العين) ، وقد أفاد منه الأدباء واللغويون وأصحاب المعاجم فائدة كبيرة .

فتح القرن الرابع الهجري للباحثين في علوم اللغة والنحو والمعاجم فتحا جديدا حيث اتخذ العلماء منهجا وطريقة منظمة يسيرون عليها واستمروا في وضع المعاجم والقواميس ، ومن أشهر تلك المعاجم : (الجمهرة في اللغة) لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي ت 321هـ الذي رتبه على حروف الهجاء مع تقلبات الكلمة ، و(التهذيب) للأزهري ت 370هـ وهو مرتب على طريقة كتاب (العين) و(الصحاح) للجوهري ت 398هـ الذي رتبه على الحرفين الأول والآخر من أصل الكلمة ، أي أنه قسم الكتاب إلى أبواب حسب الحرف الأخير من الكلمة ، فعند البحث مثلا عن كلمة (كتب) تجدها في باب الباء فصل الكاف .

وكانت المعاجم التي جاءت بعد الجوهري أشبه بتوسع وشرح لقاموسه فكان مؤلف نهاية عهد قديم في علم اللغة وبداية عهد جديد . وسار على منهجه العديد من أصحاب المعاجم مثل : ابن منظور في (لسان العرب) ، والفيروز أبادي في (القاموس المحيط) ، والزبيدي في (تاج العروس) ، وظهرت في القرن الرابع الهجري أيضا دراسة للاشتقاق اللغوي على يد ابن جني ت 392هـ الذي اختص بمادة الكلمة دون هيئتها .

ويعد لسان العرب لابن منظور ت 711هـ من أوسع معاجم اللغة وأكثرها انتشارا إلى وقتنا الحاضر ، فقد أورد عن كل كلمة شواهد كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأشعار ، والكتاب المذكور ليس معجما فحسب بل كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وتفسير للقرآن وشروح للحديث ، لذا كبر حجمه وغدا بعشرين مجلدا . ومن المعاجم المهمة أيضا (القاموس المحيط) للفيروزأبادي ت 817هـ وقد شرحه السيد مرتضى الزبيدي ت 1205هـ ، مستعينا بلسان العرب وغيره من المعاجم وسمي شرح (تاج العروس في شرح جواهر القاموس) وهو من أكبر المعاجم وأوثقها .

وفي العصر الحديث ألفت العديد من المعاجم منها (المعجم الوسيط) الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1960، ويعد من أصح المعاجم العصرية ، ولا بد من الإشارة إلى أن المعاجم العربية الحديثة ترتب كلماتها حسب الحرفين الأولين في المادة ، فالباحث عن كلمة (علم) يجدها في حرف العين متبوعة باللام .

ب – النحو والصرف :

النحو علم قواعد اللغة العربية وبه تعرف أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرها ويساعد على معرفة صحة الكلام ، وعلى الرغم من غلبة الأمية والبداوة على العرب في جاهليتهم فقد كانت لغتهم الفصحى هي كل ما حملوه معهم مع الإسلام من الجزيرة العربية إلى الأمصار .

وكان العرب يتكلمون لغتهم صحيحة على الفطرة ، وبعد حركة الفتوح اضطر العرب بعـــد اختلاطهم في بلاد الشام بالروم وفي مصر بالأقباط وفي العراق وفارس بالعجم ، وأدى دخول هذه الأقوام في الإسلام إلى وضع قواعد اللغة العربية لحمايتها من اللحن والخطأ ولتعليم أبناء غير العرب اللغة العربية الصحيحة ، لأن بعضهم كان يخطئ حتى في قراءة القرآن الكريم .

وارتبط نشوء علم النحو بمدينتي البصرة والكوفة اللتان تحولتا بعد نشأتهما في عهد عمر ابـــن الخطاب إلى مركزين مهمين في استقبال القبائل العربية المتباينة اللهجات ، كما أن موقع البصرة التجاري جعلها مركزا تجاريا يقصده آلاف التجار والصناع والموالي من غير العرب .

اختـــلف المؤرخون في وضع قواعد النحو ، فمنهم من قال إنه الإمام علي بن أبي طالب (كـــرم الله وجهه) ، وذكرابن خلدون : " أن أول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة بإشارة من علي بن أبي طالب ﷺ ، لأنه رأى تغير الكلمة فأشار عليه بحفظها ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ، فطلب أبو الأســـود كاتبا وقال له : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف " .

وهكذا كانت البصرة أول مدرسة عنيت بالنحو واللغة واختراع القواعد . واشتهر من عـــلماء البصرة في النحو من تلاميذ الدؤلي : أبو إسحاق الحضرمي ت 117هـــ ، ويحيى بن معمر ، وعيسى بن معمر الثقفي ، وكان الأخير من مقدمي نحويي البصرة ، وعنه أخذ الخليل ابـــن أحمد الفراهيدي ت 170هـــ الذي يعد غاية في استخراج مسائل النحو ، فهو أول من اســـتخرج العـــروض وحصـــن بـــه أشعار العرب وصنف العديد من الكتب أهمها : (العين والمكمـــل) ، وكتاب (النغم) ، و(العروض) ، و(الشواهد) ، و(النقط والتشكيل) .. وغيرها .

وبرز من علماء البصرة أيضا سيبويه ت 171هـ الذي نشأ بالبصرة وتتلمذ على الخليل ابن أحمد ، وألف كتاب (الكتاب) الذي " لم يسبقه أحد في النحو إلى مثله " ، وقد جمع فيه مسائل النحو العربي كلها ، ومن مشهوري علماء البصرة محمد بن يزيد الأزدي المعروف بالمبرد ت 235هـ . ومن أشهر كتبه (الكامل في اللغة) .

كان منهج علماء البصرة في النحو يعتمد على القياس وإهمال الشواذ التي لا يقاس عليها في قواعد النحو والإعراب الذي سمعوه من الأعراب ، وكان البصريون أكثر تحررا وأقوى عقلا فجاءت طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة .

أما مدرسة الكوفة التي تأخرت عن مدرسة البصرة بمقدار مائة عام تقريبا ، فقد اعتمدت في منهجها على طريقة السماع وما يرد إليها من الأعراب وبسبب صلتها بالبادية ، فقد كانت أقل تحررا وأكثر التزاما من مدرسة البصرة ، ويعد أبو جعفر بن الحسن الرؤاسي ت 235هـ مؤسس مدرسة الكوفة ورأس علمائها ، فقد غلبت عليه الناحية الصرفية التي اهتم بها الكوفيون وتقدموا بها على أهل البصرة حتى عدهم المؤرخون الواضعين لعلم الصرف . ومن أشهر نحويي الكوفة البارزين الفراء والكسائي .

وعندما تأسست مدينة بغداد وانتقلت الحركة العلمية إليها تكونت فيها مدرسة جديدة للنحو وقفت بين مدرستي البصرة والكوفة ، وشجع الخلفاء العباسيون المناظرات العلمية بين علماء المدرستين ، وأشهرها مناظرة الكسائي إمام الكوفة وسيبويه إمام البصرة ، وفيها تغلب الكسائي فكان ذلك فوزا لمدرسة الكوفة في بغداد ، وقد أدى الخلاف بين المدرستين إلى بلورة علم النحو .

وألفت في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين كتبا عديدة أهمها كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) لابن الأنباري . ومن أشهر علماء مدرسة بغداد النحوية ابن جني ت 392هـ الذي عمل - أكثر من غيره - على توحيد مذهبي البصرة والكوفة ، وعلى استنباط المبادئ الفلسفية في اللغة كما عني بالصرف عناية كبيرة .

وجاء بعدهم علماء القوافي فأبدعوا وابتكروا وأضافوا معلومات جديدة ، ومنهم : الزمخشري ت 359هـ صاحب كتاب (المفصل في النحو) ، وجمال الدين بن الحاجب ت 646هـ مؤلف (الكافية) في النحو . ثم انتشر علم النحو خارج العراق فظهر في مصر أبو جعفر النحاس ، وفي الأندلس أبو علي القالي ، وابن عبد ربه ، وابن القوطية ، والإمام

محمد بن الأندلسي ت 672هـ صاحب الألفية المسماة ألفية بن مالك التي جمع فيها خلاصة قواعد النحو .

ج – علوم الأدب (الشعر والنثر) :

اهتم العلماء بجميع نواحي الأدب العربي وألموا بها ، وكان مفهومهم للثقافة عاما واسعا يمثل المعرفة بأسرها . ومن هنا كان تعريف الأديب والمثقف في عرفهم بأنه : " الشخص الذي يعرف طرفا من كل علم " . فكان الأديب لغويا ومؤرخا وجغرافيا ملما بألوان المعارف الأخرى ، وقد يتعمق أحدهم من ناحية من الأدب فيختص به ويبدع " .

اشتهر الأدب العربي ببلاغته منذ عصر ما قبل الإسلام وخاصة في مجال الشعر الذي مثل أهم جوانب الفكر العربي قبل الإسلام أصالة وإبداعا وكمالا فنيا ، إذ وضع العرب فيه أجود ما ابتكرته قرائحهم وعبروا فيه عن خطرات عقولهم وخلجات أنفسهم وآرائهم في الطبيعة والحياة والمجتمع ، وكان لصفات الجزيرة الجغرافية والمناخية والاجتماعية أثرها في طبع الشعر العربي بأغراضه المختلفة إلى جانب ثراء اللغة العربية وغناها بالألفاظ والمترادفات مما ساعد على نظم القصائد الطويلة وفي مقدمتها المعلقات التي جمعت بين البلاغة وجزالة اللفظ وعمق المعنى وحسن التعبير .

ولما جاء الإسلام نظر إلى الشعر نظرة متوازنة فقلل من قيمة الشعراء المنافقين قال تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾[1] ، واستعان بالشعراء المؤمنين ، ويروى أن الرسول ﷺ قال : " إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة ". وقد أيد الشعراء الدعوة الإسلامية ، وشاركوا في معارك التحرير والفتوح ، ومدحوا الرسول ﷺ والصحابة ، وحثوا المقاتلين على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، ورثوا الشهداء المجاهدين . ومن أبرز شعراء صدر الإسلام : كعب بن زهير ت 21هـ صاحب البردة ، وأبو ذؤيب الهذلي ت 26هـ ، وحسان بن ثابت ت 54هـ .

وفي العصر الأموي تطورت أغراض الشعر وأدخلت عليه فنونا جديدة تتصل بالعقيدة الإسلامية من خلال اهتمام الخلفاء والحكام بالشعر من جهة ، وتطور الحياة الاجتماعية من جهة أخرى ، وظهور الأحزاب السياسية من جهة ثالثة ، وارتقى الشعر في هذا العصر وذلك

(1) سورة الشعراء : الآية 224 .

لعـــناية خلفاء الدولة وأمرائها لحاجتهم إليه ولشدة تأثيره على الجماهير ، فقد جعله الأمويون وســـيلة لإذاعـــة محامدهم وتأييد سلطانهم وطعن زعماء خصومهم وبخاصة الشيعة والخوارج والزبيريين . ومن أشهر شعراء الأمويين البارزين : أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة ت 85هــ ، وعبد الله بن مجارق المعروف بنابغة بني شيبان ، وعدي بن الرقاع شاعر الوليد بن عبد الملك . ومـــن فحـــول الشعراء الأمويين العراقيين الذين عاشوا في كنف الأمويين : جرير والفرزدق والأخطل .

وبـــرز من شعراء الأحزاب المناوئة للأمويين شعراء الشيعة وأبرزهم : النعمان بن بشير الأنصـــاري ت 65هــ ، وأبو الأسود الدؤلي ت 99هــ ، والكميت بن زيد ت 126هــ . ومـــن شعراء الخوارج : الطرماح بن حكيم ت 100هــ ، وعمران بن حطان ت 89هــ ، وإسماعيل بن سيارت 110هــ ، ومن حزب الزبيريين ابن قيس الرقيات ت 75هــ .

وظهـــر في هـــذا العصـــر شعراء الغزل بنوعيه العذري الذي امتاز بالبساطة والصدق والرصانة وبرز فيه : جميل بثينة ت 82هــ ، وليلى الأخيلية ت 75هــ .. والغزل المترف وقد اشتهر به عمر بن أبي ربيعة ت 93هــ .

شهد العصر العباسي ثورة ضخمة في الشعر كمية ونوعية من حيث : الموضوعات والمعاني والأســـاليب والألفـــاظ ، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة سابقا . وذهبت أخرى ، فقد ضـــعف الشعر السياسي والحماسي والغزل العذري ، وقوى شعر المدح والرثاء وازداد الشعر الحكمـــي وظهر الشعر الزهدي والصوفي والفلسفي والتعليمي والقصصي . وأسرف الشعراء المتأخرون في استعمال ضروب البديع من جناس وطباق ، واهتموا بتزويق اللفظ .

ازدهرت الحركة الشعرية والأدبية بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة وانـــتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة وتبلور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإســـلامية مع بعضها بعضا من جهة ومع غيرها من جهة أخرى ، فضلا عن تشجيع الخلفاء والحكام للشعراء في بغداد والمدن الأخرى ، ولمع في سماء الأدب العباسي شعراء عديدون كبار أمـــثال : بشـــار بن برد ت 168هــ ، وأبو نواس ت 198هــ ، وأبو تمام حبيب بن أوس الطـــائي ت 228هـــ ، والبحتري ت 284هــ ، وابن الرومي ت 283هــ ، وأبو فراس الحمداني ت 357هــ ، وأبو العلاء المعري ت 449هــ .

وابـــتكر الشـــعراء الأندلسيون الموشح وطوروه وتفننوا في أساليبه وكان الموشح خطوة كبيرة في تطور شكل الشعر العربي ، فقد أتاح للشاعر حرية التصرف في القوافي وحرية التنوع

في الــوزن ، وكان من نتائج انتشار الموشح انبعاث أدب الزجل الشعبي . ومن أشهر شعراء الأندلس : ابن زيدون ت 463 هـ والمعتمد بن عباد ت 488هـ .

لقد نال الشعر من الاهتمام ما لم ينله أي لون من ألوان الأدب العربي لما عرف عن صلة العــرب بالشعر ، فقد قيل (الشعر ديوان العرب) ، وكان الشعر والأدب ينقل شفاها منذ العصــر الجاهلي حتى عصر التدوين المنظم في القرن الثاني الهجري وما تلاه حيث اهتم الرواة بــرواية الشعر الجاهلي وتدوين قصائده المتناقلة شفهيا عبر عشرات السنين فسجلوا لنا روائع الشــعر الجاهــلي رغــم ضياع أكثره ، وفي إطار هذا الجهد التدويني للشعر الجاهلي ظهرت مجموعــات شعرية مهمة كالمعلقات والمفضليات والأصمعيات ، فالمعلقات هي أقدم ما بقي لنا مــن مجموعات الشعر الجاهلي ، وهي سبع قصائد طوال لسبعة من شعراء الجاهلية المشهورين جمعها حماد الراوية ت 156هـ وسماها المعلقات .

والمفضليات هي المجموعة الشعرية الثانية للمفضل بن محمد الضبي الكوفي ت 164هـ ، والــتي سماها مؤلفها في الأصل (كتاب الاختيارات) لكنها اشتهرت بالاسم الأول على اثنتي عشــرة قصــيدة لســبعة وستين شاعرا جاهليا ومخضرما ، والمجموعة الثالثة هي الأصمعيات لعــبد الملك بن قريب الأصمعي ت 216هـ ، وتشمل اثنتين وسبعين قصيدة لواحد وستين شاعرا .

وهــناك مجموعات شعرية أخرى كمصنف (جمهرة أشعار العرب) لأبي زيد القرشي ، وديــوان الحماسة لأبي تمام ت 231هـ ، وديوان الحماسة للبحتري ت 284هـ ، وكتاب الشــعر والشــعراء لابن قتيبة ت 276 هـ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ت 231هـ ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى في القرن الرابع الهجري .. وغيرها من المصنفات الــتي دونــت أهــم ما حفظته ذاكرة الرواة من الشعر الجاهلي بعد الإسلام فصانته لنا من الضياع .

أما النثر فلم يكن أقل ثراء وخصبا من الشعر فكان للعرب نثر فني رائع مازالت نماذجه الحيــة تقرأ فتثير النفوس وتمتع العقول . وقد بدأ النثر في صدر الإسلام بسيطا مباشرا موجز العــبارة وبأشــكال عديدة منها : الرسائل والخطب والأحاديث والأمثال والقصص ، وبتقدم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدم النثر وتنوعت مواضيعه وتعددت فنونه فظهرت صنعة الكتابة وتــألقت في العصر الأموي . ومن كبار الكتاب الأوائل عبد الحميد الكاتب الذي استوعب

شروط الكتابة في رسائله المشهورة التي وجهها للكتاب حتى قيل : " بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد " .

وازدهر فن الكتابة في العصر العباسي ، ومن الذين اشتهروا في فن الكتابة الجاحظ الذي طور النثر المرسل ووسع آفاقه وصـار له إماما ، وكذلك ابن المقفع وبلغ النثر الفني مـداه في القرن الرابع الهجري ، فاشتهر أبو حيان التوحيدي بالسجع وابن العميد والخوارزمي والصابي وغيرهـم ، ثم طغـت بعـد ذلك على النثر موجة الزخرفة اللفظية والإسراف في التأنق على حساب دقة المعاني ، ويظهر ذلك واضحا في المقامات ورسائل بعض الكتّاب المتأخرين .

وتعـد الرسائل أحد أنواع النثر الفني والرسائل نوعان : الرسمية أو العامة والرسائل غير الرسمية ، وكانت الرسائل الرسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي موجزة واضحة لا تكلف فيهـا ، ثم أخـذ كتّاب الدواوين في العصر العباسي يتأنقون في الرسائل ، ومن أشهر كتّاب الرسائل : عبد الحميد الكاتب وابن العميد والصاحب بن عباد وغيرهم . أما الرسائل الخاصة أو الإخوانيات فهي التي يكتبها صديق إلى آخر ، ومن أشهر كتّاب هذا النوع : الجاحظ وابن زيدون .

وثـاني أشكال النثر العربي الخطابة ، فقد اهتم بها العرب بعد الشعر لأنها كلام يبلغ فيه الحماسة والخيال وكان للخطابة شأن كبير في الجاهلية وصدر الإسلام ، فكان العرب يدربون فتيانهم على الخطابة منذ صغرهم . ضمت كتب الأدب العديد من الخطب البليغة ، ومن أشهر خطباء العصر الراشدي الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ، وقد ضم كتّاب (نهج البلاغة) خطب الإمام علي ورسائله البليغة .

ازدهـرت الخطابـة في العصـر الأموي فكان العديد من الخلفاء والأمراء كعبد الملك والحجاج وزياد خطباء يعولون على الخطابة في إبلاغ الناس مقاصدهم والتأثير عليهم في نشر مبادئهم وأغراضهم ، وقد خلف لنا هذا العصر عددا كبيرا جدا من الخطب البليغة في عباراتها الغنية بأفكارها .

وشـهدت الخطابـة في العصر العباسي تراجعا كبيرا عن العصور السابقة ، ولم يبرز من الخلفاء من عرف بالخطابة .

واهتم العرب بالأمثال فجمعوها وألفوا فيها الكتب وأشهرها : (مجمع الأمثال) للميداني ت 518هـ ، و(المستقصي من الأمثال) للزمخشري ، وهو معجم للأمثال العربية مرتب على حروف الهجاء أوائل الأمثال .

وللعرب تراث ضخم في القصة مازال الناس يقرأونه فيبهرهم بسعة أفقه ولطف أخيلته وغرابة أحداثه ، وقد وردت في القرآن الكريم قصص عديدة تذكر وقائع الأمم الغابرة والأنبياء الأولين وجمع الرواة من أخبار الجاهلية وغزواتهم وأخبار عشقهم ، وفي القرن الرابع الهجري وضعت القصص الأدبية القصيرة التي تسمى المقامات ، ومن أشهر كتّاب المقامات بديع الزمان الهمذاني ت 298هـ ،كما ترجمت قصص عديدة من لغاتها الأصلية إلى العربية بأسلوب رفيع أهمها (كليلة ودمنة) لعبد الله بن المقفع .

وفي عهد الفاطميين في مصر ازدهر فن القصة حيث وضعت أعظم القصص العربية وأطولها وهي قصة (عنتر وعبلة) التي يسميها مؤرخي الأدب الحديث (إلياذة العرب) ، وقد وضعها يوسف بن إسماعيل في عهد العزيز بالله الفاطمي ت 386هـ ، كما ألفت قصص عديدة زمن الحروب الصليبية تشيد بمآثر أبطال العرب والمسلمين ، وأشهرها : سيرة الظاهر بيبرس وقصة أبي زيد الهلالي ، كما جمعت في مصر قصص (ألف ليلة وليلة) في القرن العاشر الهجري ، والقصص العربي عموما ثروة عظيمة في الأدب العربي .

ثانيا : الدراسات الإنسانية (الاجتماعية)

1 – علم التاريخ :

التاريخ لغة يعني التعريف بالوقت ، والتاريخ علم يبحث في وقائع الماضي وأوقاتها . وكان للعرب قبل الإسلام ثقافة تاريخية شفهية يتناقلونها جيلا عن جيل ، واتخذوا من بعض الحوادث المهمة بداية لتاريخهم كبناء الكعبة وعام الفيل ، كما تناقل العرب أخبار وقائع قبائلهم التي سموها (أيام العرب) ، وهي مجموعة الروايات الشفهية الجماعية التي لا مؤلف لها ، وقد تتخللها الأشعار أحيانا ، وأيام العرب المشهورة كثيرة ومعظمها تحمل أسماء المواضع التي وقعت فيها مثل : يوم ذي قار وحرب البسوس وغيرها .

واهتم العرب كثيرا بالأنساب ، ذلك أن نظامهم الاجتماعي قائما على القبلية التي أساس وحدتها صحة النسب ، وقد رصد لنا النسابون سلاسل وشجرات نسب القبائل وتفرعاتها

العـــرقية . وقـــد قوّى الاهتمام بعلم الأنساب بعد الإسلام وبخاصة حينما استحدث عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه دواويـــن الدولة ، ومنها ديوان الجند لتقسيم الغنائم على الفاتحين على أساس انتماءاتهم القبلية .

أسهم انتشار الإسلام السريع في تنمية الوعي التاريخي عند العرب والمسلمين فقد وردت في القرآن الكريم أخبارا عديدة وإشارات إلى الأمم السابقة والأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي محمد ﷺ ، لذا حرص علماء المسلمين على فهم أخبار تلك الأمم الأقوام ، كما اطلع العرب على تاريخ الأمم التي جاورتهم بعد حركة الفتوحات مما أثر في ثقافتهم التاريخية .

ومن أهم العوامل التي أثرت في نشأة وازدهار علم التاريخ عند العرب المسلمين :

1 – جهـــود الإخـــباريين الأوائل الرامية إلى سرد وتسجيل أخبار العرب قبل الإسلام ومعرفة ماضي الأقوام البائدة التي سكنت الجزيرة العربية .

2 – اهتمام بعض الخلفاء والأمراء والحكام بالتاريخ للوقوف على أخبار العرب القدماء وتاريخ الأمم المجاورة ، فيروى أن معاوية كان يطالع أخبار العرب وأيامهم وسير ملوك الفرس والروم عن طريق غلمان مهمتهم قراءة الأخبار عليه بصحف بأيديهم ، وبذلك تم تدوين تاريخ الأمم المجاورة للعرب قبل تدوين تاريخ الفتوحات الإسلامية وكان الأمويون يطلقون على هذا التاريخ (علم أخبار الماضين) ، كما اشتهر الظاهر بيبرس بحبه للتاريخ .

3 – ساهمت حركة الفتوح في إدخال العديد من الشعوب والأمم ذات التاريخ العريق للإسلام ، فشجع ذلك المؤرخين العرب للتعرف على أحوال تلك الشعوب وتاريخها القديم .

4 – وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين للاهتمام بالتاريخ لما فيه من قصص وأخبار عن الأمم السابقة .

5 – الاهتمام بتتبع حياة الرسول ﷺ وغزواته وتعاليمه وسيرته ، وتسجيل كل ما يمس حياته وصفاته بصدق وأمانة .

6 – ســـاهم تدويـــن الحديث الشريف في تنمية الحس التاريخي عند العرب من خلال مراحل جمعه وتنقيته ، لأن ذلك استدعى معرفة سيرة الرسول ﷺ .

7 – ظهـــور فئة من كبار المؤرخين المسلمين الذين تميزوا بحماستهم لدراسة ماضي الأمة الإسلامية دراسة منهجية دون أي كسب مادي .

8 – كـــان لظهـــور الحركات المعادية للعرب كالشعوبية دافع قوي للبحث عن الماضي ودراســـة وبيان صفحاته المشرقة ، لأن هذه الحركات حاولت الحط من شأن العرب وتشويه ماضيهم .

أساليب ومناهج الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين :

ظهر أسلوبان في تدوين التاريخ عند العرب هما : أسلوب المحدثين الذي ظهر واضحا في تاريخ السيرة النبوية التي نشأت في المدينة المنورة ، وتميز أسلوبها بذكر الخبر على وجه الإيجاز وذكر الراوي الذي رواه . أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب الإخباريين الذي تميز بإعطاء صورة كاملة عن الواقعة التاريخية وذكر التفاصيل ورواية الشعر والخطب وكان مقرها الكوفة ، ومن أشهر الإخباريين : أبو مخنف الأزدي ت 157هـــ ، وعوانه بن الحكم الكلبي ت 147هـــ ، وسيف بن عمر الكوفي ت108 هـــ ، والمدائني ت 225هـــ الذي يعد من أهم الإخباريين . وذلـــك لاعـــتماده عـــلى الإسناد أكثر من غيره ، واتباعه أسلوب المحدثين في نقد الروايات وتمحيصها وتنظيمها ، وفي مطلع العصر العباسي اتخذ الأسلوبان وجمع المؤرخون بينهما .

ومن أهم مناهج الكتابة التاريخية عند العرب :

أ – كتب السيرة النبوية ومغازي الرسول :

دفـــع اهـــتمام المســـلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها في التشـــريع الإسلامي والنظم الإدارية الكتّاب إلى التصنيف في سيرة الرسول ﷺ ومغازيه ، وهـــي الحروب والغزوات التي شارك فيها الرسول ﷺ ، ويمكن تقسيم رواة السيرة وكتبهم حســـب تقدمهم الزمني إلى ثلاث طبقات : الأولى : من أبرز رجالها : أبان بن عثمان بن عفان ت 105هـــ الذي ترك وراءه صحفا تضم شذرات عن حياة الرسول ، وعروة بن الزبير بن العـــوام ت 92هـــ ويعزى إليه كتاب في المغازي النبوية ، لكنه لم يصل إلينا فقد نقل عنه ابن إســـحاق والواقـــدي ، وشرحبيل بن سعد ت 123هـــ ، ومن رجال الطبقة الثانية محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ت 124هـــ ، ويعد من أعظم مؤرخي المغازي والسيرة . أما الطبقة الثالـــثة فمن أشهر رجالها محمد بن إسحاق ت 150 هـــ وتنسب إليه أقدم كتب السيرة التي وصلتنا ، محمد بن عمر الواقدي ت 207هـــ الذي فاق الجميع بدقة رواياته ورصانة أسلوبه .

ب – كتب الطبقات :

عـــرفت الثقافة التاريخية العربية منذ وقت مبكر كتب الطبقات والتراجم الضرورية التي تتعـــلق بـــتدوين الحديث الشريف وتوثيقه ، فأدى ذلك إلى النظر في أسانيد الحديث وأحوال الرواة وظهرت الطبقات في مجالات شتى ، منها : كتب طبقات المحدثين ، وطبقات الشعراء ، وطبقات النحويين والأطباء . ومن أشهر كتب الطبقات : (الطبقات الكبرى) لمحمد بن سعد الزهـــري ت 230 هـــ ، و(طبقات الصحابة) لمحمد بن عمر الواقدي ت 207 هـــ ، وهو في عـــدة أجزاء ، وبلغت تراجمه حوالي ثلاثة آلاف ترجمة ، ويعد حلقة وصل بين علم الحديث والرواية التاريخية ، وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ت 232هـــ ، وطبقات الأطباء لأحمد بن أبي اصبيعة ت 668هـــ ... وغيرهم .

ج – كتب التراجم :

وهـــي مصـــنفات تعرض لسير حياة مشاهير الناس الذين تجمعهم صفة الشهرة في مجال تخصصـــهم وبشكل موسوعي وتتناول العلماء والأدباء والقادة والخلفاء وغيرهم ، وأشهرها : (معجـــم الأدباء) لياقوت الحموي ت 626هـــ ، و (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثـــير ، و(وفيات الأعيان) لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان ت 681هـــ ، وهو من أشـــهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطا وإحكاما ، و(فوات الوفيات) لابن شاكر الكتبي ت 764هـــ ، و(الوافي بالوفيات) لمؤلفه صلاح الدين خليل الصفدي ت 764هـــ .

د – كتب الفتوح :

الـــتي اهتمت بفتوح البلدان والأمصار مثل : كتاب (فتوح مصر والمغرب والأندلس) لابـــن عـــبد الحكم ت 257هـــ ، و (فتوح البلدان) للبلاذري ت 279هـــ ، و (فتوح الشام) للواقدي ت 207هـــ .

هـــ – كتب الأنساب :

زاد اهـــتمام العرب بأنسابهم قبل الإسلام عقب الفتوحات الأولى لدوافع إدارية كتنظيم العطـــاء في عهـــد عمر بن الخطاب ولإسكان القبائل في المدن الجديدة ، كما اشتدت العناية

بالأنساب في العهد الأموي ، ومن أشهر النسابين العراقيين : محمد بن السائب الكلبي ت 146 هـ صاحب كتاب (جمهرة النسب) ، ومصعب الزبيري ت 236هـ مؤلف كتاب (نسب قريش) .

و – التواريخ المحلية :

وهـي المصـنفات التاريخية التي كرست لتاريخ بلد معين بكثير من التفاصيل . ومن أشهرها : كتاب (ولاة مصر وقضاها) لأبي يوسف الكندي ت 350 هـ ، وكتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ت 462هـ ، و(تاريخ دمشق) لعلي بن الحسن بن عساكر ت 571 هـ ويقع في ثمانين مجلدا ، وكتاب (البيان المغرب في أخبار المغرب) لابن عذاري ت في القـرن السـابع الهجري ، وكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي ت 874هـ .

ز – كتب التواريخ العامة :

توسـعت اهتمامات المؤرخين فنشأت إلى جانب السير والتراجم مؤلفات أرحب وأوسع وأشمل يطلق عليها (التواريخ العامة) التي تعنى بكتابة التاريخ مسلسلا وفق تعاقب السنين ، ويسـجل فيهـا المـؤرخ تاريخ البشرية منذ الخليقة مرورا بالرسالات السماوية قبل الإسلام والتاريخ الجاهلي وعصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين إلى التواريخ الإسلامية اللاحقة .

ومن أشهر مؤلفي التواريخ العامة : محمد بن جرير الطبري ت 310 صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) المشهور بتاريخ الطبري ، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسـعودي ت 346هـ ، وهو كتاب ذو طابع موسوعي ، وكتاب (الكامل في التاريخ) ويعرف بتاريخ ابن الاثير لمؤلفه عزالدين بن الأثير ت 630هـ ، وهو من أوثق مصادر التاريخ الإسلامي ، وكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر) المشهور بتاريخ ابن خلدون لمؤلفه أبي زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ت 808 هـ .

2 – علم الجغرافيا :

أطــلق العرب المسلمون على علم الجغرافيا أسماء عديدة منها : علم (تقويم البلدان) ، وعــلم (المســالك والممــالك) ، وعــلم (مسالك البلدان والأمصار) ، وعلم (الأطوال والأعــراض) . وكــان للعرب قبل الإسلام اهتمامات بالجغرافيا ومعارفها حيث عرفوا علم الأنــواء والمبادئ الفلكية ، ويعود ذلك الاهتمام لسببين : الأول : أن حياة التنقل والترحال تحتاج إلى معرفة مواطن الكلأ والماء والعشــب والطــرق المؤدية له . والثاني : اشتغال بعضهم بالتجارة مما استدعى معرفتهم بطرق التجارة وجغرافية المناطق التي يتاجرون فيها .

أدرك المســلمون أهميــة علم الجغرافيا فأخذ الاهتمام به ينمو تدريجيا حتى غدا من أهم العلوم عندهم .

جاء اهتمام المسلمين بالجغرافيا لعدة أسباب :

1 – كان الدين الإسلامي من أهم الحوافز التي دعت إلى الاهتمام بالجغرافيا لتحديد اتجاه القبــلة في البلاد الإسلامية المختلفة ومعرفة مواعيد الصلاة والصيام ، وتطلب ذلك معرفتهم بخطوط الطول والعرض ودراسة علم الفلك .

2 – كان الحج إلى مكة يستقطب أفواج المسلمين كل عام ، وذلك تطلب منهم معرفة جغرافية بالمسالك والطرق والمنازل فنشطت عندهم رحلات الحج وغيرها .

3 – حاجــة العرب إلى معرفة طبيعة البلاد التي امتدت إليها الدولة الإسلامية ، الأمر الذي دفع الخلفاء والأمراء والحكام للعناية بعلم الجغرافيا لمعرفة أرجاء دولتهم والطرق المؤدية لها ليكونوا على صلة بها ، ومعرفة ما تنتج من محاصيل وأحوال سكانها فضلا عن تجارتها وتنظيم أعمال الخراج والزكاة ومحطات البريد والمراحل التي تقطعها ومواقع المدن فيها .

4 – رغــبة العلماء المسلمين في التزود بالعلوم الإسلامية دفعتهم إلى الترحال في طلب العــلم إلى حواضر الثقافة العربية الإسلامية وعواصمها والتعرف على سكانها ودراسة عاداتهم وتقــاليدهم ، وقصدوا من وراء ذلك الاستزادة في المعرفة وخدمة العلم واكتشاف المجهول . فقد أصبح من التقاليد الراسخة في العالم الإسلامي آنذاك ، أن لا يكتفي طالب العلم بالدراسة عــلى شــيوخ بلده ، بل يرحل إلى البلاد المختلفة ليدرس على علمائها وينهل المعرفة منهم ، فضلا عن الرحلات التجارية داخل العالم الإسلامي وخارجه ، فقد مدوا نشاطهم التجاري إلى

الصين وأواسط إفريقيا وشرقها والهند ، وساعد استقرار الدولة وشيوع الأمن على تلك الأنواع من الرحلات ، واقتضى ذلك كله معرفة معلومات دقيقة عن البلاد غير الإسلامية .

5 – حاجة العرب المسلمين إلى معرفة معلومات دقيقة عن البلاد غير الإسلامية وبخاصة البلدان المجاورة ، وقد استمدوا تلك المعلومات عن طريق الوفود والسفارات التي تتبادلها مع الدول المجاورة والرحالين والتجار الأجانب وأسرى الحرب .

6 – أفاد اطلاع الجغرافيون العرب على الكتب المترجمة في الجغرافيا والفلك إلى اللغة العربية ، وأشهرها : كتاب (السند هند) ، وكتابا (المجسطي) و(المدخل لعلم الجغرافيا) للجغرافي اليوناني بطليموس ت 168م.

تطور علم الجغرافيا عند العرب وأشهر المناهج الجغرافية الإسلامية :

تعرف العرب في صدر الدولة العباسية على مؤلفات بطليموس بعد ترجمتها إلى العربية ، إلا أنهم سرعان ما تجاوزوه وصححوا الكثير من أخطائه . ومن المعارف التي ثبتها من الجغرافيين العرب والتي أخطأ فيها بطليموس (كروية الأرض) ، وقال هذه الحقيقة العديد من الجغرافيين العرب وأبرزهم : ابن خرداذبة ، وابن رستة ، والمسعودي ، والإدريسي . فابن رستة أكد أن الشمس لا تطلع على جميع بلاد العالم في وقت واحد وأنها تطلع على مناطق الشرق قبل الغرب ، وإن غابت في الغرب فهي طالعة في الشرق ، وكان الإدريسي أول من رسم خارطة على سطح الكرة لملك صقلية .

وبفضل إيمانهم بكروية الأرض وتوسع استعمالهم للبوصلة كانوا أول من حاول الدوران حول الأرض ، وكانت معرفتهم في الجغرافيا الوصفية تفوق الوصف بحيث فاقت ما كان يعرفه جغرافيو اليونان والهند والسريان .

أما أشهر مناهج الجغرافيا الإسلامية فهي :

1 – كتب الجغرافيا العامة :

وهي المصنفات التي يصف فيها أصحابها العالم الإسلامي وصفا شاملا مثل : كتاب (المسالك والممالك) لعبيد الله بن أحمد بن خرداذبة ت 280هـ الذي تناول فيه إحصائيات عن الجباية والطرق والمسافات في الدولة العباسية ، وكتاب (المسالك والممالك والمفاوز

والمهالك) لابن حوقل ت 367هـ ، وكتاب (صورة الأرض) و(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) لمحمد بن أحمد المقدسي ت 380هـ الذي طاف أكثر بلاد الإسلام وامتاز ببعد نظره وكثرة ملاحظاته ، وكتاب (البلدان) لليعقوبي .

2 – كتب الجغرافيا الخاصة :

وهي المصنفات التي تهتم بدراسة جغرافية منطقة معينة أو مدينة خاصة مثل : كتاب (صفة جزيرة العرب) لابن الحائك الهمداني ت 334هـ ، وهو كتاب يصف الجزيرة العربية ومساكنها وجبالها ومدنها ولغاتها وزراعتها وآثارها ، وكتاب (أخبار مكة) للأزرقي ، وكتاب (تحقيق ما للهند) للبيروني وهو من أهم الكتب عن الهند .

3 – كتب المعاجم الجغرافية :

وهي المصنفات التي تهتم بحصر أسماء الأماكن وما يتعلق بها من معلومات حسب الحروف الهجائية ،ومن أمثلة هذا النوع : كتاب (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) للبكري الأندلسي ت 487هـ ، ويعد أول معجم جغرافي عربي وهو يركز على الجزيرة العربية علما أن مؤلفه لم يقم بأي رحلة ولم يغادر الأندلس إذ اعتمد في كتابه على مؤلفات من سبقه من الجغرافيين ، وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحومي ، كما ألف (ابن رستة) ت 300 هـ في أواخر القرن الثالث الهجري كتاب (الأعلاق النفيسة) ، وهو معجم جغرافي في عدة مجلدات ، وقد وضعه لخدمة كتاب الدواوين وضمنه معلومات تاريخية وجغرافية ، وألف محمد ابن عبد المنعم الحميري الأندلسي ت 866هـ معجما جغرافيا مهما سماه (الروض المعطار في خير الأقطار) .

4 – كتب الموسوعات الجغرافية :

وهي المؤلفات الشاملة في مباحث الجغرافيا الاجتماعية والسياسية والثقافية والوصفية ، فضلا عن احتوائها لكثير من المعلومات التاريخية ، ومنها موسوعة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لشهاب الدين بن فضل الله العمري ت 748هـ ، وقد أفاد من اشتغال أسرته في إدارة البريد المملوكية مما أتاح له التوفر على ثقافة جغرافية والاطلاع على الطرق والمسافات والمسالك .

5 – كتب الموسوعات الجغرافية – التاريخية :

وهي المصنفات التي تبحث في التاريخ وتتضمن معلومات جغرافية مهمة ، وأهمها كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لأحمد بن عبد الوهاب النويري ت 733هـ ، وهو موسوعة تاريخية جغرافية أدبية شاملة ،وكتاب (صبح الأعشى في كتابه الإنشا) لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي ت 821هـ ويضم معلومات عن الأزمنة والتواقيت والأرض وأشكالها وأقاليمها الطبيعية ، وكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) المعروف (بالخطط المقريزية) لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي ت 845هـ ، فقد اهتم بجغرافية مصر وعمرانها وموقعها واقتصادها ومحاصيلها .

6 – كتب الرحلات :

تعد الرحلات من المصادر المهمة للدراسات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ، والملاحظ أن ما يميز الرحلات صبغتها المغربية ، إذ إن أكثر الرحلات ومؤلفيها كانوا مغاربة أو اندلسيين ، وذلك لأنهم توافدوا على مكة والمدينة لأداء فريضة الحج ، وكان كثير منهم فقهاء وعلماء وجغرافيين فسجلوا لنا مشاهداتهم الوصفية العلمية للأقطار التي مروا بها .

ومن أشهر الرحالة العرب أحمد بن فضلان ت 310هـ صاحب الرحلة إلى نهر الفولغا وبلاد الترك والجزر تنفيذا لأمر الخليفة المقتدر ، وعرفت رحلته باسم (رسالة ابن فضلان) ، والرحالة محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ت 614هـ الذي رحل إلى الشرق ثلاث مرات استغرقت إحداها ثلاث سنوات ، وقد وصف كل ما شاهده من مدن ومشاهد وما يكابده المسافرين من ضيق في سفرهم ، كما لم يغفل الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين ، لذا تعد رحلته (رحلة ابن جبير) كتاب تاريخ وجغرافيا وأدب .

ومن أشهر الرحالة أيضا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطة الطنجي ت 779هـ ، الذي طاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس والبحرين وبعض مناطق الصين والهند وإفريقيا ، وتسمى رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) المشهورة برحلة ابن بطوطة ، وقد استغرقت تلك الرحلة سبعا وعشرين سنة .

والخلاصـــة ، فإن المؤلفات الجغرافية العربية تعد مصدرا مهما لعلماء التاريخ والجغرافيا والأدب حيـــث كتـــبت بأســـلوب محكم العبارة دقيق التنظيم ، وأبدعوا في رسم المصورات الجغـــرافية لأكثر الأمكنة التي زاروها ووضعوا لها المعاجم الجغرافية المعتمدة حتى الآن ، كما عـــرفوا كروية الأرض وقاسوا أبعادها وحددوا خطوط الطول والعرض وطوروا الأسطرلاب وغيرها من العلوم .

3 – الفلسفة :

تعـــني الفلســـفة في اليونانيـــة (حب الحكمة) ، وموضوعها البحث في الكون وطبيعة الإنســـان وســـلوكه الأخلاقي . وأداء الفلسفة الوصول لمعرفة العقل وما اكتشفه من قوانين المنطق وأساليب الجدل والبرهان والاستقراء والاستنتاج .

نشـــأت بدايات التفكير الفلسفي في العراق ومصر والهند والصين ، ومن العراق ومصر انتقل التراث الفلسفي إلى اليونان حيث بدأت الفلسفة تزدهر عندهم منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وحاولت أن تقدم تفسيرا متناسقا للكون والإنسان .

لم تصل الفلسفة اليونانية إلى المسلمين مباشرة لأنهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ، ونظرا لاهـــتمام العـــرب والمســـلمين بالفلسفة اليونانية عهدوا إلى النصارى والسريان بترجمتها إلى العـــربية ، فعكفـــوا عـــلى دراستها وشرحها وتفسيرها وتوضيح غوامضها . لكن المسلمين لم يكونوا مجرد مترجمين ونقلة يرددون ما قاله فلاسفة اليونان بل أنتجوا فكرا فلسفيا خاصا بهم، لذا تعددت جوانب الفكر الفلسفي العربي الإسلامي . ومن أهمها : علم الكلام ، والتصوف ، والأخلاق ، فكتبوا في الطبيعة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) والمعرفة والأخلاق .

ولم يهتم المسلمون بما تميز به الفكر اليوناني من عقائد لتعارضها مع التوحيد ، لذا انصب الاهتمام بالفلسفة اليونانية على الأساليب والجدل والمنطق ، إذ أفاد منها المسلمون في الرد على مخالفتهم من اليهود والنصارى ، وقد أدى هذا الاهتمام إلى نشوء علم الكلام الذي يعد مدخل الفلســـفة الإسلامية بعئذ . ونظرا لما للدين من مكانة في حياة المسلمين وتفكيرهم فقد انصبت معظـــم جهـــود العلماء العرب والمسلمين على التوفيق بين الفلسفة والدين ، فاتخذ المتكلمون المسلمون الإيمان ركيزة لفكرهم وانطلقوا منه لمواجهة خصومهم بأسلوب العقل والمنطق ، وفي مقدمة هؤلاء المعتزلة ومذهبهم الذي انتشر في أوائل القرنين الثاني والثالث الهجريين .

تأثر الفلاسفة المسلمون بالفلسفة اليونانية القديمة والحديثة وتناولوا آراء سقراط وأفلاطون وأرسطو بالدرس والشرح والتحليل مما يدل على فهمهم الحقيقي لها ، وأدى ذلك إلى تأثير تلك الفلسفة في دراسة العلوم ومنهجيتها ، وظهر ذلك واضحا في رسائل (إخوان الصفا وخلان الوفا) ، وهي فرقة سرية تأسست في البصرة أواخر القرن الرابع الهجري بتشجيع من البويهيين ، وقد رتبوا بحوث الفلسفة التي كانت شائعة في أيامهم ، وعملوا على تعليم الفلسفة لعامة الشعب وخلفوا لنا اثنين وخمسين رسالة في الرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعية وعلم النفس والتصرف .

خدم الفلاسفة المسلمون الفكر الإنساني بطريقتين الأولى : تتمثل في فهمهم للفلسفة اليونانية وشرحها شرحا مفصلا لم يسبقهم إليه أحد من المفكرين ولا يظهر إبداعهم بالنتائج التي توصلوا إليها فحسب ، وإنما في أسلوب عرضها والمجادلة فيها ، والثانية : تعريف الغرب الأوروبي بالفكر الفلسفي اليوناني عن طريق الأندلس وصقلية عبر الحروب الصليبية ، ولولا جهود الفلاسفة المسلمين لما تيسر للغرب فهم الفلسفة اليونانية التي ترجموها من العربية إلى اللاتينية .

أشهر الفلاسفة العرب المسلمين :

أ – الكندي :

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الكوفي ت 260هـ مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية ، درس في الكوفة ببغداد وكان على صلة بالمأمون والمعتصم والمتوكل . خلف مؤلفات بلغت ثلاثمائة وستين كتابا ورسالة في مختلف العلوم وكتب الفلسفة والحساب والهندسة والنجوم والفلك والجغرافيا والسياسة والموسيقى والطب وغيرها .

كانت فلسفة الكندي على مذهب الأفلاطونية الحديثة التي حولها وقربها من العقائد الإسلامية ،فهو يقر بخلق العالم من العدم وبعث الأجساد يوم القيامة ، وأن أفعال الله فوق قوانين الطبيعة ، ويرى في النبوة أرفع كمال يستطيع البشر بلوغه ، وللنبي معرفة إلهية وصلته عن طريق الوحي والإلهام وهي أرفع درجات المعرفة البشرية ، ومن أشهر كتبه (الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد) ، فضلا عن خمس رسائل فلسفية .

ب – الفارابي :

يعـــد أبـــو النصـــر محمد بن محمد بن طرحان الفارابي ت 339هـــ من أكبر الفلاسفة المســـلمين . جمـــع الفلسفة اليونانية ورتبها وشرحها . ومن أشهر كتبه وأخطرها (آراء أهل المديـــنة الفاضـــلة) الـــذي شرح فيه نظام المجتمع الإنساني الأمثل ، وحاول أن يفسر نواحي الإسلام المختلفة وجوانب الثقافة العربية الإسلامية المتعددة في ضوء فلسفته الخاصة ، فبحث في عـــلم الكلام والعقيدة والفقه والتشريع – وللفارابي أثر فلسفي عظيم على أوربا في العصور الوسطى حيث نقلت كتبه إلى اللاتينية وطبعت في باريس سنة 1638م .

ج – ابن سينا :

أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ت 428هـــ المشهور بالشيخ الرئيس . كان نابغة عصـــره في الفلســـفة والطـــب . ألف كتبا عديدة أشهرها : (القانون في الطب) ، وكتاب (الشفاء) وملخصه (النجاة) في الفلسفة ، ورسالة (حي بن يقظان) . لقد أثر ابن سينا في الشـــرق والغرب تأثيرا عظيما وترجمت كتبه الطبية والفلسفية إلى اللاتينية لتكون أحد ينابيع المعرفة في أوربا .

د – ابن رشد :

أبـــو الوليـــد محمـــد بن أحمد بن رشد الأندلسي ت 595هـــ أعظم فلاسفة المسلمين المـــتأخرين – ألف كتبا عديدة معظمها شروح وملخصات لكتب أرسطو ، لذا عرف في أوربا باســـم (الشارح) ، وقد نقلت جميعا إلى اللغة العربية وترجمت إلى اللغة اللاتينية فأحدث أثرا عميقـــا في الفكـــر الفلســـفي والديني في أوربا . وقد اقتبس العرب فلسفة ابن رشد بكاملها ففـــتحت أمـــام الفكـــر الفلسفي الأوربي الوسيط باب البحث والمناقشة فنشأ بينهم مذهب (الرشدية) للأخذ بالعقل عند البحث ، وأشهر مؤلفاته : (تهافت التهافت) الذي وضح فيه العلاقة بين الفلسفة والدين وبين أن الحقيقة واحدة ، حيث تصل إليها الفلسفة والشريعة كل بطرقها الخاصة وتعبر عنها بأسلوب خاص .

وهـــناك العديد من الفلاسفة العرب المتصـــوفين ، وأشـــهرهم : الحســـن البصـــري ت 110هـــ ، والحسين بن منصور الحلاج ت 309هـــ ، والغزالي ت 505هـــ ، وظهر في الأندلس الفيلسوف ابن عربي وابن باجة ت 1139م وابن طفيل ت 481هـــ .

ثالثا : الدراسات والعلوم العقلية والتطبيقية

أ – الطب :

عــرف العرب قبل الإسلام الطب لكن معرفتهم كانت مبنية على التجربة والملاحظة ، فكــانوا يعــالجون بالرقي والسحر وتقديم النذور لأصنامهم ويستخدمون العقاقير والأعشاب الصــحراوية والفصد والكي بالنار . واحتلت المعرفة الطبية مكانة مرموقة بعد الإسلام الذي اعتــبر الجسم ضرورة لتحقيق سعادة الإنسان حسب قول الرسول ﷺ : " إن لجسدك عليك حقا". كما أن عبادات الإسلام تحقق أهم غرض من أغراض الطب وهو حفظ صحة الإنسان ، فالصلاة والصيام و الحج وما تتطلبه من عبادات تحفظ للجسم صحته ونشاطه وقوته .

وقد أفاد العرب من تراث الأمم المجاورة في مجال الطب ، فقد تخرج الحارث بن كلدة من مدرسة جنديسابور الطبية في الأحواز التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي : وانطلاقــا مــن مبدأ التسامح الإسلامي كان لا يمنع التداوي أو الدراسة على يد طبيب غير مســلم ، ففي عهد الرسول ﷺ استدعى الحارث بن كلدة لعلاج سعد بن أبي وقاص ولم يكن الحارث مسلما .

وبعــد انتشار الإسلام في المناطق المفتوحة واستقرار الحكم العربي فيها استخدم الخلفاء أطــباء مــن غــير العــرب والمســلمين وشجعوهم وبالغوا في إكرامهم ، فاستخدم معاوية ابــن أبي سفيان الطبيب ابن أثال ، كما عالج عبد الملك بن أبجر الكناني الطبيب الخليفة عمر ابــن عــبد العزيز ، وفي العصر العباسي استدعى المنصور من جنديسابور طبيبا نسطوريا هو جورجيــوس بختيشوع لعلاجه ، وعرف من أسرة هذا الطبيب سبعة أجيال مارسوا الطب في قصور الخلافة ، كما عالج اثنان من الأطباء اليهود في مصر صلاح الدين الأيوبي .

لم يعرف العرب قبل الإسلام البيمارستانات (المستشفيات) ، ويمكن اعتبار الخيمة التي ضــربها الرسول ﷺ في غزوة الخندق لعلاج جرحى المسلمين أول مستشفى في الإسلام ، فقد كانت (رفيدة الاسلمية) تداوي جرحى المسلمين فيها ، ولما أصيب سعد بن معاذ أمر الرسول بعلاجــه في تلك الخيمة ، وفي العهد الأموي كان الوليد بن عبد الملك بن مروان ت 88هـ أول من بنى بيمارستانا خاصا بالمجذومين وحجزهم وعين لهم الأطباء وأجرى عليهم الرواتب ، كما أجرى على العميان الأرزاق .

زاد اهـتمام العباسـيين بالبيمارستانات بصورة ملحوظة ، فقد أنشأ الرشيد في بغداد بيمارستانا سمي باسمه وعهد بإدارته إلى ماسويه وجبريل بن بختيشوع ، كما أنشأ الخليفة العباسي المقـتدر بيمارستانا ببغداد سنة 918هـ سمي باسمه وعهد بإدارته إلى الجراح سنان بن ثابت ، كمـا أمـر بإنشاء مستشفيات خاصة بالمساجين والمجانين وعين لهم الأطباء وزودهم بالأدوية والأطعمة والملابس ، وقد كثر المشتغلون بمهنة الطب في العالم الإسلامي حتى دعي للامتحان في بغـداد في عهد المقتدر بالله نحو تسعمائة طبيب ، وهم غير الأساتذة الثقات الذين تجاوزوا مرحلة الامتحان ، وذلك دليل على عناية الخلفاء بالصحة العامة .

ومن أشهر الأطباء العرب المسلمين :

1 – أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ت 313هـ ، وهو من أشهر الأطباء الموسوعيين حيث تولى رئاسة البيمارستان المقتدري ببغداد ، وكان أول طبيب مسلم يدون ملاحظاته على مرضاه ومراتب تطور المرض ، وأول من وصف الجدري . كتب الرازي أكثر من مائة كتاب وثلاثـين بحثا في الطب والكيمياء أشهرها كتابا (الحاوي والمنصوري) وقد ترجما إلى اللاتينية وكتاب (الأسرار) والكتاب الجامع ، ورسالة في الجدري والحصبة ، ويكفيه مكانة أن جامعة برنستون الأمريكية أطلقت اسمه على أكبر أجنحتها تخليدا لذكراه واعترافا بفضله العلمي .

2 – أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ت 428هـ . ونشأ وتعلم في بخارى واشتغل بالعلم الطبيعي والإلهيات ثم درس الطب واستوعب الكتب المصنفة فيه ، وله عدة مؤلفات في الطـب والفلك والموسيقى أشهرها كتاب (القانون في الطب) ، وهو موسوعة ضخمة جمعت خلاصة ما توصل إليه الطب العربي وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع عدة طبعات ، وكانت كتبه هـي المراجع المعول عليها في كليات الطب في أوربا حتى القرن السابع عشر ، وهو أول من وصـف الـتهاب السـحايا وصفا صحيحا ، ووصف أسباب اليرقان ، وانتبه إلى أثر المعالجة النفسية في الشفاء .

3 – خـلف بـن عباس الزهراوي ت 427هـ من كبار جراحي العرب وأستاذ علم الجراحة في أوربا في العصور الوسطى حتى القرن السابع عشر ، وقد بحث في التهاب المفاصل والسل ، وباشر الجراحة النسائية ، ونصح بالاستعانة بالممرضات والمساعدات من النساء حال إجراء العملية الجراحية للنساء ، وذلك للطمأنينة والرقة والأنس .

ومن أشهر الأطباء الكحالين : (أطباء العيون) أبو القاسم عمار بن علي الموصلي الذي لازم بلاط الحاكم بأمر الله الفاطمي وله كتاب (المنتخب في علاج أمراض الغيون) ، وعلي بن عيسى صاحب كتاب (تذكرة الكحالين) . وكان لأطباء العظام والمجبرين دورهم في الطب الإسلامي أيضا ، ومن أشهر هؤلاء عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي ت 629هـ الذي تأكد بطريق المشاهدة أن الفك الأسفل مكون من عظم واحد وليس من عظمين كما يقول جالينوس ، وبذلك صحح أخطاء الأطباء اليونانيين بعد أن شاهد أكثر من ألفي جمجمة ، كما عرف الأطباء المسلمون علاج الأمراض النفسية وبخاصة في فترة المراهقة ، وقد أشارت رسائل إخوان الصفا إلى هذا النوع من العلاج .

ب – الرياضيات والحساب :

أدى علم الرياضيات دورا كبيرا في خدمة العلوم الأخرى وبخاصة العلوم الطبيعية والتجريبية ، لذا يطلق عليه في أحيان عديدة (علم العلوم) ، ولم يستغن الإنسان منذ القدم عن المعارف الرياضية لصلتها بحياته الدينية والاقتصادية . ففي وادي الرافدين – أحد عروش المجتمع الإنساني في العصور الأولى – اكتشفت لوحة رياضية وفلكية مكتوبة بالخط المسماري بين سنتي 2300 و 1600 ق . م ، وفيما يتعلق بالأرقام استخدم البابليون الطريقة العشرية والطريقة الستينية .

ويرى الباحثون أنه ربما يكون للبابليين تأثير في استخدام الهنود لنظام العد عندهم ، واتبع المصريون القدماء في نظام عددهم النظام العشري المأخوذ من أصابع اليدين ووضعوا رمزا خاصا لكل مرتبة من المراتب الآحاد والعشرات والمئات . ويذكر أرسطو أن الرياضيات ولدت بمصر لأن الكهنة كان لديهم من الفراغ ما يسمح بدراستها ، واستنتج هيردوت بأن الهندسة بدأت بمصر ثم انتقلت إلى الإغريق ، وعرف الصينيون والهنود والإغريق والرومان أنواعا عديدة من كتابة الأرقام .

تأثرت الحضارة العربية الإسلامية بحضارات الأمم السابقة واعترفت بفضلها عن طريق الاتصال المباشر والرحلات والأسفار ، وعن طريق استدعاء الخلفاء لعلماء الإغريق ونقل العلوم إلى العربية ، وبذلك تعددت ثقافات العرب فحفظوا كنوز الإغريق العلمية ووصلوا بين علوم الهنود والإغريق ومزجوا بينها وبرعوا فيها . كما صحح العرب الكثير من الأخطاء

اليونانية في علوم الرياضيات والحساب وأضافوا إليها ونقلوها إلى الغرب ، وقد أدرك العرب أهمية العلوم الرياضية لاتصالها بالمعاملات التجارية ومعرفة الأصول الحسابية والهندسية ، كما تتطلب العبادات معرفة مواقيت الصلاة وهلال رمضان والحج وغيرها ، وقد دعا كل ذلك إلى ازدهار علم الفلك الذي كان يستلزم معرفة بالرياضيات والحساب .

بعدما اطلع العرب على نظام الحساب الهندي أخذوا ما وجدوه مناسبا فهذبوه وكوّنوا منه طريقتين مختلفتين لكتابة الأرقام هما :

1 – الطريقة المشرقية : والتي استعملت في بغداد وتطورت قليلا حتى أصبحت الأرقام التي تستعملها الآن في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وهي :

١ ، ٢ ، ٣، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

2 – الطريقة المغربية : والمعروفة أيضا بالأرقام الغبارية لأن الهنود كانوا يكتبونها على الغبار المبسوط على الخشب وغيره ، واستعملها أهل المغرب ومنها انتقلت إلى أوربا ويطلق عليها الأرقام العربية ، وهي مرتبة حسب عدد الزوايا ، وتطورت وأصبحت كالتالي :

1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، 10 .

لقد اهتدى العرب إلى الصفر الذي يعد أخطر رمز حسابي عرفه العقل البشري ، ولم تعرف أوربا الصفر إلا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر الميلادي ، كما عرف العرب الكسر العشري والنسبة بين محيط الدائرة وقطرها وهو ما يطلق عليه بالحرف (ط) .

أما أشهر علماء الرياضيات المسلمين فهو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ت 232هـ المعروف (بالأستاذ) ، وقد عينه المأمون مسؤولا على خزانة كتب (بيت الحكمة) ، وأمره باختصار المجسطي لبطليموس وسماه (السند هند)، وله مؤلفات عديدة في علم الهيئة والفلك والأسطرلاب ، وقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية وعرفه الغرب الأوربي وهو الذي أدخل الصفر في العد والحساب .

ومن علماء الحساب المشهورين أبو كامل شجاع بن أسلم المصري ت 318هـ الذي صنف كتاب (الجمع والتفريق) و (الطرائف في الحساب)، وأبو بكر محمد بن الحسن الكرخي ت 410هـ وصاحب كتاب (الكافي في الحساب) وهو من الكتب الهامة آنذاك .

ج – الجبر والهندسة :

الجبر علـــم عـــربي النشـــأة ونتاج عبقـــريتهم ولا زال يحتفظ باسمه عند الأوربيين كافة (Algebra) وأول من اشتهر بالتأليف في هذا المجال ونظمه هو الخوارزمي الذي كلفه المأمون بوضع كتاب (حساب الجبر والمقابلة) ، وعرفت أوربا علم الجبر في القرن الثاني عندما ترجم (روبـــرت التستر) كتاب الخوارزمي إلى اللاتينية ، وكتب الكرخي كتاب (الفخري في الجبر والمقابلة) في عهد البويهيين ، كما طور طريقة رياضية شرح فيها مفكوك المعادلة ذات الحدين فيما لو رفع إلى الأس .

وبـــرع أبو كامل بن أسلم المصري في حل المعادلات الجبرية وكيفية استعمالها في مسائل الهندســـة ونال شهرة واسعة حتى سمي (أستاذ علم الجبر) ، ويفخر أبو كامل بأنه تتلمذ على الخوارزمي ، ومن كتبه : (المساحة والهندسة) و(الجبر والمقابلة) و(الكامل بالجبر) وغيرها . وقـــدم أبـــو الوفاء البوزجاني ت 388هـــ خطوات مهمة في الجبر ساعدت أوربا على تقدم هندسة التفاضل والتكامل ، وكان عمر الخيام الشاعر والفيلسوف ت 517هـــ حجة في علم الجبر ومن مؤلفاته : (مقالة في الجبر) ، ورسالة في (حساب الهند) . وألف أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الاشبيلي في أواخر القرن السابع الهجري كتاب (اختصار الجبر والمقابلة) .

عـــرفت الهندســـة قديما عند البابليين والمصريين القدماء ، إذ بنوا أبنيتهم وفق معرفتهم الهندســـية آنذاك ، وتذكر الروايات أن العرب أخذوا الهندسة من اليونان عندما ترجموا كتاب إقليدس في الهندسة مرتين ، الأولى : عرفت (بالهارونية) نسبة إلى هارون الرشيـــد ، والثانية : (المأمونيـــة) نســـبة إلى المأمون ، واختصر الكتاب علماء مسلمون عديدون مثل : ابن سينا وثـــابت بن قرة وابن الصلت ، وفي كل تلك الترجمات والاختصارات درسوا الكتاب بعناية وصـــححوا أخطاءه ونقدوها وأضافوا وابتكروا علوما في الهندسة لم يعرفها من سبقهم . كما أقـــام العـــرب الجيوب مقام الأوتار وحلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا في أبحاث المخروطات وغيرها من الابتكارات التي كان لها أهميتها العظمى في تطور علوم الرياضيات .

وقـــد اهـــتم المسلمون بالهندسة لتلازمها المنطقي والتتابع المحكم بين القضايا الهندسية ، وافتقار معظم العلوم الطبيعية إلى الهندسة مثل : علم الفلك والميكانيكا وعلاقة الهندسة بالحياة اليوميـــة واستخدامها في المجالات الصناعية والعمارة والفنون والزخرفة والبناء والري وتوزيع

المياه ، فضلا عن ارتباط الهندسة بعلم الجبر حيث استخدمت الأشكال الهندسية في حل المعادلات الجبرية وعرض المسائل هندسيا وبالعكس .

ومن أشهر علماء المسلمين في الهندسة والمثلثات : الخوارزمي ، وثابت بن قرة الحراني ت 288هـ الذي برع في الحساب والهندسة والفلك ، وهو الذي وضع أساس الهندسة التحليلية بإدخاله علم الجبر على الهندسة ومن مؤلفاته : (المثلث القائم الزوايا) و(مقال في الهندسة) و (استخراج المسائل) وغيرها ، ومحمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر الذين اشتهروا في عهد المأمون ، والحسن بن الهيثم ت 430هـ صاحب كتاب (تربيع الدائرة) و(أصول المساحة) و(ارتفاع القطر) ، وأبو عبد الله البتاني ت 939هـ الذي ارتقى بعلم الحساب والمثلثات حين استبدل المثلثات بالمربعات في حل المسائل واستبدل جيب الزاوية بالقوس ، وهو الذي صاغ في حساب المثلثات النسب بالصورة التي تستخدمها الآن .

وصحح نصر الدين الطوسي ت 672هـ نظرية إقليدس الخاصة (بالفراغ المطلق) . من هنا يتضح لنا أن العرب قطعوا شوطا بعيدا في الرياضيات والحساب ، وقد ترجمت معظم مؤلفاتهم إلى اللاتينية ونقلت إلى أوربا منذ القرن الثاني عشر الميلادي وأفادوا منها كثيرا .

د – علم الفلك :

اهتم القدماء العرب بحركات النجوم والكواكب وربطوا بينها وبين معرفة الغيب وسموه (علم التنجيم) ، والعرب من الأمم التي عنيت بالكواكب والنجوم ليهتدوا بها في الليل وسط الصحراء ، كما اعتمدوا على الشمس والقمر في تقويمهم .

وللقرآن الكريم والسنة النبوية أثر كبير في تطور علم الفلك عند المسلمين ، فقد حث القرآن الكريم على التفكير في خلق السماوات والأرض ، ووردت آيات قرآنية كثيرة تدلل على قدرة الله وابداعه في خلق السموات والأرض منها : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[1] .

و ﴿ أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[2] .

(1) سورة آل عمران : الآية 190 – 191 .
(2) سورة الأنبياء : الآية 30 .

كما وردت آيات عديدة حول الظواهر الفلكية منها : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(1) . و ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾(2) . و ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾(3).

وساعدت حاجة المسلمين لتحديد أوقات الصلاة ومتابعة القمر لتحديد بدء شهر رمضان والحج على تطور علم الفلك والتنجيم ، ونفوا أي صلة بين حركة الكواكب والإنسان وآثارها في الخير والشر عليه . إلا أن كثيرا من حكام المسلمين اعتقدوا في التنجيم وقربوا المنجمين وجعلوهم ندماءهم .

اهتم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بعلم الفلك ، ففي سنة 156هـ وفد عليه أحد علماء الهند المهتمين بحركات النجوم وعلم الفلك ومعه كتاب (السند هند) ويعني (المعرفة بواسطة الشمس) ، فكلف المنصور محمد بن إبراهيم الفزاري بترجمته إلى العربية واستمر العمل به إلى عهد المأمون ، وعدله الخوارزمي واعتمد عليه في وضع زيجه الشهير ، والزيج : جدول رياضي عددي تقويمي يحدد مواضع الكواكب السيارة في أفلاكها ، يعتمد على قواعد حسابية وقوانين عددية دقيقة للغاية تفيد في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية والوقوف على حركات الكواكب ، كما اهتم المأمون بعلم الفلك بفضل ترجمة العديد من كتب الفلك في عهده .

بذل علماء الفلك المسلمون جهودا كثيرة ، واستخدموا المراصد والآلات الفلكية كالمراصد والجداول الرياضية والأسطرلابات والمزاول وغيرها . ففي بغداد أضاف المأمون إلى بيت الحكمة مرصدا فلكيا وبنى آخر في دمشق ، وجهزت تلك المراصد بأدوات عديدة منها : مقياس الارتفاع والأسطرلاب والمزولة . كما انتشرت آلات الرصد في حران وسمرقند وأصفهان والقاهرة والأندلس .

(1) سورة يٓس : الآيات 38 – 40 .
(2) سورة الرعد : الآية 2 .
(3) سورة الأعراف : الآية 54 .

واستخدم العلماء المسلمون الأسطرلاب : وهي كلمة إغريقية تعني مرآة النجوم أو مرآة الكواكب . ويتكون من دائرة أو قرص من المعدن أو الخشب يعلق بحلقه ، وفي مركزها مؤشر يمكن لفه حول المركز ليتجه نحو المرئي ، وتقسم الدائرة إلى درجات تعين زاوية ارتفاع النجم أو الشمس في أي لحظة ، وقد اعتمد عليه العلماء في تعيين زوايا ارتفاع الأجرام السماوية عن الأفق في أي مكان ، واستخدم في حساب الوقت والبعد عن خط الاستواء ، وأفاد منه البحارة في معرفة اتجاهاتهم في عرض البحر .

ويعــد أبــو إســحق محمــد بن إبراهيم بن حبيب الفزاري أول من وضع أسطرلاب في الإسلام ، وكان أحمد بن محمد الصاغاني ت 379هـ ماهرا في صناعة الأسطرلاب وامتازت آلاته بالجودة والتطور ، كما عرف العرب المزولة (الساعة الشمسية) ، التي تعتمد على ظل الشمس لبيان الوقت ، كما عرفوا الساعة المائية .

توصــل علماء الفلك المسلمون إلى كروية الأرض ودورانها حول محورها وقدروا محيط الأرض وانحــراف سمت الشمس ، ففي عهد المنصور قام علماء الفلك بتحديد حجم الأرض ومحيطهــا عــلى أساس أنها مدورة ، كما أمر المأمون بقياس دائرة نصف النهار ، وأوكل هذا العمــل لفريقين توصلا إلى نتيجة جعلت درجة الطول 56 ميلا عربيا ، وهي نتيجة تقرب إلى حد كبير من القياس الصحيح ، كما قام الفرغاني بقياس محيط الكرة الأرضية ولم يختلف قياسه كثيرا عن المعروف حاليا .

ومــن أشــهر عــلماء الفلك العرب أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني الصابي ت 317هـ الذي صرف معظم حياته على رصد الأفلاك وصحح أخطاء بطليموس ، وحدد البــتاني بدقــة ميل الدائرة الكسوفية والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس ، وصحح جملة من حركات القمر والكواكب السيارة ، ومن أشهر كتبه : كتاب (معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك) والزيج المعروف باسمه (زيج الصابي) .

ويعــد أبو سعيد علي بن عبدالرحمن بن أحمد بن يوسف الصدقي المصري ت 387هـ أعظــم فلكي في عصره . وقد عاصر الخلفاء الفاطميون فقدروه وعرفوا فضله وجهزوه بكل ما يحتاجه من الآلات والمعدات ، وألف موسوعة في علم الهيئة سميت باسم (الزيج الحاكمي) ، وهو الذي اخترع بندول الساعة وتوصل إلى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر وتصحيح دائرة البروج .

وأثبت أبو الريحان البيروني ت 448هـ كروية الأرض وقاس قطرها بطريقة علمية مبتكرة ، كما أثبت أن الأرض تدور حول محورها وفسر الجاذبية الأرضية ، وهو أول من أعلن أن الأرض تدور حول نفسها أمام الشمس ، وبذلك سبق كوبر نيكوس بخمسة قرون .

هـ الكيمياء :

يعتقد الخوارزمي أن اسم الكيمياء عربي مشتق من كمي يكمى إذا استمر وأخفى ، وهذا يتفق مع صناعة الكيمياء التي اعتمدت على الكتمان لكون هدفها تحويل المعادن (الخسيسة إلى معادن شريفة) ، واكتشاف (أكسير الحياة) الذي يطيل العمر ويبعث السعادة في النفس البشرية .

وقد عرفت الكيمياء عند العرب في البداية باسم (علم الصنعة) ، وكانت الكيمياء من أول العلوم التي ترجمها العرب عن اليونان بأمر من خالد بن يزيد بن معاوية ت 85هـ ، وكان خالد قد تعلم الكيمياء على يد راهب يدعى مريانوس أحد رهبان مدرسة الإسكندرية التي كانت مزدهرة قبل الفتح الإسلامي لها وفيها ولدت البذرة الأولى لعلم الكيمياء ، وبذلك يعد خالد رائد الكيمياء العربي الإسلامي ، حيث فتح الطريق لغيره في هذا الباب ، ومن أشهر مؤلفاته : كتاب (الحرارات) و (الصحيفة الكبير) و (الصحيفة الصغير) .. وغيرها ، كما يعد الإمام جعفر الصادق ت 148 هـ من أوائل العلماء العرب المشتغلين بالكيمياء .

نظم العلماء العرب والمسلمين علم الكيمياء وأرسوا قواعده وأصوله العلمية ، وكان لجهوداتهم وتجاربهم أثر فعال في تقدمها وجعلوا التجربة عنصرا أساسيا في الاشتغال به وحاربوا النظريات الكيمياوية الممزوجة بالسحر والشعوذة ، وقد اعتمد الأوربيون في عصر نهضتهم على ما ألفه العرب في الكيمياء ، وللعرب مآثر عديدة في الكيمياء ، فقد عرفوا طرق التقطير والترشيح والتحويل والتذويب والتبلور ، واكتشفوا الكحول والقلويات ونترات الفضة والزرنيخ وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) والكافور وماء الذهب واستخدموا الكيمياء في استخراج المعادن وصنع الفولاذ ودباغة الجلود وصناعة الورق والصابون والعطور وعرفوا طريقة صنع الزجاج .

ومن أشهر أعلام الكيمياء المسلمين جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي ت 200هـ الذي تلقى علوم الكيمياء على يد الإمام جعفر الصادق ، وقد قال برتيلو عن جابر في كتابه (تاريخ

الكيمياء في العصور الوسطى) : "إن لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطو من قبله في المنطق ، وإن كل الباحثين في هذا العلم والذين جاءوا من بعده عالة عليه نقلا وتعليقا "، وهو أول من بشر بالمنهج التجريبي في الكيمياء . وقد لخص هوليمارد في كتابه (الكيمياء حتى عصر دالتون) منهج جابر في عشر نقاط أهمها :

1 – أن يعرف صاحب التجربة العلمية علة قيامه بالتجربة التي يجريها .

2 – أن يفهم الإرشادات فهما جيدا .

3 – العناية باختيار الزمن الملائم لإجراء التجربة .

4 – أن يتخذ الكيميائي أصدقاء يثق بهم يعينوه على إجراء تجربته .

5 – أن يكون صبورا دؤوبا .

ويعـــود لجابر الفضل في اكتشاف العديد من المركبات الكيميائية ، فهو أول من حضّر حـــامض الكـبريتيك (زيت الزاج) والماء الملكي والكحول وماء الذهب وحامض الخليك والصـــودا الكاوية ، ودرس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها ، ودرس السموم وعرف أنواعهـــا وخواصـــها وتأثيرهـــا على الجسم ، وألف فيها كتاب (السموم) ، واستخدم ثاني أوكسيد المنغنيز في صُنع الزجاج ، ومن كتبه : (الأسرار) و(الأملاح) ، وكتاب (العنصر) ، وكـــتاب (المنافع) ، وكتاب (الميزان) .. وغيرها . وقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية فكانت منهلا لعلماء الغرب .

ومـــن علماء الكيمياء المسلمين أبو بكر الرازي ت 313 هـــ الذي عده الغربيون أحد مؤسســـي الكيمياء الحديثة ، وهو أول من طبق معارف الكيمياء في مجال الطب حيث كانت لـــه قناعة بأن شفاء المرض يعود إلى إثارة تفاعلات كيميائية داخل جسم المريض ، فكان ذلك دفعـــا قويـــا للكـــيمياء الطبية ، وبيّن في كتابه (سر الأسرار) منهجية الذي كان يقوم على التجربة ، ووصف المواد التي اشتغل بها ثم الأدوات والآلات التي يستخدمها كالقوارير والقمع والمصفاة وغيرها .

وقد استخدم لأول مرة الفحم الحيواني في قصر الألوان وحضر أصباغا لماعة لتكون بديلا عن أصباغ الذهب غالية الثمن ، وألف في الكيمياء كتبا عديدة أهمها : كتاب (الأكسيد) ، وكتاب (شرف الصناعة) ، و(التدبير) ، وكتاب (الحيل) ، و(الأسرار) وغيرها .

وبرع أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي ت 398هـ في الكيمياء وألف كتاب (غاية الحكمة) الذي ترجم إلى اللاتينية وكتاب (ورثية الحكم) وحضّر أكسيد الزئبق ، وربط بين علم الكيمياء والعلوم الأخرى ، وفصل عزالدين بن علي الجلدكي ت 1363م الذهب عن الفضة بواسطة حامض النيتريك ، وطريقته مازالت تستخدم حتى الآن ، وله كتاب (التقريب في أسرار التركيب) .

وألف أبو الريحان البيروني ت 440هـ في مجال الكيمياء كتاب (الصيدلة في الطب) وكتاب (الجماهر في معرفة الجواهر) ، وعرّف غاز النشادر ومكوناته ، كما صنع كربونات الرصاص القاعدية .

وقسم ابن سينا المعادن إلى أربعة أقسام : الحجارة ، والمواد القابلة للانصهار ، والكبريتات ، والأملاح . وفي كتابه المعروف (الشفاء) له مجهودات في حقل العقاقير الطبية . وبذلك أسهم في اكتشاف العلاقة بين الطب والكيمياء .



مصادر ومراجع الفصل السابع

1 – د . إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر الأموي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، 1990 ف .

2 – ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الجزء الأول ، القاهرة ، 1958 .

3 – ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن، مقدمة العلامة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1963 ف .

4 – ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان ، تحقيق د . حسين عباس ، الجزء الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

5 – ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الجزء الخامس ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1953 ف .

6 – ابن أبي اصبيعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت

7 – ابن النديم ، محمد بن إسحاق ، الفهرست ، القاهرة ، 1348هـ.

8 – أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1964م .

9 – د. أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، الطبعة الرابعة ، الكويت ، 1978م .

10 – د. أحمد شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، 1973م.

11 – د . أحمد عبد الرزاق أحمد ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الجزء الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1990-1991 ف .

12 – آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبوريدة ، الجزء الأول ، بيروت ، 1967 ف .

13 – الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، الجزء الثالث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

14 – جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1978م .

15 – حسين حمادة ، تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت ، 1987 .

16 – د. حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، 1967 .

17 – د. حسين نصار ، نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، بيروت ، 1980 .

18 – زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، المكتب التجاري ، بيروت ، 1969 .

19 – د. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .

20 – الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، بيروت ، 1975.

21 – د . شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الجزء الثالث والعشرون .

22 – د . صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 ف .

23 – الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الجزء الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 ف .

24 – د . عبد الرحمن بدوي ، مذاهب الإسلاميين ، الجزء الأول ، بيروت ، 1971 .

25 – د. عبد الكريم الوافي ، منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب ، بنغازي ، 1990 .

26 – عبد الله طحطاح ، إسهام علماء الإسلام في الرياضيات ، الكويت ، 1980.

27 – عز الدين فراج ، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، القاهرة ، 1978 .

28 – عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، 1980 .

29 – القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف ، مكتبة المتنبي، القاهرة ، د.ت .

30 – د. محمد عمارة ، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ، بيروت ، 1977 .

31 – المسعودي ، أبو الحسن علي بن حسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد،الجزء الثالث ، دار المعرفة ، بيروت، 1982 ف.

32– مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1975.

33 – د.ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1975 .

34 – د. نبيـــلة حســـن محمـــد ، في تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د.ت .

35 – نقولا زيادة ، الجغرافيا والرحلات عند العرب ، بيروت ، 1962.

36 – ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي ، معجم الأدباء ، الجزء الرابع ، دار إحياء التراث العربي ،د.ت .

★★★

الفصل الثامن

الدراسات الدينية والعقلية الإسلامية

أولا: علوم القرآن الكريم

1 – علم التفسير .

2 – علم أسباب النزول .

3 – علم قراءات القرآن الكريم .

4 – إعجاز القرآن .

ثانيا: علوم الحديث الشريف

ثالثا: الفقه والتشريع

رابعا: مصادر التشريع الإسلامي

1 – القرآن الكريم .

2 – السنة النبوية .

3 – الاجتهاد والرأي .

4 – القياس .

خامسا: المذاهب الفقهية .. النشأة والتطور

1 – المذهب الحنفي .

2 – المذهب المالكي .

3 – المذهب الشافعي .

4 – المذهب الحنبلي .

5 – المذهب الشيعي (الجعفري) .

أولا : علوم القرآن الكريم

يعد القرآن الكريم أصل الشريعة الإسلامية وعمودها الأساسي بحكم تفوقه البياني وإعجازه فكان ولازال مصدرا ومحورا لملكات المسلمين النظرية والأدبية ، فقد شغل المفكرين المسلمين ببلاغته وبيانه ، فعنوا بأسراره البلاغية وتعمقوا بتفسير آياته وتأويلها واستنباط الأحكام منها.

ولم يكن للعرب قبل الإسلام كتاب مدون فكان القرآن الكريم أول كتاب عرفوه ، وقد أنزل مجزءا في ثلاث وعشرين سنة ، وكان لكل آية توقيتها ومناسبتها مما جعل أثرها في القلوب والعقول راسخا . إن تشتت آياته في صدور الحفاظ والخوف من نسيانها دفع الرسول ﷺ إلى تدوين الآيات لحفظها من النسيان والضياع ، وقد اختار الرسول ﷺ لهذه المهمة مجموعه من كتاب الوحي الذين كتبوا علي رقاق الحجارة الرقيقة والرقع وجريد النخيل والجلود والعظام والألواح . ومن أبرز كتّاب الوحي : الإمام علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب الأنصاري وأبي الدرداء.

بقيت سور القرآن الكريم موزعة في أكثر من مكان ، لذا كان لابد من جمعها ، فتم أول جمع منظم للقرآن الكريم أثناء خلافة أبي بكر حيث عهد الخليفة بذلك إلى زيد بن ثابت ت 45 هـــ وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، ولما أتم زيد جمع القرآن في النصوص المدونة ومن صدور الصحابة سلمها إلى أبي بكر الذي جمع الصحابة وعرضها عليهم قائلا : (لنسمها مصحفا) واحتفظ بهذه الصحف عنده وقبل وفاته سلمها إلى عمر بن الخطاب الذي عهدها بدوره إلى ابنته حفصة زوجة الرسول لأنها تعرف القراءة والكتابة .

أما الجمع النهائي للقرآن في مصحف واحد فقد تم في عهد عثمان بن عفان بسبب اختلاف القراءات فاستعان الخليفة بالصحف المحفوظة لدى حفصة وطلب منها موافاته بصحف التي تركها والدها في عهدتها وألف لجنة لهذا الغرض تكونت من زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هاشم فنسخوها في المصاحف وأمر عثمان باعتمادها وحرق ما سواها وبعث لكل مصر من أمصار الدولة بنسخة منها وصحابي

يقرؤها علي الناس ويمليها عليهم فأرسلت المصاحف إلى مكة والشام والبحرين واليمن والكوفة وأبقى مصحفا واحدا عنده في المدينة .

وبمرور الأيام توسعت الدراسات القرآنية وتحولت شيئا فشيئا إلى حركة علمية واسعة ومن أهم علوم القرآن علم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ وعلم إعجاز القرآن وإعراب القرآن ومجاز القرآن . وسنتناول أهم تلك العلوم:

1 – علم التفسير :

المقصود بالتفسير بيان معاني آيات القرآن الكريم وتوضيحها وكشف المراد منها . وقد نزل القرآن بلغة عربية مبينة ، وكان الرسول ﷺ يتلوه على الصحابة فيفهمون معانيه ويدركون مراميه، ولكن لم يكن فهمهم للقرآن بدرجة واحدة من الوضوح لعدة أسباب أهمها:

– تفاوقم في الإلمام بمفردات اللغة العربية .

– تفاوقم في معرفة عادات العرب وتقاليدهم الاجتماعية والدينية قبل الإسلام وقد تعرض القرآن الكريم لأكثرها .

– تفاوقم في الإلمام بتاريخ اليهود والنصارى والأمم الغابرة .

– لم يكن جميع الصحابة علي درجة واحدة من القربى من رسول الله ، فكان بعضهم شديد الاتصال بالرسول طويل الملازمة له وقد أفادهم ذلك في فهم القرآن الكريم وتعمقوا في إدراك معانيه .

وبذلك يكون علم التفسير أول العلوم الدينية التي حظيت باهتمام المسلمين إذ جلس الصحابة يفسرون للناس القرآن الكريم ، وقد اشترط العلماء في مفسر القرآن الكريم شروطا شديدة لا تتوافر إلا عند أكابر العلماء ، فقد اشترطوا أن يكون المفسر حسن المعرفة بقواعد اللغة العربية وأصولها ، ومتعمقا في مفرداها ومعاني ألفاظها ، وله دراية بأسباب نزول الآيات وظروفها ، وأن يكون عليما بالشريعة الإسلامية جيد الاطلاع علي أحكامها ملما بما نقل في التفسير مرويا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين .

ومنذ وقت مبكر اتخذ المفسرون ثلاثة اتجاهات هي التفسير بالمأثور أو المنقول ، والتفسير بالرأي ، والتفسير بالمأثور والرأي . وسنوجز كل منها :

التفسير بالمأثور:

والمقصود به الاعتماد على ما أثر عن الرسول ﷺ الذي كان يفسر الآيات ويبين ما غمض منها ، ولما توفي الرسول ﷺ وبدأت حركة الفتوحات دخل الكثير من غير العرب إلى الإسلام فازدادت الحاجة إلى تفسير القرآن ، وأخذ علماء الصحابة التفسير علي عاتقهم استنادًا إلى ما تعلموه وما فهموه من الرسول ﷺ ، ومن أشهر المفسرين من الصحابة الخلفاء الراشدون الأربعة : عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعنهم أخذ التابعون تفسير القرآن الكريم ، ولما جاء العلماء جمعوا تفسير الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وألفوا منها الكتب فسمي هذا النوع بالتفسير بالمأثور أي ما أثر عن الرسول وأصحابة أو التفسير بالمنقول أي ما نقل عنهم .

وكان أول من دون التفسير في الصحف مجاهد ت 104هـ ثم اشتغل به كثيرون حتى انتهى إلى الواقدي ت 207هـ ، لكن تلك التفاسير فقدت مع الأسف وظهرت فيما بعد تفاسير عديدة أبرزها تفسير ابن جرير الطبري ت 310هـ الذي جمع معظم التفاسير واستعان بها وسماه (جامع البيان في تفسير القرآن) ويقع في ثلاثين جزءا بعدد أجزاء القرآن الكريم ، وهناك تفسير أبي زيد البلخي ت 322 هـ ، وقد سار على نهجهم مفسرون عديدون أهمهم ابن كثير الدمشقي ت 774 هـ .

التفسير بالرأي :

يعتمد المفسر في تفسير الرأي والاجتهاد على العقل أكثر من اعتماده على النقل ، وذلك لأن القرآن هو دستور المسلمين في دينهم ودنياهم ، وكلما تطورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية رجعوا إليه ليروا فيه حلا لما يستجد من الأمور والمشاكل ، وكلما تطورت الحياة العقلية نظر العلماء إلى القرآن من وجهة نظر جديدة وقرءوا فيه معاني لم تخطر على بال من تقدمهم ، وقد أصبح تفسير القرآن في أي عصر من العصور يحمل طابع الحياة العقلية والاجتماعية والدينية لذلك العصر لأن المفسر يساير عادة أفكار الناس ويقصد إلى حل مشاكلهم ويشرح لهم ألفاظ القرآن الكريم بالطرق المألوفة لديهم وبالأساليب المعروفة عندهم.

ومن الطبيعي أن يؤدي الاجتهاد إلى تباين وجهات النظر في تفسير بعض الألفاظ والعبارات والآيات وإن كان هذا التباين لم يصل إلى حد التناقض ، وبالتالي لم يؤثر في الأهداف

والأساسيات ، ومن أشهر التفاسير بالرأي (مفاتيح الغيب) لفخر الدين محمد بن عمر الرازي ت 606 هـ ، وتفسير (أنوار التتريل وأسرار التأويل) للبيضاوي ت 685 هـ ، وهو من أشهر التفاسير عند جمهور المسلمين .

حاول بعض علماء الفرق الإسلامية كالمعتزلة والصوفية والشيعة تفسير القرآن بما يؤيد مذاهبهم وآرائهم ، وتمتاز تفاسير المعتزلة بتحكيم العقل في الاستدلال وقلة اعتمادها على التفسير بالمأثور . ومن أشهرها تفسير ابن جرو الأسدي ت 375 هـ وتفسير أبي علي الجبائي وأبي بكر النقاش ت 351 هـ وأبي بكر الأدفوي المصري ت 388هـ وعبد السلام القزويني شيخ معتزلة بغداد ت 482هـ وتفسير "الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لجار الله بن عمر الزمخشري ت 538هـ .

ويغلب على تفاسير الصوفية طابع الغموض والمصطلحات الخاصة والمعاني التي لايفهمها إلا المطلع على آداب المتصوفة الخبير بطرقهم في التفكير وأساليبهم في الكلام ، ومن أشهر هذه التفاسير تفسير محيي الدين بن العربي ت 638 هـ .

التفسير بالمأثور والرأي :

وهي التفاسير التي تجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي ، ومن أشهرها (مجمع البيان في تفسير القرآن) لأبي الفضل بن الحسن الطبرسي ت 548هـ ويقع في عشرة أجزاء مرتبة ترتيبا جيدا ليسهل الإفادة منه ، وفي العصر الحديث ظهرت تفاسير عديدة حاولت أن تفسر القرآن بلغة العصر ، ومن أشهرها تفسير الشيخ محمد عبده الذي أكمله تلميذه محمد رشيد رضا الذي يعرف بتفسير (المنار) .

إن دراسة تفاسير القرآن ذات قيمة كبيرة في فهم الحركة العلمية في الإسلام ومعرفة المستوى العقلي للمسلمين في أي عصر من العصور.

2 – علم أسباب التزول :

كانت الآيات المتعلقة بالتشريع تتزل في الغالب جوابا لحوادث تقع في المجتمع أو جوابا على أسئلة يسألها المؤمنون ، والظروف التي أحاطت بتزول الآية ، وهي العلم الذي يسمى بأسباب التزول ، وإن معرفة أسباب التزول ضرورية في تفسير آيات أحكام العبادات

والمعاملات . ومن أهم كتب هذا النوع كتاب (الناسخ والمنسوخ) في القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس ت 338 هـ .

3 – علم قراءات القرآن الكريم :

وكان من أهم العلوم الدينية ويعد أساس علوم التفسير ويتناول أساليب قراءة القرآن الكريم ، ومن أئمة القراءات في المدينة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني ، وفي مكة عبد الله بن كثير مولى عمر وبن علقمة الكناني ت 120هـ ، وفي الكوفة عاصم بن أبي النجود ت 128هـ ، وفي دمشق عبد الله بن عامر اليحصبي ت 118هـ .

4 – إعجاز القرآن :

نزل القرآن الكريم بأفصح لغة من لغات العرب (لغة قريش) وخاطب العرب بتلك اللغة التي فطروا عليها ، ومع أنهم كانوا أهل بيان وفصاحة فقد تحداهم الله بأن يأتوا بمثله فعجزوا بأن يأتوا بمثل آية من آياته وانهزموا أمام معركة البيان ، وقد ظهرت مؤلفات عديدة تناولت موضوع الإعجاز القرآني . ومن الذين ألفوا في هذا المجال الجاحظ في كتابه (نظم القرآن) والواسطي (إعجاز القرآن) و (دلائل القرآن) للجرجاني ، وقد أبرز أولئك العلماء القدماء مظاهر الإعجاز البلاغية والتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية .

أما العلماء المحدثون فقد حاولوا إظهار الإعجاز من خلال الخصائص الفنية التي يمكن استلهامها من النص القرآني ، ومن أبرز المحدثين مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العربية).

ثانيا: علوم الحديث الشريف

الحديث هو كل ما قاله الرسول ﷺ شفويا في موضوع ديني أو دنيوي ، ويعتمد في نقلها عن الرسول ﷺ المشافهة ، وقد احتلت الأحاديث المنزلة الثانية في أهميتها بعد القرآن الكريم ، وكانت دراسة علوم القرآن الكريم باعثا قويا على ظهور علوم الحديث الشريف ، وذلك لأنه يفصل ما أجمله القرآن الكريم ويفسر ما يصعب على الناس فهمه . فقد شرح الحديث الكثير من الآيات القرآنية .

ولم يدون الحديث الشريف تدوينا شاملا منظما في عهد الرسول وفي صدر الإسلام ، ويروى أن الرسول ﷺ نهى عن تدوين الحديث حتى لا يختلط بالقرآن الكريم حيث قال :

" لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولاحرج ، ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ".

وقد أخذ الناس الحديث عن الصحابة الذين طالما صحبهم الرسول ومنهم الإمام علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وأنس ابن مالك وأبو هريرة والسيدة عائشة ، ومن أشهر التابعين في رواية الحديث سعيد بن المسيب والزهري ومحمد بن سيرين .

إن عدم تدوين الحديث الشريف في البداية ، واكتفاء الصحابة والتابعين في الاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قاله الرسول لمدة ثلاثة وعشرين سنة من بدء الوحي حتى وفاته أدى بضعاف الإيمان والنفوس إلى وضع أحاديث منسوبة إلى النبي ﷺ وهو ما يسمى بالحديث الموضوع ، وكان من أسباب وضع الحديث الخلافات السياسية التي ظهرت بعد العصر الراشدي ، فقد أخذ بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين يروجون للأحاديث الموضوعة عن فضائل الخلفاء والتي تؤيد حقهم في الخلافة وتبرر بعض سلوكياتهم كما ظهر وضاع الحديث بين الطوائف السياسية .

ولم تلبث هذه البدع والأكاذيب أن أفزعت المخلصين من المسلمين فتصدوا لتنقية الحديث واستبعاد الأحاديث الموضوعة والمدسوسة وتم الاتفاق بين علماء الحديث على وضع شروط لرواية الحديث أولها : التثبت والتحري ، والشرط الثاني : يسمى (شرط الشهادة على السماع) . أي برهنة الراوي على سماعه الحديث مباشرة من الرسول ﷺ وتلك كانت أول خطوات منهج الإسناد. والسند يعني بيان سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث عن الرسول ﷺ . أما المتن فيعني نص الحديث ، وقد صنف العلماء الحديث بحسب قوة سنده وصحته إلى أصناف منها المتواتر والآحاد ، والمتواتر ما رواه جماعة موثقون لا يتواطئون على الكذب ، أما الأحاديث غير المتواترة فتسمى آحادا .

ظهرت بدايات تدوين الحديث الشريف في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي كلف بعض من يثق بهم من علماء الحديث بجمعها ، وقال لأبي بكر بن محمد بن حزم ت 120هـ عندما كلفه بهذه المهمة ما نصه :

" انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنة ماضية أو حديث عمرة ، فاكتبه ، فإني خشيت دروس العلم وذهاب أهله " .

فكتب الأحاديث في دفاتر وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية ، ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي سفيان الثوري بالبصرة ت 161هـ صاحب كتاب (الجامع الكبير)، ومحمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ت 159هـ وله من الكتب كتاب (السنن) ، وعبد الرحمن ابن عمر الأوزعي ت 159هـ وهو من أشهر المحدثين في العصر الأموي وله كتاب (السنن في الفقه) .

واستمرت حركة تدوين الحديث في مطلع القرن الثاني الهجري عندما اكتملت قواعد المنهج الإسنادي لرواية الحديث . وكان يشترط في الراوي شروطا خاصة أهمها :

1 - أن يكون الراوي مسلما عند سماعه للحديث الذي يرويه .

2 - أن يكون بالغا عاقلا .

3 - أن يكون عدلا ملتزما بأوامر الدين ونواهيه.

4 - أن يكون تقيا مشهودا له بحسن الخلق وتمام المروءة كي يثق الناس بصدق روايته .

5 - أن يكون قادرا على فهم واستيعاب معاني ما يرويه من حديث ، وأن يكون له إدراك ودراية وفطنة بألفاظ الحديث ومدلولاته .

ومن أوائل الكتب التي ألفت في هذا القرن (الموطأ) للإمام مالك بن أنس ت 179هـ وجمع فيه أحاديث الرسول والآثار المروية عن الصحابة والتابعين في أبواب مستقلة .

وشهد علم الحديث في القرن الثالث الهجري نشاطا كبيرا عندما اتسعت حركة الجمع واستقر نقد الحديث للتمييز بين الصحيح والضعيف وجمعت الأحاديث في كتب خاصة ، وأفردت عن الشروح الفقهية فظهرت المصنفات الصحيحة وأشهرها صحيح البخاري ت 256هـ الذي حرص على وضع شروط صارمة للتأكد من صحة الحديث فلم يكن يروى سوى الأحاديث الصحيحة أي تلك التي اتصل إسنادها من الراوي الأخير حتى النبي ﷺ ، وصحيح الإمام مسلم بن الحجاج ت 261هـ في نيسابور ويعد من الكتب الهامة التي يرجع إليها ويعتمد عليها في معرفة الأحاديث الصحيحة وبلغ عدد الأحاديث التي شملها صحيحة

3030 حديثا قال عنها : " ما وضعت شيئا في كتابي هذا إلاّ بحجة ، وما أسقطت منه شيئا إلاّ بحجة".

وسنن ابن ماجة ت 273هـ ، وسنن أبي داود السجستاني ت 273هـ ، وجامع الترمذي ت 279هـ ، وتسمى هذه الكتب (بالصحاح الستة) وأشهرها توثيقا صحيحا البخاري ومسلم ، وقد ميزها العلماء وسموها الصحيحة ، واتصف هؤلاء بالرحلة من أجل الحديث الصحيح والذاكرة والقدرة على الحفظ والمهارة في نقد رجال الحديث حتى استخلصوا الأحاديث الصحيحة بقدر ما أتيح لهم من الوسائل والجهد .

ومن الكتب المعتمدة في الحديث مسند الإمام أحمد بن حنبل ت 241هـ الذي اشتمل على أربعين ألف حديث تكرر فيها عشرة آلاف ، وكتاب (الكافي) للكليني ت 329هـ ، و(تهذيب الأحكام والاستبصار) للشيخ الطوسي ت 460هـ .

وفي القرن الرابع الهجري اكتمل جمع الحديث وتدوينه وتصنيفه ، وانصرف العلماء إلى هذه الكتب المعتمدة وأخذوا يشرحونها ويهذبونها ويعيدون ترتيب الأحاديث فيها وفق أنماط جديدة ، كما اهتم بعض العلماء في العصور التالية بجمع الأحاديث الضعيفة والموضوعة والمدسوسة ، ومن هؤلاء ابن الجوزي في كتابة(الموضوعات في الحديث) .

لقد نتج عن العناية بالحديث انتشار الثقافة في العالم العربي والإسلامي وتوحيدها وفتح أبوابها لجمهور الناس والعناية باللغة العربية والمحافظة عليها.

ثالثا: الفقه والتشريع

يعني الفقه استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية ، ويتناول الفقه الإسلامي جميع المسائل التي تواجه الإنسان في حياته الشخصية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ويضع القواعد التي تنظم حياته فهو يبحث في الفرائض الدينية والأحوال الشخصية والمعاملات الاقتصادية وفي الجرائم وعقوبتها . وللتشريع أهمية في تنظيم كيان الأمة وتحديد العلاقات بين أبنائها وبيان العقوبات التي توقع على المخالفين والخارجين على أحكام الدين ، لذا اهتم المسلمون بالتشريع منذ وقت مبكر واستمر ينمو مع نمو الدولة الإسلامية بعد اتساعها وظهور المشاكل الجديدة التي لم يعهدها المسلمون في صدر الإسلام .

رابعا : مصادر التشريع الإسلامي

1 – القرآن الكريم :

القرآن كتاب الله ووحيه المبين أنزله على قلب رسوله للتعبد به والتفقه فيه والعمل بما جاء فيه ، ولما كان كتاب الله قد نقل متواترا كتابة وحفظا وترتيلا منذ عهد الرسول ﷺ حتى الآن فقد جزم الفقهاء في كل مكان وزمان بأنه يفيد القطع من ناحية ثبوته ووجوب العمل به وحكموا بكفر من أنكره كله أو بعضه ، فهو عند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية المصدر النقلي الأساسي الأول الذي لا يعدل عنه إلى سواه .

ومن الثابت أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع في الإسلام ، وأن السور المكية تكاد أن تقتصر على بيان أصول الدين والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما ترتبط به من الثواب والعقاب ، بينما عالجت السور المدنية المعاملات الخاصة والعامة وما يرتبط بها من الأحكام كالزواج والطلاق والبيع والشراء والإرث وغيرها .

لكن لفظ القرآن الكريم قد يكون نصا واضحا محددا لا يحتمل إلا معنى واحدا وقد يحمل عدة معان فيكون محل اجتهاد المجتهدين ، وقد بين الفقهاء قواعد التفسير والاجتهاد ، وأوضحوا شروطها والعلوم الموصلة إليهما . وتتفق جميع الطوائف الإسلامية على أن أعلم الناس بكتاب الله هو النبي محمد ﷺ وكبار الصحابة الذين تلقوا من الرسول ﷺ علما وافرا ، وفي طليعتهم الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ربيبه وابن عمه لما آتاه الله من الحكمة وفصل الخطاب .

2 – السنة النبوية :

السنة هي المصدر الأساسي الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم فقد عرضت للرسول حوادث ومسائل قضى فيها بالحديث لعدم وجود نص قرآني صريح فكان هذا تشريعا وجب على المسلمين الأخذ به ، وقد أشار القرآن نفسه بالتزام سنته في آيات صريحة ، وفرض على

المؤمنين اتباع الرسول ﷺ والتسليم بحكمه والأخذ بحديثه الصحيح في مسائل الدين . ومن تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾[2] .

كما حدد الله سبحانه وظيفة الرسول في تفصيل ما أجمل الكتاب وتقييد ما أطلقه بقوله ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[3].

3 – الاجتهاد والرأي :

كان القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي في حياة الرسول ﷺ ، وبعد وفاة الرسول ﷺ واتساع الدولة العربية وامتدادها وتنوع أجناسها وتباين عادات وتقاليد البلاد المفتوحة واجهت المسلمين مشاكل لا يجدون لها أحكاما صريحة في القرآن أو السنة ، لذا لجأوا إلى الاجتهاد والرأي لحلها .

وقد أذن الرسول ﷺ للعلماء من الصحابة بالاجتهاد في حضرته وشجعهم عليه ، ففي حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له :" كيف تصنع إذا عرض لك قضاء "، قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال :" فإن لم يكن في كتاب الله ". قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : " فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟" قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال :" الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ".

ولابد من الإشارة إلى أن الصحابة لم يبلغوا جميعا مرتبة الاجتهاد ، إذ كان فيهم البدوي والصانع والتاجر وفيهم من صحب النبي ﷺ مرة واحدة ومن سمع منه حديثا واحدا ، فلا غرو إذا تفاوتوا في عملهم بأحكام الدين وتشريعاته .

وكانت أول مشاكل المسلمين التي اختلفوا فيها نوع الحكم وكيفية اختيار الخليفة ، وتحديد ضريبة الخراج وبعض مشاكل الإرث وغيرها ، وهكذا اضطر الصحابة إلى إدخال مبدأ الاجتهاد لتكون بمثابة سوابق تشريعية وأحكاما يعمل بها في الحالات المتشابهة ، ولو تتبعنا

(1) سورة الحشر : الآية 7 .
(2) سورة النور : الآية 63.
(3) سورة النحل : الآية 44 .

التشريع في عهد الخلفاء الراشدين لألفيناه مبنيا على استشارة الصحابة في القضاء . وكان الخليفة أبو بكر الصديق إذا عرضت عليه قضية ولم يجد فيها نصا فى القرآن والسنة يجمع الناس ويستشيرهم فيبحثون القضية ويبدون فيها آراءهم فإذا اجتمع رأيهم على حل قضى به ، وقال عمر بن الخطاب لشريح القاضي لما ولاه قضاء الكوفة :

" انظر ما يتبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، ومالم يتبين لك فاتبع فيه سنة رسول الله ومالم يتبين لك في السنة فاجتهد فيه برأيك ".

وفي العصر العباسي دخل التشريع الإسلامي مرحلة جديدة حيث أضفى الخلفاء العباسيون على أنفسهم الصبغة الدينية ولبسوا بردة النبي لتذكير الناس بصلتهم به ؛ وصحب ذلك صلتهم بالعلماء ورجال الدين وتقريبهم منهم والتدخل في الشؤون الدينية ومحاولة صبغ كل أعمال الدولة بصبغة دينية ، وقد ساعد ذلك على تطور الفقه والتشريع من خلال التوسع في الاجتهاد واختلاف وجهات النظر بين الفقهاء وكثرة المناظرات بينهم ، فكان له أثر كبير في التشريع وأدى ذلك إلى نضوج المذاهب الإسلامية المختلفة وظهر رجال القمم الفقهية كالإمام جعفر الصادق ت 148هـ ، والإمام أبو حنيفة ت 150هـ ، والإمام مالك بن أنس ت 179هـ ، والإمام الشافعي ت 204هـ ، والإمام أحمد بن حنبل ت 241هـ .

وقد اشتهر أهل الحجاز بالتمسك بالحديث والسنة لأن الحجاز موطن السنة وفيه كثير من العادات والأعراف التي أقرها الإسلام ولم يتعرض لها بتغيير وتحوير إلا قليلا . أما فقهاء العراق فقد أخذوا بالرأي واشتهروا فيه .

4 – القياس :

القياس مصدر عقلي يلحق به أمر لا نص فيه ولا إجماع بآخر منصوص على حكمه أو مجمع عليه ، ويثبت به المجتهد الحكم للواقعة التي لم يرد دليل على حكمها بعد مساواة الفرع لأصله في علة الحكم . ولا بد لصحة القياس من مقدمات ثلاث :

أولا – استنباط علة الحكم الذي فيه نص من كتاب الله أو سنة رسوله .

ثانيا – التماس تلك العلة في الواقعة الأخرى التي لا نص على حكمها .

ثالثا – تساوي الواقعتين في الحكم بعد تساويهما في العلة .

وفي عصر النبي ﷺ لم تكن هناك حاجة ماسة إلى القياس لأن الوحي ينزل والرسول يفتي ويعلم ويرشد المؤمنين ، وقد وضع عمر بن الخطاب نواة القياس وأيده في ذلك كثير من الصحابة ثم أخذ طريقه إلى العلماء والمفتين من التابعين وأتباعهم وتأصل بصورة خاصة لدى الحنفية ، خاصة بعد تطور الحياة الدينية والاجتماعية الأمر الذي حمل بعض الفقهاء على الأخذ به واللجوء إليه لاستنباط الأحكام . إلا أن الشيعة رفضوا القياس بوجه عام عملا بقول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : " لو كان الدين يؤخذ قياسا لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره ".

خامسا : المذاهب الفقهية النشأة والتطور

سمع أتباع التابعين فتاوى المفتين وسألوا عن قضاياهم ومسائلهم في الأمصار ولم يألوا جهدا في الاجتهاد والاستنباط وفي القضاء والفتوى ثم كانت المذاهب وكثر أتباعها ، ومن العوامل التي ساعدت على تكوين المذاهب الفقهية تدوين القرآن الكريم والسنة والأحاديث على وجه التداول وجمع فقه الصحابة وفتاوى التابعين وتصنيف العلوم الدينية والعقلية . وسنورد أهم تلك المذاهب وأشهرها :

1 – المذهب الحنفي :

ينسب هذا المذهب إلى شيخه أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى المولود في الكوفة سنة 80هـ وتوفي في السجن سنة 150هـ في بغداد ونشأ في الكوفة حيث الحركة العلمية الدائبة فتأثر في طفولته وتلقى العلم عن كبار علماء الكوفة نواة مدرسة الرأي ، وبصبره وذكائه وجهده احتل مكانة كبيرة بين علماء عصره ولازمهم ، وتتلمذ على يد حماد بن أبي سلمة والتقى زيد بن علي ومحمد الباقر ، وأقام سنتين بين تلامذة الإمام جعفر بن محمد الصادق أثناء رحلته الطويلة إلى الحجاز ، وكان هواه ظاهرا مع العلويين ، وقد أشاد أبو حنيفة بالإمام جعفر الصادق قائلا : " أعلم الناس أعلمهم بالاختلاف بين الناس ".

اعتمد أبو حنيفة في منهجه التدريبي على أسلوب الحوار فهو لا يلقي الدرس إلقاء إنما يعرض المسألة ثم يفتح باب المناقشة ليبدي كل تلميذ رأيه ، وعند انتهاء الحوار يبدي وجهة نظره معتمدا في ذلك على ما تمخضت عنه المناقشة ، ومن أشهر تلاميذه وأطولهم صحبة له يعقوب بن إبراهيم الأنصاري المشهور بأبي يوسف (قاضي القضاة) ت 182هـ ، ومحمد بن

الحسن الشيباني ت 189هـ الذي دون المذهب الحنفي ونشره ، وزفر بن الهذيل قاضي البصرة . وقد كان البارزون من تلاميذ أبي حنيفة على صلة وثيقة بالخلفاء فمكنهم ذلك من نشر المذهب الحنفي ، كما أن سهولة هذا المذهب له الأثر الكبير في اتخاذ الناس له .

2 – المذهب المالكي :

ينسب إلى شيخه الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي المولود بالمدينة سنة 93هـ والمتوفى فيها سنة 179هـ . نشأ في المدينة دار السنة المشرفة وكان لهذا أثر كبير في سعة معرفته بالحديث ، كما تلقى العلم من علماء المدينة واستطاع بجهده ورأيه وإلحاحه في طلب العلم أن يتبوأ مكانة كبيرة في النفوس ، فروى عن نافع مولى عبد الله بن عمر وابن شهاب الزهري وشريك بن عبد الله ، كما تلقى شيئا من الحديث والفقه في مدرسة الإمام جعفر الصادق بالمدينة .

لقد اختط الإمام مالك منهجا خاصا فكان زعيم مدرسة الحديث فجمع في منهجه بين أدلة العقل ونصوص الشرع فنادى بالاستحسان والاستصحاب والمصالح والذرائع والعرف والعادة ، ولما جلس للتدريس في مسجد الرسول رحل الناس إليه من كل مكان والتفوا حوله .

جمع في كتابه (الموطأ) ما صح لديه من أحاديث الرسول ﷺ ، وضم إليها جملة حسنة من فتاوى بعض الصحابة والتابعين ورتبها حسب الترتيب الفقهي ، فكان هذا الكتاب كتاب حديث وفقه في آن واحد ، واستغرق تأليفه أربعين سنة عرضه خلالها على سبعين فقيها ، واحتل كتابه مكانة عظيمة حتى رأى بعضهم أن أصول الحديث سبعة هي الكتب الستة ومعها (الموطأ) وقال عنه الإمام الشافعي : " مالك حجة الله على خلقه من التابعين ".

لم يدع للإمام مالك صيت في العهد الأموي وظل منقطعا عن العباسيين حتى سنة 146هـ ولقي منهم ضروب العذاب ، واشتهر من تلاميذه عدد من العلماء أشهرهم : عبد الله بن وهب ، وأشهب بن عبد العزيز القيسي ، وعبد الله بن الحكم . ثم انتشر مذهبه في مصر والمغرب والأندلس ولا زال حتى الآن في المغرب وبعض البلاد الإسلامية .

3 – المذهب الشافعي :

نسبة إلى محمد بن إدريس الشافعي القرشي المولود بغزة سنة 150هـ والمتوفى بمصر سنة 204هـ . نشأ في مكة وتلقى العلم فيها بعد أن حملته أمه إليها يتيما بعد وفاة والده ، ثم رحل إلى المدينة والتقى بالإمام مالك بن أنس وأخذ عنه العلم الكثير وأصبح واليا على نجران . إلا أنه سرعان ما اتهم بتشيعه للعلويين والدعوة لهم فاستدعاه الرشيد إلى الرقة لكنه بريء من هذه التهمة .

ويمكن القول أن الإمام الشافعي يعد مجددا بالنسبة لعصره ، فقد لجأ في تدريسه وتقريره للأحكام إلى منهج جديد يعتمد فيه على وضع القواعد الأساسية والأصول الكلية سواء بالنسبة لمصادر التشريع أو بالنسبة لوضعه علم أصول الفقه ، وقد ترك لنا كتابيه : (الأم) و(الرسالة) .

تنقل الشافعي بين مكة وبغداد حتى انتهى به المطاف في مصر سنة 199هـ وفيها توفاه الله . ومن أشهر أتباع الشافعي وتلاميذه الذين نشروا مذهبه : يوسف بن يحيى البويطي المصري ، وإسماعيل بن يحيى المزني ، والربيع بن سلمان المرادي . وقد أملى الشافعي على الأخير كتاب (الأم) .

4 – المذهب الحنبلي :

مؤسس هـذا المذهب أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المولود ببغداد سنة 164هـ والمتوفى فيها سنة 241هـ . درس ببغداد وتنقل وأكثر من الرحلة في طلب الحديث حتى انفرد بمعرفة آثار الصحابة والتابعين ، وحضر دروسا بمجلس القاضي أبي يوسف ، دخل الكوفة والبصرة والجزيرة ومكة والمدينة والشام والتقى بالإمام الشافعي في الحجاز فأخذ عنه الفقه والأصول ، وروى عن هشيم بن بشير وسفيان بن عيينه ويحيى بن سعد القطان .

اشتهر أحمد بن حنبل بالحديث أكثر من اشتهاره بالفقه ، لذا عده العلماء محدثا وليس فقيها ، وكان يكره الفتوى في المسألة التي لم يرد فيها أثر ، ويعتمد في الأصول الفقهية على الكتاب والسنة وفتوى الصحابة والاستصلاح والقياس ، وهو أضعف الأدلة عنده ، وكان يتخير من فتاوى الصحابة في المسألة ما بدا له أقرب إلى نصوص الكتاب والسنة . والملاحظ أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكتب آراءه الفقهية كما فعل الشافعي بل كان يكره كتابتها ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى رغبته في عدم انصراف الناس إلى الفقه عن القرآن والسنة .

يعد كتاب (المسند) أشهر كتبه ولم يرتبه على الأبواب الفقهية بل بحسب السند ، ففيه ثمانية عشر مسندا . ومن أشهر أتباع الإمام أحمد الذين نشروا مذهبه ولداه : صالح وعبد الله ، وقد عني أولهما بالفقه في حين عني الآخر بالحديث . ومن أتباعه ورواة مذهبه : أحمد بن هاني ، وعبد الملك بن مهران الميموني ، وأبو بكر المروزي .

5 – المذهب الشيعي (الجعفري) :

نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالإمام الصادق المتوفى سنة 147هـ عن ست وستين سنة قضاها في الدفاع عن الإسلام ونشر تعاليمه ومناظرة الفرقة الإسلامية ، ويسمى الجعفرية أيضا " الإمامية " لاهتمامهم بالإسلام من ناحية الإمامة أي الخلافة ، وهم يرون أن الأئمة هم علي وأبناؤه من فاطمة حصرا وعلى التعيين واحدا واحدا . وأهم فرق الإمامية (الاثنا عشرية) وسميت بهذا الاسم لأنها تعتقد في اثني عشر إماما على الترتيب من علي بن أبي طالب إلى محمد المهدي المنتظر .

أخذ الإمام الصادق العلم عن أبيه الإمام محمد بن علي المعروف بالباقر وعن جده زين العابدين ، وبقي معهما زهاء ثلاثين عاما يشاطرهما خلالها ألوان المحن التي لحقت بهما من بني أمية وشهد في ريعان شبابه ما نزل بعمه زيد وابنه يحيى من مصائب .

يعول الإمام الصادق في منهجه على الكتاب والسنة ، وتشمل السنة مرويات آل البيت وأحاديثهم وأفعالهم الصادرة عنهم تفسيرا للقرآن وتبيانا للأحكام ، إلى جانب ما صح من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله مما تناقله آل البيت من أحاديث الإمام علي الذي تلقى علما وأقرئ من ابن عمه الرسول الأمين . ويوضح ذلك الصادق في قوله في أحاديثه بقوله : " حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله قول الله ".

أخذ أهل العلم عن الصادق العلم الكثير ، وكانوا إذا رووا عن الإمام جعفر الصادق يكتفون بقولهم : " أخبرنا العالم " ، وبلغ عدد الرواة الثقات من أصحابه أربعة آلاف رجل ، وكان على صلة بفقهاء الإسلام في الأمصار ، وقد أخذ عن الصادق جماعة من التابعين منهم يحيى بن سعيد الأنصاري وأبو عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينه وغيرهم .

إن الخلافات بين الفرق والمذاهب الإسلامية لم تكن جوهرية في أصول المسائل الفقهية ، لهذا فإن أمتنا الإسلامية بخير إن شاء الله ، وإن أوجه الالتقاء بينها أكثر وأكبر بهدف تعزيز الأخوة الإسلامية على الهدى والنور .



مصادر ومراجع الفصل الثامن

1 – القرآن الكريم .

2 – د. إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر النبوي ، دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، 1990 .

3 – د. إبراهيم سليمان الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1997 .

4 – ابن الأثير ، علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، الأجزاء الثاني والرابع والخامس ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1980 .

5 – ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، تحقيق حجر عاصي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1983 .

6 – ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين ، وفيات الأعيان ، تحقيق . د. إحسان عباس، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1980 .

7 – ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الجزء الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1953 .

8 – ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الجزء الثاني ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت.

9 – ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية في التاريخ ، الجزء الخامس ، بيروت ، 1966 .

10 – ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، إعادة يوسف الخياط ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 .

11 – ابن النديم ، محمد بن إسحاق ، الفهرست ، القاهرة ، 1348 .

12 – أحمد أمين ، فجر الإسلام ، القاهرة ، 1934.

13 – آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، الجزء الأول ، بيروت ، 1967 .

14 – البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وأخيه عمر ، الجزء الأول ، بيروت ، 1957 .

15 – الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، الجزء الثالث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

16 – د. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .

17 – د. شوقي أبو خليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1993 .

18– د. صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

19 – الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء الثالث والرابع والخامس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .

20 – عبد العظيم شرف الدين ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الطبعة الثانية ، بنغازي ، 1974.

21 – محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق د. إحسان عباس ، الجزء الأول، دار صادر ، بيروت ، 1973 .

22 – المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، الخطط المقريزية ، تحقيق د. محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، الجزء الثاني ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1998 .

23 – ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1975 .

24 – د. نبيلة حسن محمد ، في تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د.ت .

25 – ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ، معجم الأدباء ، الجزء الأول ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت .

★★★

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	5
الفصل الأول : النظام السياسي في الدولة العربية الإسلامية	7
أولا : الخلافة	9
1 – ألقاب الخلافة	10
2 – شروط الخلافة	11
3 – علامات الخلافة	12
4 – الخلافة عند الأحزاب السياسية	14
ثانيا : الوزارة	17
المراحل التاريخية التي مرت بها الوزارة	18
الوزارة في العصر العباسي	19
ثالثا : الكتابة	21
رابعا : الحجابة	23
الفصل الثانى : النظم الإدارية في الدولة العربية الإسلامية	27
أولا : النظم الإدارية في عهد الرسول ﷺ	29
حكم الولايات في عهد الرسول ﷺ	29
ثانيا : النظم الإدارية في عهد الخلفاء الراشدين	30
حكم الولايات في عهد الخلفاء الراشدين	30
ثالثا : النظم الإدارية في العصر الأموي	34
حكم الولايات في العصر الأموي	34

الموضـــــوع	الصفحة
رابعا : النظم الإدارية في العصر العباسي	36
الدواوين في العصرين الأموي والعباسي	39
مفهوم الديوان	39
1 – أهم الدواوين في العصر الأموي	39
2 – الدواوين المستحدثة في العصر العباسي	44
خامسا : البريد في العصور الإسلامية	46
الفصل الثالث : القضاء في الدولة العربية الإسلامية	53
أولا : القضاء في الجاهلية	55
ثانيا : القضاء في عهد الرسول ﷺ	56
ثالثا : القضاء في عهد الخلفاء الراشدين	57
رابعا : القضاء في العصر الأموي	58
خامسا : القضاء في العصر العباسي	59
مكانة القضاء العباسي	61
شروط القاضي	62
مجلس القضاء	62
النظر في المظالم	64
صلاحيات قاضي المظالم	66
الحسبة	67
أعمال ووظائف المحتسب	69
الفصل الرابع : الشرطة والنظم الحربية العربية الإسلامية	75
أولا : نظام الشرطة	77
ثانيا : تطور المؤسسة العسكرية الإسلامية	80
1 – إمارة الجيش وقيادته	81
2 – رواتب وأعطيات الجيش	82
3 – تشكيلات وأقسام الجيوش العربية الإسلامية	84

الموضوع	الصفحة

4 – الأسلحة والتدريب في الجيوش العربية الإسلامية 85
5 – وسائل وأسلحة الدفاع العربية الإسلامية 88
6 – أصناف الجيش واختصاصاته 90
ثالثا : تطور البحرية الإسلامية 91
1 – الأسطول الإسلامي في العصر الأموي 92
2 – الأسطول في العصر العباسي والدويلات المستقلة 94
3 – صناعة السفن العربية الإسلامية 96
4 – أنواع السفن العربية الإسلامية 97
5 – أسلحة الأسطول وفنون القتال البحرية 97

الفصل الخامس : النظام الاجتماعي في الدولة العربية الإسلامية 101
أولا : أسس المجتمع العربي الإسلامي 103
1 – امتزاج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات الأخرى بعد الفتح العربي الإسلامي 103
2 – نتائج الاندماج والامتزاج 104
ثانيا : عناصر المجتمع العربي الإسلامي 108
1 – العرب 110
2 – الموالي 112
3 – أهل الذمة 114
4 – الرقيق 116
ثالثا : طبقات المجتمع العربي الإسلامي 121
1 – طبقة الحكام 121
2 – طبقة العلماء والفقهاء 122
3 – التجار 123
4 – الحرفيون والصناع وأرباب المهن 123
5 – الطبقة العامة 124
6 – الفلاحون 124

الموضـــــــوع	الصفحة
رابعا : المجالس الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي	125
1- مجالس الطرب والغناء	125
2 - مجالس القصص والقصاص	127
3 - مجالس الوعاظ	128
خامسا : العادات والتقاليد الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي	128
1 - الأسرة العربية الإسلامية	128
2 - المساكن والدور	129
3 - الطعام والشراب	131
4 - وسائل التسلية	133
5 - الأعياد والاحتفالات في المناسبات	134
6 - الملابس والأزياء	137
الفصل السادس : التربية والتعليم والثقافة والمكتبات في الحضارة الإسلامية	**143**
الإسلام والعلم (تقدمة) مختصرة	145
أولا : المؤسسات التعليمية في الدولة العربية الإسلامية	147
أ - البيت	147
ب - الكتاب والكتاتيب	147
ج - القصور	149
د - المساجد	150
هـ - المدارس	152
و - المجالس العلمية	157
ز - الزوايا والربط	158
ثانيا : المكتبات في الدولة العربية الإسلامية	159
1 - المكتبات العامة :	159
أ - بيت الحكمة في بغداد	160
ب - بيت الحكمة التونسي	161
ج - دار الحكمة بالقاهرة	161
د - مكتبة قرطبة	162
هـ المكتبة الحيدرية	162
2 - المكتبات الخاصة (مكتبات العلماء)	162
3 - المكتبات الطبية	164

الموضـــــــوع	الصفحة

الفصل السابع : الدراسات والعلوم اللسانية والإنسانية والتطبيقية 167
أولا : الدراسات والعلوم اللسانية 169
أ – علوم اللغة العربية والمعاجم 169
ب – النحو والصرف 171
ج – علوم الأدب (الشعر والنثر) 173
ثانيا : الدراسات الإنسانية (الاجتماعية) 177
1 – علم التاريخ 177
أساليب ومناهج الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين 179
2 – علم الجغرافيا 182
تطور علم الجغرافيا عند العرب وأشهر المناهج الجغرافية الإسلامية ... 183
3 – الفلسفة 186
ثالثا : الدراسات والعلوم العقلية والتطبيقية 189
أ – الطب 189
ب – الرياضيات والحساب 191
ج – الجبر والهندسة 193
د – علم الفلك 194
هـ علم الكيمياء 197

الفصل الثامن : الدراسات الدينية والعقلية الإسلامية 203
أولا : علوم القرآن الكريم 205
1 – علم التفسير 206
2 – علم أسباب النزول 208
3 – علم قراءات القرآن الكريم 209
4 – إعجاز القرآن 209
ثانيا : علوم الحديث الشريف 209
ثالثا : الفقه والتشريع 212
رابعا : مصادر التشريع الإسلامي 213

الموضـــــوع	الصفحة
1 – القرآن الكريم	213
2 – السنة النبوية	213
3 – الاجتهاد والرأي	214
4 – القياس	215
خامسا : المذاهب الفقهية .. النشأة والتطور	216
1 – المذهب الحنفي	216
2 – المذهب المالكي	217
3 – المذهب الشافعي	218
4 – المذهب الحنبلي	218
5 – المذهب الشيعي (الجعفري)	219

★★★

الحضارة العربية الإسلامية

دراسة في تاريخ النظم

امتازت الحضارة العربية الإسلامية بذلك التراث العريق الضخم الذى ساهمت فيه أممٌ متباينة ، وأجناسٌ متعددة ، جمعها الإسلام ووَحّدَ بينها ، حتى قدمت إنجازًا وإنتاجًا فكريًّا متميزًا ، ساهم بفعالية فى صياغة مفهوم «الحضارة» بمعناه العام ، وبفضله تقدمت أممٌ وشعوبٌ غير عربية حين اتخذته أساسًا لتقيم عليه نهضتها العلمية والحضارية .

وفى هذا الكتاب دراساتٌ تفصيلية عن أبعاد الحضارة العربية الإسلامية من كافة وجوهها : المادية ، والعقلية ، والروحية . . فهو يتناول ـ ويناقش ـ النظام السياسى فى الدولة العربية ، وكذلك النُّظُم الإدارية فيها ؛ ونظم القضاء ، والشرطة ، والجيش ، والبحرية ؛ والنظام الاجتماعى ؛ والتربية والتعليم ، والثقافة ، ودور العلم والكتب ؛ ثم الدراسات والعلوم اللسانية والإنسانية والتطبيقية ؛ وأخيرًا : الدراسات الدينية والعقلية الإسلامية . . . ومن ثَمَّ فهذا الكتاب مرجع هام فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ولا شك فى إفادته لكل راغب فى الإلمام بجوانب تلك الحضارة المجيدة .

تصميم الغلاف : محمد طنطاوى



